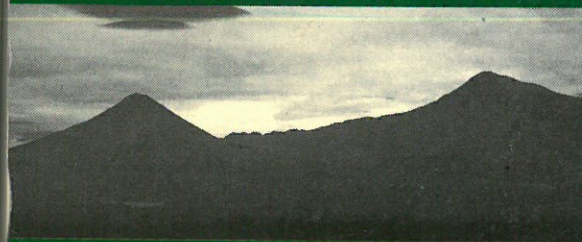




سمیرا عربش



أمة
وشعب

A
956.62
A6641a
c.1

A
956.62
A6641a

أرمينية أرض وشعب

سمير عريش




مؤسسة دار الريحاني
للطباعة والنشر ش.م.م

G14 263765

الإهداء

إلى الأمهات اللواتي يغرسن في قلوب الأطفال حب الوطن ، والاستماتة في الدفاع عن كل ذرة
من ترابه .

إلى الآباء الذين يجسدون قدوة الكفاح ، فيكتسبها الأبناء ، والدرب نفسه يسلكون .

إلى زوجتي وأولادي :

آرمينوهي ، رافي ، سيلفا ، هراتش .

إلى الجدة المتفانية اليزقورومليان ، وما أثمرت من غراس .

إلى الأهل والأحبة والأصدقاء .

وإلى روح كل شهيد ، روى بدمائه الطاهرة ، ثرى الوطن .

سهيير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٩٩١

ՀԱՅԿԱՅԻՆ ԳԼՈՒԽ

Այնպիսի արժեքներով և արժեքներով

Ayp
Pen
Kim
Ta
Yetch
Za
E
Et
To
G
Ini
Lune
Khe

ՀԱՅԿԱՅԻՆ ԳԼՈՒԽ

Այնպիսի արժեքներով և արժեքներով

Tza
Guène
Ho
Tsa
Guath
Djé
Men
Hi
Nou
Cha
Vo
Tcha
Be

ՀԱՅԿԱՅԻՆ ԳԼՈՒԽ

Այնպիսի արժեքներով և արժեքներով

Tché
Ra
Cé
Vève
Dune
Ré
Tso
Hioun
Piour
Ké
Yève
O
Fé

الإنجليزية الأرمنية

مقدمة

أكد أزعم أنني حققت في هذا الكتاب ، « أرمنية .. أرض وشعب » ، ما يصبو له ، كل مهمة بالتاريخ ، أو المعرفة .

وتاريخ الشعب الأرمني ، الذي ضرب جذوره في أعماق الزمن ، حافل بالأحداث المتلاحقة والمتشابكة في آن واحد ، حتى لكأنه لم يجد متسعاً من الوقت لالتقاط أنفاسه ، وهو إلى ذلك ، غني بصور فريدة من نوعها ، ومليء بكل معاني وقيم التضحية والبطولة ، في سبيل البقاء ، إذ كم من الشعوب إنقرضت ، أو إندمجت في غيرها ، لتصبح صفحات مطوية ومنسية في زوايا التاريخ . لكن الشعب الأرمني ، وهو الشعب الذي إشتهر بالذكاء والعبقرية والشجاعة ، صارع الحن والويلات التي حلت به ، فتغلب عليها ، وحافظ على كيانه ووجوده ، مؤكداً حيويته ، وقدرته على تحمل المشاق ، ومجسداً قدوة يحتذى بها .

أما الدوافع التي حدث بي ، إلى تحقيق هذا الكتاب ، فهي أكثر من أن تحصى ، على أنني سأعرض للبعض منها ، من باب إطلاع القارئ الكريم عليها ، كحق له ، وواجب علي .

فقد عرفت الأرمن عن كثب ، منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، بحكم اقتراني من فتاة أرمنية ، على قاعدة الاحترام المتبادل ، حيث حافظ كلانا ، على مبدأ « من ينكر أصله ، لا أصل

له « ، وحيث كسر كلانا ، المثل الشعبي القائل : « من لا يأخذ من ملته ، مات بعلته » ، هذا الدافع ، وإن كان فيه شيء من الخصوصية ، إلا أنه كثيراً ما يطرح مشكلة اجتماعية ، حين يقترن العربي من أجنبية أو العكس .

لكنك مع الأرمن لا تشعر بالغربة ، سيما وأنهم في سورية ، مواطنون نالوا الجنسية ، وكانوا على الدوام ، مثال المواطن الصالح ، الذي بادل الوفاء بالوفاء ، والعرفان بالعرفان .

أما الدافع الآخر ، وهو الأهم باعتقادي ، فيعود إلى الكثير من القواسم المشتركة ، التي جمعت بين الشعبين العربي والأرمني ، فكلاهما قاسى على مدى تاريخه القديم والمعاصر ، من هجمات الأعداء التي إستهدفت وجوده وأرضه ، وهذا ما يلمسه ، كل متتبع للتاريخ وأحداثه ، والأمثلة على ذلك متعددة ، بدءاً من الغزو ، وحتى التشريد ، ومروراً بالإضطهاد العنصري .

لكن نحن ، لم نزد هما سوى صلابة ، وقدرة على التحدي والنضال الذي لم تنطفئ شعلته .

وكما أن قواسم الماضي مشتركة ، فأهداف المستقبل أيضاً ، مشتركة ، طالما أن العدالة لم تتحقق ، والحقوق السلبية لم تسترجع ، الأمر الذي يشد من أواصر التعاون والصداقة بينهما ، لاسيما وأنها قامت بينهما منذ آلاف السنين ، على الإحترام المتبادل ، والتعايش الأخوي ، الذي شمل مختلف مناحي الحياة .

ولهذا ليس غريباً ، أن يقدم العرب للأرمن كل عون ورعاية ، اثر تعرضهم لمذابح الإبادة ، وعمليات الترحيل الجماعي ، ولجؤهم إلى سورية في أول محطة لهم ، كذلك ، ليس من الغرابة في شيء ، أن يحفظ الأرمن للعرب جميلهم ومعروفهم ، وأن يعتزوا بالروابط الإنسانية والنضالية التي تجمع بينهم .

وبحكم عملي في ميدان الإعلام والصحافة قرأت العديد من الكتب التي تتحدث عن تاريخ وحضارة الشعب الأرمني ، بخاصة التي وضعت باللغة العربية ، ومع كامل تقديري لجهود كل من سبقني في هذا المجال ، فقد رأيت أن أحقق هذا الكتاب ، ليضاف إلى المكتبة العربية ، عسى أن يسد فراغاً أو نقصاً ، بالنسبة إلى تاريخ شعب عريق ، غاب عن الجغرافية أكثر من خمسمائة عام ، ثم إنبعث ليأخذ

مكانه بين الشعوب ، واضعاً نصب عينيه ، مؤازرة المجتمع الدولي لقضية العدالة ، وضرورة إيجاد الحل العادل لها .

وحتى لا تشكل المادة التاريخية ، شيئاً من الملل لدى القارئ الكريم ، فقد إعتمدت أسلوب السرد القصصي ، وأوجزت حين الضرورة ، وتوسعت وأسهبته حيث وجدت مناسباً ، كما في فصل الفتح العربي لأرمينية ، وكما في فصل المذابح الكبرى ، التي إعتبرت أول جرائم إبادة جماعية ، في التاريخ المعاصر ، كذلك أفردت ملاحق خاصة ، عن إقليم أرتساخ ، وعن الزلزال — الكارثة ، إضافة إلى جدول تاريخي بأهم الأحداث الأرمينية .

وباعتباري لا أميل إلى الإطالة ، فقد آثرت أن تكون مقدمة الكتاب ، موجزة ، وكلية أمل ورجاء ، أن يكون التوفيق حالفني ، مع إعتذاري المسبق عن هنات غير مقصودة .

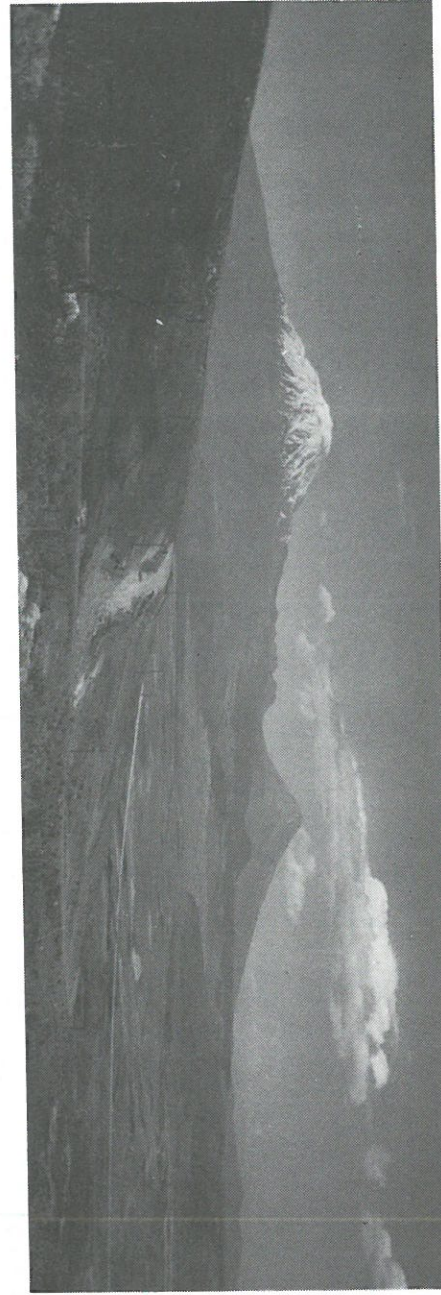
سجيد عريش

توطئة تاريخ وجغرافية

أرمينية .. أرمستان* .. هايستان .. كارستان .. سموخيتي . خمسة
أسماء أطلقت على وطن الأرمن ، المعروف باسم جمهورية أرمينية .

ولعل الاسم المفضل والمحبيب لدى الشعب الأرمني ، هو هايستان
نسبة إلى ملكه وقائده الأسطوري الأول « هايك » ، أما اسم أرمينية فهو
منسوب إلى الملك الأسطوري أيضاً ، آرمن بن هايك . أما أرمستان فمعناه
بلاد الأرمن ، وكارستان ، معناه بلاد الحجارة ، وأما الاسم الخامس
سموخيتي ، فقد أطلقه على أرمينية جيرانها الكرج أو الجورجيون ، وهؤلاء
أقرب الشعوب إلى الأرمن ، وأوثقهم ارتباطاً بهم .

تعرف أرمينية مع جمهوريتي أذربيجان وجورجيا ، بجمهوريات ما
وراء القوقاز ، فهي تقع في جبال القوقاز الصغرى ، وتحدها من الشمال
جمهورية جورجيا ، ومن الشرق أذربيجان ، ومن الغرب تركيا ، ومن
الجنوب إيران ، وتبلغ مساحتها الحالية ، حوالي ٣٠ ألف كم^٢ ، وهي عشر
مساحة أرمينية التاريخية ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة ملايين نسمة .



جبال أراغات ... رمز أرمينية الخالد

تكونت جمهورية أرمنية بشكلها الحالي ، يوم ٢٩ أيلول عام ١٩٢٠ ، ثم انضمت إلى اتحاد ما وراء القوقاز ، مع جمهوريتي جورجيا وأذربيجان وفق معاهدة تفليس المبرمة في ١٢ آذار ١٩٢٢ ، وفي ١٣ كانون الأول من نفس العام ، تحول هذا الاتحاد إلى جمهورية ما وراء القوقاز الاشتراكية الفيدرالية السوفيتية ، وفي ٣٠ كانون الأول من العام المذكور ، انضمت هذه الجمهورية — الثلاثية — إلى الاتحاد السوفيتي ، وفق معاهدة موسكو ، وعند حل هذه الجمهورية ، انضمت أرمنية مباشرة إلى الاتحاد السوفيتي في ٥ كانون الأول ١٩٣٦ ، وهو يوم العمل بدستوره الثالث ، وما زالت على وضعها القائم حالياً ، وتخضع للدستور السوفيتي الرابع الذي عمل به اعتباراً من ٧ تشرين الأول ١٩٧٧ .

يقصد بأرمنية الأصلية أو التاريخية ، الأراضي التي قطنها الشعب الأرمني قروناً طويلة ، فحملت اسمه ، وأصبحت مصطلحاً جغرافياً للأقليم الذي شمل الثلث الشرقي من آسيا الصغرى ، المؤلف حالياً من تركيا وأذربيجان والجزء الجنوبي من جورجيا وكانت أرمنية التاريخية تطل في أوجها على البحرين الأسود وقزوين ، ووصلت في أواخر العصور الوسطى إلى البحر المتوسط .

وبحكم موقعها الجغرافي ، كانت معبراً للتجارة الدولية ، والتبادل الثقافي وميداناً للقتال ، حيث تعرضت من جهاتها الأربعة للغزو . فقد اقتحمها الفرس ، ثم الأتراك السلاجقة ، من الشرق ، والرومان ثم العثمانيون من الغرب ، والعرب من الجنوب ، ثم الخزر والروس من الشمال ، كما تعرضت للضم والتقسيم والهجرة بل ولإبادة حتى تقلصت أراضيها إلى الشكل الحالي .

وتعتبر أرمنية التاريخية أكبر وأعلى إقليم جبلي في آسيا الغربية ، حيث يبلغ متوسط ارتفاعها ١٥٠٠ متر عن سطح البحر ، ويتصف مناخها

بالقسوة ، كما هو الأمر بالنسبة للبلاد الجبلية عامة . وتضم في ربوعها ثلاث بحيرات هامة هي :

• بحيرة سيفان : وهي البحيرة الأرمنية الشمالية ، تبلغ مساحتها ٢٩٨٠ كم^٢ ويصب فيها ٢٨ نهراً صغيراً أهمها نهر « أرجيشي » ، وينبع منها نهر واحد هو نهر « هرزتان » . وتشتهر هذه البحيرة ذات المياه العذبة ، بسمك الأمير المشهور « أشخان تسوك » ، وتحيط بها سلاسل جبلية رائعة ، كما أنها تحوي جزيرة صغيرة تحولت الآن إلى شبه جزيرة ، وبنت فيها الأميرة مريم كنيسة وديراً ، وهي مؤهلة لتصبح محطة سياحية دولية .

• بحيرة وان : وهي البحيرة الأرمنية الجنوبية الغربية ، وتبلغ مساحتها ٣٧٤٠ كم^٢ ، وتقع في دولة تركيا ، مياهها مالحة ، ويصطاد منها سمك الطريخ المشهور ، وتضم جزيرة أختار ، التي بنى فيها الملك الأرمني كاكيك كنيسة أختار وقصراً ومكتبة ، وتضم هذه البحيرة أيضاً ، ثلاث جزر صغيرة وجميلة هي : ليم ، كدوتس ، اردير .

• بحيرة أورمية أو كبوذان : وهي البحيرة الأرمنية الجنوبية الشرقية ، وتبلغ مساحتها ٦٠٠٠ كم^٢ ، ومياهها مالحة جداً لا تعيش فيها الأسماك ، وتقع حالياً في إيران .

أما على صعيد الأنهار ، فهي منتشرة بكثرة في أرمنية وأهمها :

• التوأمان الكبيران : دجلة والفرات ، حيث ينبع الأول من جبال طوروس عند جنوبي بحيرة « وان » ، والثاني من قرية قزيل قليا في قلب أرمنية على بعد ٤٠ كم شمال مدينة أرضروم .

• النهران التوأمان : للكرج والأرمن ، وهما كور وأراكس ، أطول أنهار إقليم ما وراء القوقاز . وينبع نهر أراكس من جبال البنغول ، ويخترق سهل

آارات ، حيث ينضم إلى نهر كورا كرافد له ، ويكوّنان نهراً واحداً يصب في بحر قزوين .

• نهر شوروخ : وينبع بالقرب من مدينة بيبورت ، ويشكل في مجراه العميق حفرة واسعة تفصل أرمينية عن أذربيجان ، يبلغ طوله ٣٥٠ كم ، ويصب في البحر الأسود .

وهناك أنهار أخرى عديدة تصب في البحر الأسود أيضاً ، مثل النهران التوأمان قزل أرمق (هاليس سابقاً) ، ويشيل أرمق ، أما في الجنوب الغربي أي كيليكيا ، فهناك نهر سيهون وجيهون ويصبان في البحر المتوسط . والجدير بالذكر أن نهر أراكس أو الرس ، هو النهر الوحيد الذي ذكره القرآن الكريم باسمه ، حيث ورد به مرتين في سورة الفرقان الآية ٣٨ وفي سورة قاف الآية ١٢ .

تحتوي أرمينية التاريخية جبالاً ذات طبيعة بركانية خامدة ، ترجع في تشكلها إلى العصور القديمة ومن أشهر هذه الجبال :

• جبال آارات : ذات الشهرة العالمية ، وتمتد طبيعياً من بحيرة « وان » إلى بحيرة « سيفان » وتنقسم إلى قسمين :

١ — جبل آارات الكبير أو جبل ماسيس الأكبر ، ويبلغ ارتفاعه ٥١٦٥ م ، وقد قيل أنه جبل الجودي الذي جاء ذكره بالقرآن الكريم ، وأن سفينة نوح رست عليه بعد الطوفان ، ويسميه الفرس حتى الآن جبل نوح . وتبقى الثلوج على ذراه المخروطية على مدار العام ومن هذه الذرى استوحى المهندسون الأرمن قباب الكنائس المخروطية الشكل .

٢ — جبل آارات الصغير ، أو ماسيس الأصغر ، ويبلغ ارتفاعه ٣٩٢٥ م ، وتقع هذه الجبال في الأراضي التركية ، الأمر الذي يثير المارة

والألم لدى الأرمن ، لأنهم يرون جبلهم المقدس أمامهم ، لكنهم لا يملكونه .

• جبال « أراكادز » ، ويبلغ ارتفاعها ٤٠٩٠ م ، وهي ذات قمم بركانية أربعة ، وتقع في قلب أرمينية ، وتشتهر وديانها بالروائح العطرة التي تفوح من ورودها .

• جبال « بنغول » ، وتعرف أيضاً ، بجبال الينابيع الألف ، ومنها ينبع نهر أراكس ومعظم روافد الفرات ، ويبلغ ارتفاعها ٣٦٥٠ م .

• جبال « سيبان » ، ويبلغ ارتفاعها ٤٤٣٤ م ، وتقع بالقرب من الشواطئ الشمالية الغربية لبحيرة « وان » .

وهناك عدد آخر من الجبال مثل « ألارتاغ » ، تونتراك ، نباد ، نمرود ... إلخ .

ومن الطبيعي أن منطقة بهذه الأهمية التاريخية ، كان لها عواصم ومدن هامة لعبت دورها على مر الزمن ، ومن هذه العواصم والمدن :

• أرمافير : عاصمة أرمينية القديمة ، بنيت عام ١٩٨٠ قبل الميلاد على يد « آراميس » حفيد الملك « هايك » على الجانب الشمالي الشرقي لمنحدرات جبل « أراكادز » وبقيت عاصمة للملوك الأرمن قروناً طويلة ، وهي الآن قرية صغيرة تسمى « تابادي بي » .

• أرداشاد : بناها الملك « أرداشيس » في أعوام ١٨٠ — ١٧٠ ق . م على الضفة اليسرى لنهر أراكس ، كعاصمة للمملكة الأرمينية الثانية ، بناء على اقتراح هانيبعل القرطاجي ، الذي لجأ إلى بلاط الملك أرداشيس الأول إثر هزيمته على يد الرومان . وتبعد هذه المدينة عن « يريفان » حوالي ٣٥ كم ، وكان لها شهرة فائقة بمسارحها وقصورها وغاباتها .

• **بكيرانا كيرد** : وبنيت عام ٨٠ — ٨٥ ق . م على الضفة اليسرى لنهر دجلة ، وكانت عاصمة المملكة الأرمنية ، في عهد الملك ديكران الثاني أعظم ملوك الأرمن .

• **دوين** : عاصمة المملكة الأرمنية الثالثة ، وبنها الملك خسروف الثاني ، عام ٣٣١ حتى ٣٣٩ م بالقرب من نهر « أراكس » .

• **آفي** ، وبنها الملك آشوط الأول عام ٨٨٥ م ، وأضحت عاصمة أرمنية في عهد المملكة البقرادونية ، وشيدت فيها القصور الضخمة والمكتبات والمدارس والكنائس ، حتى إنها عرفت باسم « الأف كنيسة وكنيسة » .

• **يريفان** : وهي عاصمة أرمنية حالياً . بنيت عام ٧٨٢ ق . م على يد الملك أرغيشتي الأول ، وأصلها قلعة أيريوني ، والتي تعود إلى عهد مملكة أورارطو القديمة ، وموقعها عند موقع مدينة أرداشاد على نهر هرزدان ، وتعتبر من أقدم المدن في العالم .

وقد بذل الشعب الأرمني كل ما عرف عنه من إبداع ونبوغ ، لتكون عاصمته ممثلة لطابعه الخاص ، فاستخدم في أبنيتها الحديثة أحجار الطوف الملونة ، الصفراء والسوداء والوردية ، وجعل ساحاتها وحدائقها بالبحيرات والنوافير والنصب التذكارية ، التي تخلد ذكرى الأحداث الهامة في تاريخ الأرمن ، وأهمها نصب الشهداء الأرمن في مذابح ١٩١٥ ، ويبلغ عدد سكانها حوالي مليون نسمة .

• **لينيناكان** : وهي مدينة جمرى القديمة ، وقد أصبح اسمها أسكندربول بعد انضمام أرمنية الشرقية إلى روسيا القيصرية ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ١٨٠ ألف نسمة .

• **كيروفاكان** : وهي مدينة قره كليس سابقاً ، وثالث مدن

جمهورية أرمنية حالياً ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ١٣٠ ألف نسمة .

• **وان** : وهي مدينة أورارتية ، أسست حوالي ٨٠٠ قبل الميلاد ، وفي عام ١٠٤٥ ، ضربها زلزال فدمرها تماماً .

• **إتشمياترين المقدسة** : وتقع عند مدينة فغار شباط القديمة وهي مقر الكنيسة الوطنية الأرمنية ، وتضم العديد من الكنائس التاريخية ، والتي تحوي إحداها رفات القديس غريغور المنور ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٤٠ ألف نسمة .

• **أبوفيان** : وهي مدينة حديثة ، سميت بهذا الاسم تكريماً للأديب الأرمني المعروف « أبوفيان » ، ويبلغ عدد سكانها ٣٢ ألف نسمة .

• **كافان** : وتعتبر مركز صناعة التعدين الأرمنية ، وهي سادسة مدن جمهورية أرمنية ، وعدد سكانها ٣٠ ألف نسمة .

• **ستيانافان** : وسميت بهذا الاسم ، تخليداً لذكرى الزعيم الثوري الأرمني ستيان شاهوميان ، وهي « جلال أونخلو » سابقاً .

إضافة إلى ذلك ، ثمة مدن أرمنية تاريخية لعبت دوراً كبيراً على مراحل العصور ، مثل سيباستيا ، أرضروم ، قارص ، طرسوس ، عين تاب زيتون — الرها ، شمشاط ، أردبيل ، سلماس ، ماكو ... إلخ .

أخيراً ، وليس آخراً ، فقد غابت أرمنية عن خريطة العالم ، قرابة خمسة قرون ونصف القرن . مع ذلك ، قامت لتؤكد وجود شعب ، حافظ على لغته القومية الخاصة ، وعلى كنيسته الوطنية المستقلة ، وبذلك ، حفظ كيانه وشخصيته المميزة ، فحق له أن يفخر ويعتز بنضاله الدائم ، وحق علينا وعمل كل الشعوب المناضلة من أجل وجودها وحريتها وكرامتها ، أن نقدره وتكبر فيه شجاعته وإيمانه وصلابته .

الفصل الأول

منهُ الأرمن - أرمينية القديمة

يعتقد العديد من العلماء المعاصرين ، استناداً إلى الحفريات والاستكشافات الحديثة ، التي أجروها في مناطق أرمينية التاريخية ، أنه كان للإنسان البدائي الأول وجود في هذه المناطق خلال العصر الحجري القديم الأول ، وبالتحديد في الفترة « الشيلية » الممتدة ما بين مليون إلى نصف مليون عام قبل الميلاد ، أي بدءاً بالإنسان « النياترتال » وحتى الإنسان « الكروورمانيون » . وقد عثر العلماء على مخلفات إنسان « النياترتال » وأدوات حجرية عادية وبلورية وبركانية ، في كهوف حول نهري أخوريان وهراتزان ، وكذلك في هضاب جبال آرثي ، وآراكادز ، وبنفول ، وآرارات .

مما تقدم ، تعتبر أرمينية التاريخية ، واحدة من مراكز الحضارات الأولى التي تطورت من خلالها الحياة الإنسانية نفسها ، لا بل ، تعتبر من أهم المراكز الاستراتيجية في العالم ، التي انطلقت منها حضارة الإنسان البدائي ، إلى مختلف أرجاء المسكونة .

أما من الناحية العرقية ، فقد صنف علماء السلالات البشرية ، الشعب الأرمني ، ضمن المجموعات الهندو — أوروبية ، لانتائه إلى العرق الآري ، وذلك استناداً إلى دراسات دقيقة في تاريخ هذا الشعب . ولكن من أين يبدأ التاريخ .

إجابة على هذا السؤال ، يقول المؤرخ الأرمني القديم موفسيس الخوريني الملقب بهيرودوت الأرمن ، والذي عاش في القرن الخامس الميلادي ، يقول في كتابه القيم « تاريخ الأرمن » ، أن البطل القومي الأسطوري الملك هايك الأول ، قاد الأرمن في هجرتهم من بابل إلى الشمال ، وأسس مملكتهم الأولى ، وبنى أول عاصمة لهم ، وهي هايكاشن ، وذلك حوالي عام ٢٢٠٠ ق . م ، ومن هنا أطلق الأرمن على أنفسهم اسم « هاي » وعلى بلادهم « هايستان » ، نسبة إلى الملك « هايك » .

ويضيف المؤرخ المذكور ، أن الدولة الأورارتية هي المملكة الأرمنية السادسة التي انحدرت من أي الأرمن « هايك » ، وهذا الرأي يتوافق مع الرأي السائد عند الأرمن حتى ذلك التاريخ ، والذي يعبر من قناعة راسخة لديهم ، بأنهم من السكان الأصليين للأراضي الجبلية الأرمنية .

ويرتبط هذا الرأي أيضاً ، بالأساطير القديمة التي تقول ، أنه بعد الطوفان ، نزل نوح من سفينته على سطح جبل أرارات ، وزرع شتلة العنب الأولى . وأن « هايك » أبو الأرمن ، هو ابن طوركوم ، ابن جومر ، ابن يافت ، ابن نوح ، ثم توارث خلفاء « هايك » وأولهم ابنه الملك أرمن ، وإلى اسمه انتسب الأرمن .

وعلى الرغم ، أن كتاب الخوريني ، كان وما زال ، مرجعاً تاريخياً موثقاً ، فإن الآراء تضاربت حول نشأة الأرمن إلى درجة التناقض أحياناً ، في العديد من المراحل اللاحقة لتاريخ الخوريني ، وذلك بسبب عدم الاعتماد على العلوم المساعدة للتاريخ مثل علم الآثار ، والتراث واللغة وهو الأهم .

لكن الاستكشافات الحديثة التي توجهت إلى العناصر الأثرية واللغوية ، بلورت النظرية الأقرب إلى الصواب والدقة ، حول نشأة الأرمن ، من خلال منظور الحقائق

التاريخية ، التي تشير إلى أن نشأة الشعب الأرمني ، تعود على الأقل ، إلى ما بين الألف السادس والرابع قبل الميلاد ، أي إلى ما قبل ثمانية آلاف من السنين .

إذ ، من الناحية اللغوية ، تقرر على نحو علمي ، مسألة الأسرة اللغوية الواحدة ، فالبنغالية والبنجابية والفارسية والكردية والأرمنية واليونانية والصربية والألبانية والروسية والألمانية والفرنسية والانكليزية ... إلخ تنتمي إلى الأسرة اللغوية الهندو — أوروبية . والعربية والآرامية ... إلخ تنتمي إلى الأسرة اللغوية السامية ، والياكودية والأذربيجانية والأزبكية والكركية والتركية ، تنتمي إلى الأسرة اللغوية التركية ، وهكذا ...

وعلى اعتبار أنه بات من الثابت خضوع اللغة للتطور والتبديل والتحويل عبر مر العصور ، فإنها تشكل مع الزمن لغة أو لهجة مستقلة عن الأصل ، رغم حفاظها على العديد من المفردات المشتركة ، ولهذا ، برهن علم اللغة بشكل قاطع ، على أن الأرمن هندو أوروبيين ، وأن لغتهم هندو أوروبية ، وقد انفصلوا عن الشعب الهندو — أوروبي واللغة الأم ، في الزمن الذي انفصلت فيه مجموعات اليونانيين والختانيين « اللوفيين والهندو إيرانيين » ، ولكن متى تم ذلك الانفصال ، للإجابة على السؤال ، نعود إلى الاكتشافات الحديثة وآراء العديد من الباحثين والمختصين ، والتي أكدت أن اللغة الهندو — أوروبية البدائية ، بدأت بالانقسام إلى فروع منفصلة منذ آلاف السنين ، وقد رجح علماء اللغة أن اللغة الأرمنية انفصلت عن اللغة الأم حوالي الألف السابع قبل الميلاد ، وحتى لا نبعد كثيراً عن موضوع نشأة الأرمن ، نكتفي بهذا القدر من الحديث عن عامل اللغة ، تاركين المجال لمن أراد التوسع ، الانصراف إلى البحوث التي اختصت بهذه المسألة .

وفي الانتقال إلى الناحية الأثرية ، نجد أن المكتشفات الحديثة ، والتي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل ، تؤكد أن الأرمن سكنوا في الهضبة الأرمنية منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل ، وهذا ما توصل إليه على سبيل المثال ، عالم الآثار ساراداريان من خلال بحوثه في علم الإنسان والحماجم . كذلك ، أثبتت المدونات المسماة القديمة ، ظهور كلمة الأرمن بعدة صور منها ، أرمن ، وأرمين ، وأرميانين ، أرمني ، وفي النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، قام ملك الدولة الأكاديمية في بلاد الرافدين ، « نارام — سين » بعدة

غزوات باتجاه الشمال ، وقد عثر على إحدى المدونات الأكادية أن نارام — سين الإلهي الملك الهمام للأطراف الأربعة والفتح لـ أرماني وإيلا . وفي القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد ، أطلق على الهضبة الأرمنية بلاد أورارتو ، أو مملكة أورارتو ، وقد عرف من هذه نقوش هذه المملكة التي كتبت بلغتها وباللغة الآشورية وبالمسمارية ، أسماء وأعمال ملوكها وأولهم آرمي ، ثم شردوري الأول ثم أشيبوني ، ثم أرجتشي الأول ... إلخ .

أما أول ذكر تاريخي لأرمنية ، فيعود إلى عام ٥١٦ ق . م وفق ما جاء في نقش بهستون ، الذي سجل عليه الملك الفارسي القديم دارا الأول انتصاراته . وقد ورد اسم أرمنية ضمن البلاد التي آلت إليه بالمقطع السادس من كتابة العمود الأول في هذا النقش .

إلا أن الوقائع التاريخية الثابتة في تاريخ الأرمن ، تبدأ بتحالفهم مع الميديين ، واشتراكهم معهم ومع البابليين بفتح مدينة نينوى عاصمة الآشوريين عام ٦١٢ ق . م . ويذكر المؤرخ خوريني ، أن من قاد الأرمن في هذه الحملة ، هو أميرهم الأرمني باروير ، وأنه كوفئ على ذلك بمنحه لقب ملك ، ولهذا ينبغي اعتباره مؤسس الدولة الأرمنية القديمة الأولى .

بعد ذلك أصبح الأرمن تابعين للبابليين المحدثين مع استقلال ذاتي ، ثم تبعوا الميديين ثانية ، ثم لدولة الفرس القدماء الأولى التي ضمت لها دولة الميديين عام ٥٥٠ ق . م ، وفي العام ٥٢١ ق . م ثار الأرمن على الفرس إثر مقتل ملكهم قمبيز ، لكن الملك دارا الأول أعادهم إلى الطاعة . واعتبرت أرمنية الولاية الثالثة عشرة من الدولة الفارسية ، وكانت تؤدي جزية سنوية كبيرة ، إلا أن حكامها كانوا من أبنائها ، حيث كان آخرهم ، أورنتس الأول ، وأورنتس الثاني الذي يعتبر مؤسس المملكة الأرمنية القديمة الثانية ، وقد قتل خلال مشاركته في التصدي لحملة الاسكندر الأكبر المقدوني ، الذي قضى على المملكة الفارسية القديمة الأولى ، بعد انتصاره على الفرس في معركة « إربل » الحاسمة عام ٣٣١ ق . م . وإثر وفاة المقدوني ، تفتت امبراطوريته إلى عدة دول مستقلة ، وأهمها الدولة السلوقية ، التي تفرعت عنها الدولة البارثية ، أي الدولة الفارسية الوسطى .

وعلى اعتبار أنه لم يثبت فتح الاسكندر المقدوني لأرمنية وضمها إلى امبراطوريته ،

فقد تمكن حاكمها « مثرانس » من إعلان نفسه ملكاً عليها ، ثم خلفه أورانتس الثالث ، ثم الملك ساموس ، ثم الملك آراسامس ، باني مدينة شمشاط ، ثم الملك اكسرسيس ، ثم الملك ابد يسارس ، ثم الملك أورانتس الرابع باني مدينة أرفند شاط عام ٢١٠ ق . م .

وفي عام ٢١٢ ق . م ، استولى السلوقيون على غرب أرمنية بعد انتصارهم على الملك اسكرسيس وقتله ، وفي عام ٢٠٠ ق . م استولوا على شرق أرمنية ، بعد انتصارهم على الملك أورانتس الرابع وقتله أيضاً ، ونتيجة لذلك قسموا أرمنية إلى ولايتين ، هما أرمنية الكبرى وأرمنية الصغرى ، وأقاموا عليها حاكمين من الأرمن هما ، أرتكسياس للكبرى ، وزاريادريس « زاريه » للصغرى . ولدى هزيمة السلوقيين على يد الرومان عام ١٩٠ ق . م ، أعلن حاكم « الأرمنيتين » استقلالهما ، وحظيا بتأييد الجمهورية الرومانية ، واعتبر الملك ارتكسياس الأول ، مؤسس المملكة الأرمنية الثالثة القديمة . وقد تولى الملك بعده ابنه الملك ارطفزد الأول ، ثم ديكران الأول ، ثم ديكران الثاني عام ٩٥ ق . م ، والذي جعل من مملكته دولة كبرى ضمت إليها أرمنية الصغرى .

الفصل الثاني

أَرْمِينِيَّةٌ مِنْ ٩٥ ق.م. إلى ١٥م

وجه الملك ديكران الثاني ، أو الأكبر ، منذ بداية حكمه ، كل جهوده لتوسيع مملكته الأرمنية ، وتخليصها من نفوذ الدولتين الكبيرتين المجاورتين لها ، وهما الدولة السلوقية والدولة الباريثية ، فتحالف مع مملكة بنطس ، وتزوج من كليوباترا ابنة ملكها مريدات السادس ، وبعد حروب متعددة ، تمكن من التوسع شرقاً وجنوباً ، حتى وصلت حدود مملكته إلى مدينة عكا الفلسطينية ، وحين اعترف ملوك الباريثيين بسيادته ، أعلن نفسه ملك الملوك عام ٨٣ ق . م ، وأصبح أكبر وارث لامبراطورية المقدوني ، ولدولة الفرس القدماء .

امتازت هذه المملكة بغناها ، حيث كان يستخرج من مناجمها الذهب والفضة والنحاس والحديد ، واشتهرت بالزراعة والتجارة والصناعة ، وقد قسمها الملك ديكران إلى عشرين ولاية لتسهيل إدارتها ، ونظم فيها جيشاً بلغ عدده قرابة المائة ألف جندي ، عماده



الأيدي الماهرة... وفن النقش

من الجنود الأرمن الجبليين الأشداء ، كما أسس عاصمة جديدة تناسب عظمة مملكته ، وأسمها باسمه « ديكرانوكيرت » .

وشهدت الفترة من عام ٨٨ ق . م إلى ٧٠ ق . م وعلى مراحل متعددة ، ثلاثة حروب ، عرفت بالحروب المتريدانية ، وقامت بين الرومان ومملكة بنطس ، وانتهت بفتح الرومان لهذه المملكة . إلا أن الملك ديكران لم يتدخل بهذه الحروب . ورغم ذلك ، توجه القائد الروماني « لوكولس » في العام ٦٩ ق . م على رأس قوة قوامها عشرون ألف محارب ، نحو « ديكرانوكيرت » ، لكن الملك ديكران استهان بهذه القوة ، فواجهها بثلاثة آلاف من الخيالة تحت إمرة قائده الأرمني « مدرو بارزنتس » ، وقد انتهت المعركة التي وقعت بين الطرفين بانتصار الرومان ومقتل القائد الأرمني وانهزام قواته .

بعد ذلك ، اتجهت القوة الرومانية إلى العاصمة الأرمنية فغادرها الملك ديكران الأكبر على عجل ، وعهد بالدفاع عنها لقائده الأرمني « مانكاويوس » ثم التجأ إلى مدينة « موش » التي تعتبر معقلاً جبلياً ، وذلك ليجمع قواته ويحرر مملكته ، لكن القائد الروماني ألقى عليه الحصار ، لإيقانه بأن الملك ديكران سيعود بقواته حتماً إلى العاصمة .

وبالفعل تمكن الملك الأرمني ، من جمع جيش قوامه ثمانون ألف محارب ، وتوجه إلى عاصمته المحاصرة ، دون الالتفات إلى النصائح التي قدمت له . وحين تلاقى القوات في ٦ تشرين الأول عام ٦٩ ق . م على نهر « ساتيدما » ، أطلق الملك ديكران مقولته الشهيرة التي ذهبت مثلاً : « إذا كانوا أتو للحرب فهم قليلون ، وإن أتو للصلح فهم كثيرون » . إلا أن المعركة التي سميت بموقعة ديكرانوكيرت ، انتهت بهزيمة الملك ديكران وفراره ، ثم بدخول الرومان إلى العاصمة والاستيلاء عليها .

على أن هذه الهزيمة ، لم تفت من عضد الملك ديكران الأول ، ولم تدفعه للصلح مع الرومان ، بل راح يعد العدة لمواصلة الحرب ضدهم ، وبالفعل جمع جيشاً من سبعين ألف محارب ، وتمكن في عام ٦٨ ق . م من التصدي للرومان ، قرب بحيرة « وان » ، وجرت معركة ثانية بين الطرفين بمحاذاة نهر « ارسناس » ، انتهت بانسحاب الرومان ، وفي عام ٦٧ ق . م ، تمكن الملك ديكران من الانتصار على الرومان في معركة « زيبلا » ، ومن

ثم عبر جبال طوروس واسترد عاصمة مملكته ، وأرغم الرومان على الانسحاب من إقليم ما بين النهرين ، الأمر الذي حدا بروما إلى عزل القائد « لوكولس » ، واستبداله بالقائد « بومي » ، الأكبر .

وبعد جولة من المعارك الجديدة ، وقعت آخرها عام ٦٥ ق . م ، تمكن « بومي » ، نتيجة تحالفه مع البارثيين من القضاء على مملكة « بنطس » ، ثم على أرمنية نتيجة مساعدة الأمير ديكران ابن الملك ديكران الأكبر ، الذي خرج على أبيه ، الأمر الذي دعا الملك الأرمني للاستسلام ، وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسة وسبعين عاماً . لكن القائد الروماني « بومي » ، وهو السياسي المخنك ، قدر جهاد الملك ديكران ، وأدرك أنه ليس الخصم الحقيقي لروما ، بل ملك البارثيين القائم على رأس بلد كبير هو إيران . ولذلك اكتفى بفرض جزية سنوية على أرمنية ، وأبقى ديكران في ملكه ، وخلع عليه لقب « حليف وصديق الشعب الروماني » . وقد بقي الملك ديكران الأكبر بعد استسلامه عشر سنوات أخرى في الملك ، حتى توفي عام ٥٥ ق . م . وما يجدر ذكره ، هو أن أرمنية ، بدأت في عهد هذا الملك الكبير حقاً ، تقوم بدور تاريخي ، هو الوساطة بين عالمي الشرق والغرب ، بعد أن كانت دولة شرقية صرفة .

خلف الملك ارطفرد الثالث ، أباه الملك ديكران الأكبر في حكم أرمنية ، وفي عام ٥٤ ق . م ، قام بزيارة القائد الروماني كراسوس إثر وصوله إلى سورية وعرض عليه أن يجعل من أرمنية قاعدة يشن منها الحرب على قلب إيران ، كونها مهد مملكة البارثيين ومصدر قوتها . لكن القائد الروماني لم يستمع إلى هذه النصيحة ، بل توجه نحو طيسفون العاصمة الجديدة للبارثيين ، ليستولي على كنوزها وذلك عام ٥٣ ق . م . وفي هذه الأثناء اقتحم الملك البارثي أورودس الثاني أرمنية ، وأخذ يخربها لينزع ملكها ارطفرد من إمداد القائد الروماني كراسوس . كما أنه انتصر على الرومان عند بلدة حران بإقليم بين النهرين ، مما حدا بملك أرمنية إلى نبذ تحالفه مع الرومان ، والتحالف مع البارثيين بدلاً عنهم .

وبعد حروب أهلية بين الرومان من جهة ، ومعارك عديدة بينهم وبين البارثيين من جهة ثانية ، ظهر القائد الروماني أنطونيوس ، الذي وجه حملة إلى أرمنية عام ٣٧ ق . م بإمرة قائده كانديوس ، وحارب ملكها ارطفرد الثالث ، وألزمه بالتحالف مع روما . وبعد

عام واحد ، وجه أنطونيو حملة كبرى قادها بنفسه للقضاء على البارثيين ، إلا أنه فشل في هجموه ، نتيجة تخلي الملك ارطفرد عن دعمه . وفي عام ٣٤ ق . م عاد إلى أرمينية وقبض بالخدعة على ملكها ، وعلى ولديه الأميرين ديكران وارطفرد ، واستحوذ على كنوزه ، ومنها التمثال الذهبي لأناهيد ربة الخصب والجمال لدى الأرمن .

ونشبت في الدولة الرومانية حرب أهلية جديدة ، انتهت بانتصار أوكتافيوس على أنطونيو وزوجته كيلوباترا ، التي كانت قد أمرت بقتل ملك أرمينية الأسير ارطفرد الثالث . وفي عام ٣٢ ق . م ، وقع انقلاب في مملكة البارثيين ، أدى إلى استيلاء الملك ترياديس الثاني على الحكم بعد فرار ملكها فراطس الرابع ، الذي تمكن بعدئذ من استردادها ، ثم الاستيلاء على كل من ميديا الصغرى وأرمينية ، التي نصب عليها الأمير الأرمني ارتكسياس الثاني .

ونتيجة للصلح الذي تم بين الرومان والبارثيين عام ٢٠ ق . م ، توجهت حملة رومانية إلى أرمينية أسفرت عن قتل ملكها ، وتنصيب الملك ديكران الثالث عليها . وعقب وفاته عام ١٢ ق . م ، تولى الحكم في أرمينية ابنه وابنته معاً ، الملك ديكران الرابع والملكة إيراتو . غير أن ذلك لم يرق للامبراطور الروماني أغسطس ، فأرسل في العام ١ ميلادي قوة إلى أرمينية عزلت ملكها ، وأقامت بدلها الملك ارطفرد الرابع . وتوالى بعد ذلك عدد من الملوك على حكم أرمينية ، كانت آخرتهم الملكة « إيراتو » ، التي أعادها الأرمن إلى الحكم عام ١١ م ، ثم عزلوها عام ١٥ م . وبذلك أصبح العرش خالياً ، فاعتلاه ملك البارثيين السابق « فونونيس » عام ١٦ م دون تأييد من روما . لكن الأمير البارثي ارطبانوس ، خرج عليه وعزله ، وتولى الحكم بعده باسم الملك ارطبانوس الثالث حتى وفاته عام ٤٠ م .

ومما يقال في هذا العهد ، أنه يحكم إمارة الرها أو اورفا الأرمينية العربية المختلطة بإقليم ما بين النهرين ، من عام ١٣٦ ق . م إلى عام ٢١٦ م ، ملك أرميني هو « أبكار الخامس » ، من عام ١٣ إلى عام ٥١ م المعاصر للمسيح ، وقيل إنه كان أول الملوك المنتصرين ، وذلك حوالي عام ٣٠ م .



ديكران الكبير



هايك



فارطان ماميكونيان

الفصل الثالث

أَرْمِينِيَّةُ بَيْنَ الرُّومَانِ وَالْبَارْتِيِّينَ وَالْفَرَسِ

بعد وفاة الملك أرتابانوس الثالث ، نشب صراع على السلطة بين ولديه اللذين حكمهما معاً ، إلى أن قرر الامبراطور الروماني الجديد كلوديوس الأول ، استرداد أرمينية من البارتيين ، فتم له ذلك ، وأعاد إليها ملكها السابق متريدات الثاني الايبيري ، الذي عزله أخوه ، وأقام بدلاً منه راد مست الايبيري عام ٥١ م . وفي هذا العام ، تمكن البارتيون من غزو أرمينية مجدداً ، ونصبوا تريداد الأول ملكاً عليها . وفي عام ٥٤ م تولى الامبراطور المعروف نيرون حكم رومانيا ، وقرر إعادة فرض سيادة روما على أرمينية ، ولم يتم له ذلك إلا في عام ٥٩ م ، بعد أن استولى قائده كوربولو على العاصمتين الأرمينيتين ارتكسات وديكرانوكرت ، وأقام الأمير الأرمني ديكران ابن اخ ملك أرمينية الأسبق ديكران الخامس والذي كان مقيماً في روما ، ملكاً على أرمينية باسم الملك ديكران السادس ، في العام ٦٠ م ، وبعد عام عين نيرون صديقه عديم الخبرة « باتيوس » ، قائداً ثانياً للقوات الرومانية

بالشرق إلى جانب كوربولو ، فأغار على أرمينية ، ثم انسحب عام ٦٢ إلى نهر الفرات ، حيث هاجمه ملك البارثيين وانتصر عليه ، وأرغمه على عقد صلح يتضمن إجلاء القوات الرومانية عن أرمينية . غير أن هذا الصلح لم يرق للقائد « كوربولو » ، فقصده أرمينية عام ٦٣ ، واتفق مع تريداد الأول أن يبقى ملكاً عليها إنما بصفته تابعاً لروما ، وبقي كذلك حتى وفاته عام ١٠٠ م . وبعد أن توالى على الحكم عدة ملوك من البارثيين ، قرر الامبراطور الروماني الجديد تراجان ، أن ينال مجداً ماثلاً للمجد الذي ناله الاسكندر الأكبر المقدوني . فوجه في عام ١١٤ حملة كبرى إلى أرمينية واستولى عليها ، بعد أن قتل ملكها « فارتاسريس » البارثي ، وجعلها ولاية رومانية ، وأقام قائده كاتليوس حاكماً عليها . ونتيجة لهذه الحملة التي عرفت بالحملة الشرقية ، حقق الامبراطور الروماني توسعاً كبيراً ، بلغ فيه نهر دجلة والخليج العربي .

إلا أن خليفته الامبراطور هادريان استصوب التخلي عن هذه الفتوحات ، وأعاد أرمينية إلى وضعها السابق ، وولى عليها الملك فولوجيس أوفغارش الأول عام ١١٧ ، فعاشت فترة سلام حتى عام ١٦١ .

حين أعلن ملك البارثيين الحرب على روما ، وهاجم قائده خسروف أرمينية ، واستولى على عاصمتها ارتكاست ، إلا أن الرومان عادوا واحتلوا أرمينية ودمروا عاصمتها ، وبنوا لها عاصمة جديدة هي « كاتيولس » ، عند موقع مدينة فغار شباط .

وبعد أن توالى عليها عدد من الملوك البارثيين ، انشق عن آخر ملوكهم ارطبانوس الخامس ، تابعه اردشير الأول الذي قتله في معركة « هرمز » عام ٢٢٤ . وبمقتل الملك ارطبانوس انقرضت دولة البارثيين ، وقامت على أنقاضها الدولة الساسانية ، أو الدولة الفارسية القديمة الثالثة بزعامة اردشير الأول الذي أعلن نفسه ملك « الملوك » .

ومنذ قيامها ، سعت هذه الدولة إلى تقوية مركزها داخلياً وخارجياً ، فعلى الصعيد الداخلي أعادت بشكل رسمي الديانة القديمة التي أسسها زرادشت وأخذت تضطهد سائر الديانات الأخرى ومنها المسيحية . وعلى الصعيد الخارجي ، تطلعت إلى محاربة الرومان واسترداد الأملاك القديمة ، بخاصة وأن الهرم بدأ يدب في أوصال الامبراطورية الرومانية .

وبين دولتي الفرس والرومان ، والحروب التي قامت بينها ، واستمرت حوالي أربعة قرون . كانت أرمينية ، هي الضحية ، أو « تفاحة الشقاق » كما يقال ، حيث تأرجحت بين احتلال الرومان لها طوراً ، ثم الفرس طوراً آخر ، ثم الاستقلال حيناً ، والتقسيم إلى أرمينية الفارسية ، وأرمينية الرومانية أخيراً . وفي غمرة هذا التأرجح ، والاضطراب السياسي الذي بلغ ، إضافة للنزعات الخارجية ، حد الاضطهاد الديني والخلافات الداخلية . شهدت أرمينية ، أهم حدثين في تاريخها ، كان لهما الأثر الكبير في مجرى حياتها على كافة المستويات ، كما ساهما في انبعاث الأمة الأرمنية من جديد .

وقد تمثل الحدث الأول باعتناق أرمينية للمسيحية ديناً رسمياً في العام ٣٠١ ، وتمثل الحدث الثاني ، باختراع الأبجدية الأرمنية عام ٤٠٥ . ويعود الفضل باعتناق أرمينية للمسيحية إلى القديس غريغور المنور ، مؤسس كنيسة الوطن ، في مدينة اتشميازين ومعناها « حيث نزل الوحيد » ؛ أي المسيح . وبذلك تعتبر أرمينية أول دولة في العالم تعتنق المسيحية ، حيث تلتها روما عام ٣١٢ ، وفرنسا ٤٩٦ ، وبريطانيا ٦٠٥ ، وألمانيا ٨٠٥ .

أما الفضل باختراع الأبجدية فيعود إلى القديس مسروب مشطوطس ، الذي ابتكر حروف الأبجدية الأرمنية ، وجعل لها شكلاً خاصاً ، وأفرعاً في ستة وثلاثين حرفاً ، زادت في عهد الحروب الصليبية حرفان . وقد حدث ذلك الابتكار في عهد البطريك اسحق الأول ، الذي شرع والقديس مسروب ، بترجمة الكتب المسيحية المقدسة ، كما بدأت في القرن الخامس ترجمة عيون الأديين الإغريقي والروماني ، وفي ابتكار الأبجدية ، قيل إن القديس مسروب ، اخترع الدرع الواقي للأمة الأرمنية .

فقد حاولت الدولة الساسانية الفارسية ، أن تذيب أرمينية فيها ، عنصرياً ودينياً وحضارياً ، لكنها لم تنجح ، كذلك حاول الرومان السيطرة عليها من خلال سلطة الكنيسة ، لكنهم فشلوا أيضاً . فالأرمن قاوموا حملات الاضطهاد الديني الفارسي بصلافة ودفَعوا العديد من الشهداء ومنهم قائد ثورة ٤٥١ وارطان الأول ماميكونيان ، الذي استشهد في معركة « افاير » ومعهُ حوالي ألف جندي ، ثم أخوه همايك ماميكونيان ، ثم هوسيب الأول ، والقديس ليفون كما قتل الأمير فارسكين زوجته شوشانيك لرفضها الارتداد عن المسيحية .

أما عن محاولات الرومان للسيطرة الكنسية على الأرمن ، فقد جرت مناقشات حادة حول طبيعة المسيح إثر المجمع الخلقيدوني الذي انعقد ٤٥١ ، والذي لم تشترك فيه الكنيسة الأرمنية تأكيداً على استقلالها ؛ فقد رفض الأرمن هذا المجمع وقبلوا بالمجمع المسكونية الثلاثة التي سبقتة وهي مجمع نيقية المنعقد عام ٣٢٥ ، ومجمع القسطنطينية المنعقد عام ٣٨١ ، ومجمع افسس المنعقد عام ٤٣١ . ويأتي رفضهم المذكور ، إدراكاً منهم لميل الدولة البيزنطية إلى فرض سياستها الخاصة على الأرمن وإذابتهم قومياً في البوتقة الرومانية .

وهكذا ، نرى كيف استطاع شعب أرمنية من الحفاظ على شخصيته وقوميته ووجوده ، وصمد أمام حروب طويلة وقاسية بين الرومان والفرس ، انتهت بانهيار المملكة الفارسية إثر الفتح العربي لها عام ٦٤٢ ، ثم بانضمام أرمنية إلى دولة الخلافة العربية الإسلامية .





ساتينيك



آرداشيس

الفصل الرابع

الأرمن والعرب

يعتبر فتح العرب لأرمينية ، استكمال لفتحهم الشام وغرب إقليم الجزيرة .. وتختلف المصادر العربية عن المصادر الأرمنية والرومية والبيزنطية ، في تسجيل وقائعه تفصيلاً ، فتقول المصادر العربية وعلى رأسها كتاب « فتوح البلدان للمؤرخ البلاذري » ، إن أول من قاد الغارات العربية على أرمينية ، هو الصحابي القديم القائد عياض بن غنم الفهري ، رفيق الصحابي والقائد أبي عبيدة عامر بن الجراح في فتح الشام ، ففي عام ٦٣٩ ، ولاه الخليفة عمر بن الخطاب قيادة الجيش العربي ، وعهد إليه بفتح الرها ، والركة ، وحران ، ونصيبين ، وقرقسيا ، وسميساط ، ودياربكر ، وميفارقين .

وبعد أن تم له ذلك ، واصل الفتح والتقدم نحو الشمال الشرقي ، واقتحم أرمينية الرابعة حسب تحديد العرب لها ، والتي كانت تحت حكم الروم أيضاً ... وفتح أرزن الواقعة شرقي ميفارقين ، واتجه نحو بحيرة « وان » مخترقاً مسالك جبال طوروس ، فبلغ بدليس

جنوب هذه البحيرة ، ثم أخلاط شمالها ، التي صالحته ثم العين الحامضة ، ثم عاد إلى إقليم الجزيرة ، كما أنه وجه في عام ٦٤٠ ، الصحابي القائد حبيب بن مسلمة الفهري من شمشاط بعد فتحه لها نحو الجنوب الغربي إلى ملطية وزبطرة ففتحهما ...

وتقول المصادر العربية أيضاً ، إن فاتح أرمينية هو القائد حبيب بن مسلمة الفهري المذكور ، وذلك أنه في عام ٦٤٥ ولاء الخليفة عثمان بن عفان ، قيادة جيش مكون من ثلاثة آلاف مقاتل من عرب الشمال والجزيرة لفتح أرمينية ، فتقدم شمال شرق إلى قاليقا « أرضروم حالياً » ، وفتحها وأجلى أهلها عنها صلحاً ، ثم علم أن الروم يحشدون قوات كبيرة ضده ، فأرسل إلى الخليفة يستنجد ، فأمر واليه على الشام والكوفة معاوية بن أبي سفيان ، وسعيد بن العاص بإمداده ، فأمداه الأول بجيش قوامه ألفي مقاتل من عرب الشام أنزلهم في قاليقا ليكونوا في مؤخرته ، وأمداه الثاني بجيش آخر ، قوامه ستة آلاف مقاتل من عرب الكوفة ، بقيادة سليمان بن ربيعة الباهلي الملقب « بسلمان الخيل » الذي وصل بعد أن كان القائد حبيب بن مسلمة قد التقى بالروم بأعالي نهر الفرات الغربي وانتصر عليهم ، وبعدئذ أرسل القائد حبيب بن مسلمة ، قوة نحو الجنوب الشرقي إلى الضفاف الشمالية لبحيرة « وان » ، فأخضعت أرجيش وباجنيس وموش ، وأتم فتح أرمينية الرابعة ... ثم سار بقواته الرئيسية نحو الشرق متجهاً إلى أرمينية الثالثة ، حسب تحديد العرب لها التي كانت قد صارت بأكملها تحت حكم الروم ، بعد أن انهارت دولة الفرس الساسانية ، وعبر نهر الرس ، ودخلها وفتح بلدة أردشاط أو أزدساط ، وهي بلدة القرمز ، ثم حاصر دوين أو ديبيل قصبة أرمينية الثالثة .. فاستسلمت له صلحاً ، ثم أرسل بعض قواته نحو الشرق إلى جاري فبلغتها إلى أشوش أو شوشة ، ثم اتجه جنوباً وفتح النشوى أو « ناخشيفان » ، فقدم له حاكم البسفرجان مصالحاً ، كما صالحه حاكم السيسان ، وبذلك أتم فتح أرمينية الثالثة ثم سار شمالاً إلى ابيريا أو جورجيا ، وهي أرمينية الثانية التي كانت تعتبر دولة تابعة لمملكة الخزر ، وفتح عاصمتها تفليس صلحاً فأتم فتحها أيضاً ، وتم كل ذلك في المدة من عام ٦٤٥ إلى عام ٦٥٠ .

وفي عام ٦٥٠ سير الخليفة عثمان بن عفان ، القائد سراقه بن عمرو الأنصاري ، ومعه القائد سلمان بن ربيعة الباهلي ، لفتح إقليمي ألبانيا وأران أي أرمينية الأولى ، التي

كانت تعتبر أيضاً تابعة لدولة الخزر ، ففتحها مدن البيلقان وشمخور وعاصمتها بردعة ، ثم أوغلا شمالاً ، فصالحهما حكام موقان وشروان والباب الواقعة غربي بحر قزوين فأتما فتح أرمينية الأولى ، وفي عام ٦٥١ توجه القائد عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، الذي خلف القائد سراقه بن عمرو ومعه أخوه القائد سلمان بن ربيعة الباهلي شمالاً ، لغزو مملكة الخزر القوية المتمركزة بشمال القوقاز ، والتي كانت أرمينية الأولى وأرمينية الثانية تعتبران تابعتين لها واقتربا من عاصمتها « بلنجر » .. ولكن الخزر هزموا قواتهما وقتلوهما ، وكانت هذه الحرب الأولى بين العرب والخزر وهؤلاء هم من أصل تنجاري ، وكان ملكهم وكبرائهم دون عاصمتهم يعتنقون الديانة اليهودية ، وقامت دولتهم من القرن السادس حتى القرن العاشر حين قضى عليهم الروس ...

وأما المصادر الأرمينية والبيزنطية ، وأهمها تاريخ هرقل للمؤرخ الأرمني المطران سبيوس من القرن السابع ، وتاريخ الخلفاء للمؤرخ الأرمني غفوند من القرن الثامن ، فإنها تقول إن العرب شنوا على أرمينية غارتين في عام ٦٤٠ ثم في عام ٦٤٢ ، ووصلوا في الغارة الثانية إلى جبل أارات ، واستولوا على دوين عاصمة أرمينية الثانية وخربوها ثم انسحبوا بما غنموه ، ولم تستطع القوات الأرمينية بقيادة القائد تيودور الرشطواني اللحاق بهم لمقاتلتهم واسترداد الغنائم والأسرى منهم ، وفي عام ٦٤٥ ، وبعد انتصار العرب على الفرس وقضائهم على دولتهم ، وفتحهم لكل بلادهم دخل العرب إلى قلب أرمينية الثالثة من الشرق ، ووصلوا إلى جبل أارات ، واستولوا على أزدشاط ، ولكن القوات الأرمينية تمكنت من صددهم في عام ٦٤٧ ، بقيادة القائد تيودور الرشطواني الذي عقد وحاكم الروم هدنة مع العرب لمدة ثلاث سنوات أكدت بقاء سيادة الروم على أرمينية .

وفي عام ٦٤٩ أمر ملك الروم قسطنس الثاني بعقد مجمع ديني في دوين بأرمينية الثالثة هو مجمع دوين الرابع لضم الأرمن إلى الكنيسة الرومية الأرثوذكسية الملكية ولكن جاثليق الأرمن الأرثوذكسي نرسيس الثالث وحاكم أرمينية وقائدها تيودور الرشطواني عارضاه وتمسكا بالمذهب المونوفيسي الذي تدين به الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية .. وفي عام ٦٥٣ عزل ملك الروم الأمير تيودور الرشطواني من منصب حاكم أرمينية وأعاد إليها

الأمير سمباطاً الخامس البجراطي حاكماً عليها كما أمرها معاً بجمع القوات الأرمنية لمحاربة العرب في قبادوقية ...

غير أن والي الشام معاوية بن أبي سفيان عرض عليهما إبرام صلح تعترف بموجبه دولة الخلافة باستقلال أرمنية وتتعهد بإقامة حاكم عليها من أبنائها مقابل اعتراف أرمنية بسيادتها عليها والتزامها بدفع جزية ضئيلة قدرها عشرة ملايين درهم سنوياً إليها وتعهدتها في زمن الحرب بمدها بخمسة عشر ألف فارس وقبورها وضع حامية عربية في عاصمتها دوين ، وهي شروط تعتبر في صالح أرمنية لأنها تتضمن الإبقاء على كيائها مقابل التزامات معقولة .. فعقد قائدها وأميرها المشار إليهما في هذا العام اجتماعاً لبحث هذا العرض شهده أمراء أرمنية وجاثليقها سالف الذكر .. وقرر المجتمعون قبوله وعقد الصلح بهذه الشروط لما تقدم وللخشية من هجوم العرب ولعدم الثقة في الروم لتعرضهم لدينهم .. وضماناً لتنفيذه أرسلوا الأميرين الأرمنين سمباطاً الخامس البجراطي وجرجور الأول ماميكونيان رهيتين إلى الأمير معاوية بن أبي سفيان الذي صادق على الصلح وأقام الأمير الأرمني تيودور الرشطواني حاكماً أو إشخاناً على أرمنية من قبل دولة الخلافة .. كما أنه في نفس الفترة عام ٦٥٣ أقر الأميران جانشر ، واصطفان الثاني حاكماً ألبانيا وإيبيريا وهما أرمنية الأولى وأرمنية الثانية بسيادة دولة الخلافة عليهما ...

ورداً على ذلك قاد ملك الروم قسطنس الثاني حملة ضد أرمنية في العام نفسه دون أن يأبه لتحذير بن أبي سفيان من أن أرمنية صارت تابعة لدولة الخلافة .. واحتل كارن (أرضروم) عاصمة أرمنية الرابعة ثم دوين عاصمة أرمنية الثالثة وأقام الأمير الأرمني موشغ الثالث ماميكونيان حاكماً عليهما وهدد الأمراء الأرمن وجاثليقهم بتخريب بلادهم فانصاعوا له فيما عدا الأمير تيودور الرشطوني الذي ظل على ولائه لدولة الخلافة ولجأ إلى جزيرة أختار في بحيرة « وان » ، وأيده أميراً ألبانيا وإيبيريا اللذان بقيا أيضاً على ولائهما لدولة الخلافة . ولهذا حين عاد ملك الروم إلى بلاده عام ٦٥٤ انحاز حاكم أرمنية ماميكونيان إلى العرب أيضاً ، واستدعاهم هو والأمير تيودور الرشطوني وصهر هذا الأخير الأمير الأرمني همازسب الثاني ماميكونيان للعودة لاسترداد أرمنية الثالثة وأرمنية الرابعة فعادوا إليهما واستردوها بعد أن هزموا قوات الروم التي كانوا قد تركوها بهما بقيادة القائد

الرومي موريانوس أو الموريان عند أرزن .. فتم للعرب فتح كل أرمنية من جديد وإن كانت لم تستقر لهم إلا بعد عام ٦٦١ ..

ومما يجدر ذكره أن التقاء العرب بالأرمن في الحرب لأول مرة لم يكن أثناء فتحهم لبلادهم أرمنية بل إنهم التقوا بهم قبل هذا الفتح لأن أرمنية كانت قبله مقسمة بين دولتي الفرس الساسانية والروم البيزنطية ولهذا كان الأرمن يعملون في القوات المحاربة لهاتين الدولتين ، وقد سجل التاريخ أن قوات أرمنية بلغ عددها أربعة آلاف جندي كان يقودها الأميران الأرمنيان جرجور ماميكونيان « وهو طبعاً غير الأمير الأرمني جرجور الأول ماميكونيان السابق ذكره » وجرجور السيوني .. قاتلت ضمن القوات الفارسية التي قادها القائد الفارسي رستم في معركة القادسية بالعراق التي وقعت عام ٦٣٦ وأنهما قتلا معه فيها وأن قوات أرمنية أخرى عددها ١٢ ألف جندي كان يقودها قائد أرمني ثالث هو جرجة بن توزر قاتلت ضمن القوات الرومية التي حاربت العرب في معركة أجنادين بالشام عام ٦٣٤ ، وأنه طبقاً لرواية مؤرخي العرب فإن هذا القائد الأرمني قد تأخى مع القائد العربي خالد بن الوليد وأسلم في ساحة هذه المعركة قبل وقوعها وخاضها في جانب العرب ضد الروم حتى استشهد فيها .. وأن قائداً أرمنياً رابعاً هو فاهان قاد قوات الروم بعد معركة أجنادين بالشام ثم اشترك في معركة اليرموك في عام ٦٣٦ طبقاً لما سبق بيانه .. وأنه إثر انهزام قواته فر إلى الجولان حيث قتل ..

ومن ذكريات فتح العرب لأرمنية لدى الأرمن الملحمة الشعبية الأرمنية المعروفة « بملحمة داود الصاسوني » بطلهم الأسطوري الذي جسدوا فيه مقاومتهم لهذا الفتح .. ولم يزلوا يذكرونه ، وقد أقاموا له مؤخراً تمثالاً ممتطياً جواده السحري جلالى صنعه المثال الأرمني المعاصر إرفند كوشار ونصبوه أمام محطة السكة الحديد في يريغان ، وقد عاصر الفتح العربي لأرمنية المؤرخ الأرمني المطران سبيوس من أهالي القرن السابع وسجل أحداثه وأحداث الحرب الطاحنة التي سبقته بسنوات بين دولتي الفرس الساسانية والروم البيزنطية في تاريخه المسمى « تاريخ هرقل » . كما أن مؤرخاً أرمنياً آخر هو غفوند من أهالي القرن الثامن قد سجل أيضاً أحداث الفتح العربي لأرمنية وأكمل تاريخ المطران سبيوس في كتابه المسمى « تاريخ الخلفاء » أو « تاريخ غزوات العرب لأرمنية » .

وضع أرمينية في دولة الخلافة العربية الإسلامية

دخلت أرمينية في نطاق دولة الخلافة العربية الإسلامية وضمت إليها بصفاتها إحدى ولاياتها ، والواقع أن أرمينية لم تندمج ولم تذوب في هذه الدولة بل ظلت أرمينية داخلياً محتفظة بشخصيتها المميزة لها التي أبقتها لها لغتها القومية الخاصة وكنيستها الوطنية المستقلة وحكامها من أبنائها ..

وقد قسم الجغرافيون العرب أرمينية إلى أربع أرمينيات وهو تقسيم يشابه إلى حد ما تقسيم الرومان لها في أواخر عهدهم وتفصيل هذا التقسيم العربي هو :

أولاً : أرمينية الأولى

وهي بلاد الران أو أران أو ألبانيا « وهي طبعاً غير ألبانيا الحالية » أو الأغوان الواقعة شمالي المجرى الأدنى لنهر أراكس قبل اجتماعه بنهر كورا ومصبهما في بحر قزوين — أي في الشمال الشرقي لمجموعة أرمينية وتطل على هذا البحر وقصبتها بردعة (برتف) ومن مدنها بجروان وورثان وأشوش وكنجه (كيروف آباد حالياً) والبيلقان .. وكانت تمتد شرقاً لتشمل إقليم شروان الذي قصبته الشاخية (شماخي) ومن مدنه ميناء باكو ، ثم اقليمي دربند الواقع شماله الذي قصبته ميناء دربند أو باب الأبواب ، وموقان الواقع جنوبه والذي قصبته موقان .. وكانت أرمينية الأولى تحد شرقاً أرمينية الثالثة وهي تكون حالياً على وجه التقريب جمهورية آذربيجان ..

ثانياً : أرمينية الثانية

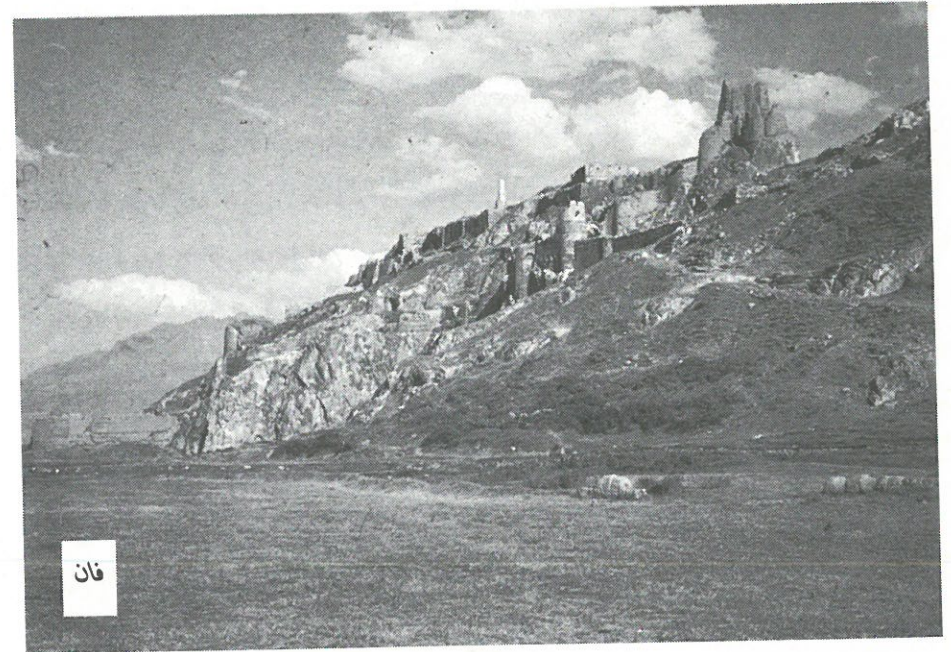
وهي بلاد جرزان أي جروزيا أو جورجيا أو الكرج أو ايبريا الواقعة حول المجرى الأعلى لنهر كورا أي في الشمال الغربي لمجموع أرمينية وتطل على البحر الأسود ، وتشمل أيضاً الأنحاذ وجبال القوقاز أو قاف — وكانت قصبتها تفليس ، وكانت تحد شمالاً أرمينية الثالثة — وتكون حالياً على وجه التقريب جمهورية جورجيا ..

ثالثاً : أرمينية الثالثة

وهي البلاد الواقعة بين شرقي بحيرة وان والممتدة شرقاً حتى بحيرة أرمية وحتى نهر



مشهد جميل لجبل أرارات الأكبر



فان

الرس عند مجراه الوسط تم بعده حتى بلاد الران .. أي في الجنوب الشرقي لمجموع أرمنية . وكانت تشمل بحيرة سيفان وإقليم قشايق الحاوي لمدن أردشاس ، ودوين ، وفغار شباط (اتشمياتزين) ، ويريفان ، وسيسان ، والنشوى أو ناخشيفان الواقعة شرقي نهر الرس ومدينة أني وبغران ، وجبل أرارات .. وتشمل كذلك إقليمي بغروند والبسفرجان الحاويين مدينتي كغب — ووان — الواقعين غربي هذا النهر أيضاً .

كما أن أرمنية الثالثة كانت تصل إلى البحر الأسود عند ميناء طرايزون ، وكانت قصبته مدينة دوين أو ديبيل التي كانت مقر والي دولة الخلافة على أرمنية بأقسامها الأربع ومقر جاثليق الكنيسة الأرمنية الوطنية ..

وكانت أرمنية الثالثة تحد جنوباً أرمنية الأولى وأرمنية الثانية وشرقاً أرمنية الرابعة ، وهي تكون الآن على وجه التقريب جمهورية أرمنية وجمهورية ناخشيفان ذات الحكم الذاتي وجزءاً من أرمنية الغربية بالدولة العثمانية السابقة يقع في جمهورية تركيا حالياً .

رابعاً : أرمنية الرابعة

وهي البلاد المحيطة ببحيرة وان والتي تمتد غرباً وشمال غرب منها حتى حدود دولة الروم البيزنطية بشرق آسيا الصغرى في سيواس (سبسطة) وقيصرية . وكانت تحوي أعالي نهر الفرات وروافده وأعالي نهر دجلة أي أنها واقعة في الجنوب الغربي لمجموعة أرمنية . وهي أقاليم سراج طير أي طارون وأقاليم مدن وسطان وأرجيش وأخلاط ، وملازكرد ، وموش ، وبديليس ، وأرزن ، وقاليقا .. وكانت هذه تمتد جنوباً وجنوب غرب إلى أقاليم مدن ميافارقين ، وآمد (ديار بكر حالياً) وملطية ، وسميساط ، والرها ، ومرعش ، وكانت تحد غرباً أرمنية الثالثة .. وهي تكون حالياً جزءاً من أرمنية الغربية بالدولة العثمانية السابقة يقع في جمهورية تركيا الآن .

وفي منتصف القرون الوسطى قسمت أرمنية تقسيماً آخرًا جديدًا إلى أرمنيتين هما أولاً — أرمنية الكبرى التي شملت أرمنية الثالثة والرابعة طبقاً للتقسيم العربي السابق — وثانياً أرمنية الصغرى التي كانت تقع في إقليم قليقية بالزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط حول خليج الاسكندرية ، والمطل عليه بجمهورية تركيا حالياً ، والذي يجري به نهر سيجان

وجيجان ، ويشمل سهلها ويمتد إلى جبال طوروس شمالاً ويضم مدن أضنة ، وسيس ، والمصيصة ، وعين زربة ، ومواني مرسين ، وطرسوس ، وأياس . ثم بغراس .. وكان هذا التقسيم الجديد نتيجة لهجرة بعض الأرمن من أرمنية الكبرى بسبب زوال دولتهم فيها إلى إقليم قليقية وإقامتهم فيه دولة أرمنية جديدة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر سميت بأرمنية الصغرى أو مملكة سيس نسبة لعاصمتها وعاشت في المدة من عام ١٠٨٠ وحتى عام ١٣٧٥ .

ألف مسلمو دولة الخلافة العربية الإسلامية الوضع الخاص لأرمنية واحترموا عهود أسلافهم للشعب الأرمني التي أقرت وضعهم الخاص جرياً على تسامحهم وسماحة دينهم دين الإسلام إلى حد أنهم استنكروا اعتداء بعض حكامهم وأمراءهم على استقلال أرمنية الحدود ، واعتبروه خرقاً صارخاً لهذه العهود الملزمة شرعاً لدولتهم والتي روعيت فيها مصلحة طرفيها .. ولنتأمل الإدانة القوية من أحد المفكرين العرب المسلمين وهو الجغرافي العربي ابن حوقل النصيبي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي للاعتداءات المذكورة على أرمنية في كتابه « صورة الأرض » فقد قال « كانت أرمنية في قديم الأيام لسنباط بن أشوط (الملك الأول البجراطي) ولأجداده ولم تزل في أيدي الكبراء منهم فأزالها أبو القاسم يوسف بن أبي الساج « الوالي التركي للخليفة العباسي المقتدر على أرمنية وآذربيجان عنهم وأخرجها من أيديهم وبأيديهم عهود للصذور الأوائل بإقرارهم على حالهم وأخذ الجزية منهم على ما جرت به مقاطعتهم . وكان بنو أمية وبنو العباس قد أقروهم على سكناتهم يقبضون الرسوم عليهم من جباياتهم فتحيفهم وقصدهم . ولم يفلح بعد عذرهم ولا ارتفعت لهم راية إلى اليوم . والغالب على أرمنية النصرانية وللسلطان عليهم كالخراج في كل عام . وكأنهم اليوم في عهد على حسب ما كانوا عليه بغير حقيقة تطرقهم السلاطين المجاورين لهم ، فيسبونهم ويؤذونهم ويحرقون ذمتهم .. وكان رقيقهم لا يباع ببغداد وأدركته كذلك إلى عام ٩٢٧ م ، لأنهم في ذمة معروفة ومعهم غير عهد » .

وعلى ما تقدم لم ينتشر الإسلام في أرمنية إلا انتشاراً محدوداً وكان انتشاره المحدود هذا في أرمنية الرابعة على ما سبق بيانه ، وكان سببه هو قربها من أقاليم دولة الخلافة ووجود حاميات عربية لها وتهجير بعض العرب إليها وخاصة من قبيلة ربيعة إذ نقلهم إليها الوالي

يزيد بن مزيد الشيباني في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (عام ٨٠٩) . وكان هذا التهجير على نطاق ضيق عموماً .. فلم يؤثر بصفة عامة في التكوين العنصري واللغوي لأرمينية . وقد لاحظ المستشرق البريطاني جاي لسترنج ذلك حينما قال في كتابه بلدان الخلافة الشرقية (أما أقاليم الران وشروان وجورجيا وأرمينية ، وهي في مجملتها في شمال نهر الرس ، فقد كان يصعب عدها من ديار الإسلام ولهذا لم يتبسط البلديون العرب في وصفها .. لقد أقام فيها المسلمون منذ صدر الإسلام وولى الخلافة عليها عمالهم في أوقات مختلفة ، غير أن أغلب أهلها بقوا على نصرانيتهم حتى أوشكت العصور الوسطى أن تنتهي وما زالت هذه البلاد على ذلك حتى حل فيها المسلمون ثانية عقب الفتح المغولي ولا سيما بعد الحروب الكثيرة التي شنها تيمورلنك على جورجيا في ختام المائة الثامنة للهجرة (الرابعة عشرة ميلادية) إذ استقر فيها الترك فصار الإسلام السائد فيها) .

ومن أشهر الرجال الأرمن المسلمين الذين نبغوا في مصر والتي هاجروا إليها في عهد الدولة الفاطمية الأمير بدر الجمالي الأرمني المعروف بأمير الجيوش المتوفى في عام ١٠٩٤ وزير الخليفة الفاطمي المستنصر ومجدد الدولة الفاطمية .. وإليه ينسب حي الجمالية ، وحي مرجوش ، أي أمير الجيوش بالقاهرة .. وقد تولى الوزارة لمدة عشرين عاماً من عام ١٠٧٤ حتى عام ١٠٩٤ ، وقال عنه المؤرخ المصري المعروف المقرئ المتوفى سنة ١٤٤١ في كتابه (اتعاظ الخفاء بأخبار الخلفاء) : « إن جنسه أرمني ، وإنه تحكم في مصر تحكم الملوك ، وأصلحها بعد فسادها ، وإنه كان عفوف النفس ، شديد البطش ، عالي الهمة ، عظيم الهيبة ، حسن التأني ، جميل السياسة .. مظفراً سعيد الجد سخياً مفضلاً .. » .

وكذلك نبغ بمصر من الأرمن الذين استعربوا وبقوا على المسيحية المؤرخ أبو صالح الأرمني الذي ألف في مصر في عام ١١٦٨ تاريخاً هو في الواقع وصفاً لكنائسها وأديرتها وبعض أحوالها وذكر ضمنه أنه كانت بها في عهد الدولة الفاطمية جالية مسيحية أرمينية هاجرت إليها وتجمعت حول وزرائها الأرمن رغم إسلامهم وكان لها بطريكتها وكنائسها ودير بجنان الزهري (بركة الناصرية الآن) وآخر بالبساتين بالقاهرة ، ثم هاجرت منها إثر تولي السلطان صلاح الدين الأيوبي وزارتها في عام ١١٦٩ ، مؤذناً بزوال الدولة الفاطمية التي ألغاه في عام ١١٧١ .

ووردت أيضاً بالمراجع القديمة أسماء قليلات من النساء الأرمنيات — المسلمات — بلغ خمس منهن الملك وهن الأولى بدر الدجى أو قطر الندى أم الخليفة العباسي القائم (عام ١٠٣١ / عام ١٠٧٥) وزوجة الخليفة العباسي القادر (عام ٩٩١ / عام ١٠٣١) والمتوفاة في بغداد عام ١٠٦٠ .

والثانية قرّة العين أو أرجوان زوجة الأمير محمد ذخيرة الدين بن الخليفة العباسي القائم (عام ١٠٣١ / عام ١٠٧٥) وأم الخليفة العباسي المقتدى (سنة ١٠٧٥ / عام ١٠٩٤) والمتوفاة في بغداد في عام ١١١٨ . بعد أن شهدت خلافته وخلافة حفيدها الخليفة العباسي المستظهر (عام ١٠٩٤ / عام ١١١٨) وخلافة ابنه الخليفة العباسي المسترشد (عام ١١١٨ / عام ١١٣٥) .

والثالثة ست الملك بنت بدر الجمالي ، زوجة الخليفة الفاطمي المستعلى ، والرابعة بنت طلّاع بن رزيك (التي لم يذكر اسمها) زوجة الخليفة الفاطمي العاضد .

والخامسة شجرة الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب (عام ١٢٤٠ / عام ١٢٤٩) سلطان مصر الأيوبي ، وكان لها فضل كبير في هزيمة الحملة الصليبية التي قادها القديس لويس أو الملك لويس التاسع ملك فرنسا ضد مصر وأسرته في عام ١٢٤٩ وقد تولت ملكة لمصر ثلاثة أشهر في عام ١٢٥٠ ثم خلعت نفسه وتزوجت وزيرها الملك المعز عز الدين أيبك التركماني فولى بعدها سلطاناً على مصر (عام ١٢٥٠ / عام ١٢٥٧) فكانت أول من تولى السلطنة من دولة المماليك المصري (عام ١٢٥٠ / عام ١٥١٧) بعد انقراض الدولة الأيوبية ثم توفيت مقتولة في عام ١٢٥٧ بالقاهرة ..

أرمينية منذ الفتح العربي حتى نهاية الدولة الأموية (عام ٦٥٣ / عام ٧٥٠)

كان أول حاكم أو أمير أو إشخان لأرمينية في العهد العربي هو زعيمها تيودور الرشطوني الذي عقد في عام ٦٥٣ مع معاوية بن أبي سفيان الصلح الذي تم بموجبه وضع أرمينية تحت حماية أو سيادة دولة الخلافة العربية الإسلامية إذ أقامه معاوية إعمالاً لهذا الصلح حاكماً أو إشخاناً عليها من قبل هذه الدولة . وقد بقي على ولائه لها حتى بعد عودة الروم إلى أرمينية وانضمام كثير من أبنائها إليهم في ذات تلك السنة واعتصم في جزيرة اختمار

الواقعة في بحيرة وان ، ثم ساعد العرب على استعادة أرمينية من الروم في عام ٦٥٤ وبقي حاكماً أو اشخانا عليها من قبل العرب حتى توفي في دمشق عاصمة الشام عام ٦٥٦ ، وإثر وفاته قام بدله زوج ابنته الأمير الأرمني هماز سب الثاني ماميكونيان حاكماً على أرمينية (عام ٦٥٦ / عام ٦٥٨) غير أن معاوية اضطر في سنة ٦٥٧ إلى سحب القوات العربية من أرمينية لحاجته إليها في الحرب الأهلية المسماة بالفتنة الكبرى (عام ٦٥٦ / عام ٦٦١) إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان .. وانحاز حاكم أرمينية المذكور إثر ذلك إلى الروم فعينوه حاكماً عليها من قبلهم ..

وفي عام ٦٦١ انتهت هذه الحرب الأهلية بدولة الخلافة بانتصار الأمير معاوية الذي تولى الخلافة وأسس الدولة الأموية وحصرها في بني أمية .. ثم كاتب حكام بلدان ما وراء القوقاز الثلاث أرمينية وألبانيا وإيبيريا للعودة إلى طاعة دولة الخلافة فعادوا إليها دون قتال — وأقام على أرمينية حاكماً جديداً هو الأمير الأرمني جرجور الأول ماميكونيان (عام ٦٦٢ / عام ٦٨٥) أخو حاكمها السابق فظل يحكمها حتى عام ٦٨٥ وفي أول عهده أمر بأن تنقل من بلدة طرندة القريبة من ملطية أو من القسطنطينية في رواية أخرى إلى فغار شباط (إتشميانزين) بأرمينية رفات القديس جرجور المنور مؤسس الكنيسة الأرمنية الوطنية ودفنها في كنيسة الأمير الذي أهل هذه البلدة الأخيرة لكي تكون فيما بعد وحتى الآن مقراً لجائليق الأرمن رئيس هذه الكنيسة . وفي عام ٦٨١ في أواخر عهد هذا الحاكم قامت بدولة الخلافة الحرب الأهلية الثانية (عام ٦٨١ / عام ٦٩٢) نتيجة لصراع ثان على السلطة فيما بين الخليفة الأموي يزيد الأول بن معاوية بن أبي سفيان وبين الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المطالب بالخلافة فانتصر حكام بلدان القوقاز الثلاث أرمينية ، وألبانيا ، وإيبيريا هذه الفرصة وخلعوا طاعة دولة الخلافة وتحالفوا معاً ضدها ثم ضد دولة الخزر التي غزت بلادهم من الشمال .. وقد قتل حاكم أرمينية المذكور جرجور الأول ماميكونيان في هذه الغزوة في عام ٦٨٥ ... وإثر وفاة هذا الحاكم تولى بعده حكم أرمينية الأمير الأرمني أشوط الثاني البجراطي (عام ٦٨٦ / عام ٦٩٠) من أسرة البجارطة المنافسة لأسرة ماميكونيان التي عرفت بولائها للروم ، وذلك بموافقة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وتمكن من صد هجوم الخزر ، وانتهزت أيضاً دولة الروم فرصة ما حل

بدولة الخلافة فطمعت في استرداد أرمينية ، واضطر الخليفة المذكور في عام ٦٨٥ أن يبرم مع ملك الروم جوستينيان الثاني معاهدة اقتسمت بموجبها دولتا الخلافة والروم السيادة على أرمينية وخراجها .. ولم يكتفِ الروم بذلك فأرسلوا في سنة ٦٨٦ جيشاً بقيادة « ليونتيوس » إلى أرمينية للاستحواذ عليها .. فاضطر أميرها أشوط الثاني البجراطي إلى الاعتراف بسيادة الروم عليها ، ولكن دولة الخلافة أرسلت أيضاً جيشاً إلى أرمينية لطرد الروم منها .. فحاربه أميرها أشوط الثاني البجراطي بصفته تابعاً للروم وقتل أثناء الحرب عام ٦٩٠ .

وتمكن الروم من صد العرب عن أرمينية وفرضوا منذ عام ٦٨٦ وحتى عام ٦٩٣ سيطرتهم على بلدان ما وراء القوقاز الثلاث أرمينية ، ألبانيا ، إيبيريا ، بل وألزموا مؤقتاً الأمراء الأرمن وجائليقهم إسحق الثالث بالانضمام إلى كنيسة الروم الأرثوذكس الملكية ، وهي الكنيسة الرسمية لدولة الروم .. وذلك نتيجة للحملة الرومية التي قادها في ذات ذلك العام (عام ٦٩٠) ملكهم المذكور شخصياً إلى أرمينية — وقبل أن يعود منها أقام عليها من قبله حاكماً جديداً هو الأمير الأرمني نرسي كامسار كان (عام ٦٩٠ / عام ٦٩١) غير أنه لم يحكمها إلا سنة واحدة حيث استبدل به حاكماً آخر لأرمينية هو الأمير الأرمني سمباط السادس البجراطي (عام ٦٩١ / عام ٧١٧) .

وفي عام ٦٩٢ انتهت الحرب الأهلية الثانية في دولة الخلافة بانتصار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان .. وإثر استقراره فيها نهض لاسترداد أملاك دولة الخلافة .. ففي عام ٦٩٣ أقام أخاه محمداً بن مروان الأموي والياً على بلدان القوقاز الثلاث ، فانتقل إلى أرمينية الرابعة حيث أمر باحتكار الدولة لتجارة السمك الذي يصطاد من بحيرة وان ، حيث كان مطلوباً في كل دولة الخلافة . وفي عام ٦٩٧ قصد أرمينية الثالثة حيث أطاعه حاكمها الأمير الأرمني سمباط السادس البجراطي وأعلن ولاءه لدولة الخلافة .. ولما علم بذلك طياريوس الثالث ملك الروم أمر بعزل البجراطي ، وأرسل حملة رومية للقبض عليه ، ولكنه تمكن من صدها عند قاليقا (أرضروم) في عام ٦٩٨ .

ورغم ذلك اعترف نائب الوالي العربي عبد الله بن حاتم الباهلي القضاء على استقلال أرمينية بالقضاء على طبقة نحرارها أي أمرائها بحجة عدم ولائهم لدولة الخلافة فأمر في عام

٦٩٩ بالقبض عليهم ومصادرة أموالهم .. وأرسل حاكمها الأمير الأرمني سمباطاً السادس وجائليهما إسحق الثالث رهينتين إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في دمشق .. ولكن الخليفة أفرج عنهما وأعادهما إلى أرمينية عام ٧٠٠ ، غير أن الأمير سمباطا اعتزم الرد بالقوة على هذه السياسة الجائرة فدعا في عام ٧٠١ إلى اجتماع عام لكل نحرار أرمينية في أكوجي على السفوح الشمالية لجبل أرارات شهده الأمير الأرمني ورد الرشطوني ابن الأمير تيودور الرشطوني الحاكم الأول لأرمينية من قبل دولة الخلافة وعقد الصلح معها ، وأمير إقليم البسفرجان الأرمني وغيرهما ، فقرروا الخروج على دولة الخلافة ، وحشدوا حشودهم وعبروا نهر الرس وساروا شرقاً لملاقاة الجيش العربي الذي قصدهم من ناخشيفان وتغلبوا عليه في معركة وردان كرد .

ولما بلغ خبر هذه الهزيمة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أمر واليه على إقليم ما وراء القوقاز كله أخاه محمد بن مروان الأموي ، وقائده عثمان بن الوليد بن عقبة الأموي الذي كان يقاتل الروم بالقرب من أرمينية الرابعة بالانضمام معاً للانتقام من الأرمن فساروا بقواتهما إليهم .. واستصوب الأرمن عام ٧٠٣ إرسال جائليهم إسحق الثالث برسالة إلى هذا الخليفة في دمشق يعلنون فيها عن ولائهم له وقبولهم أداء الجزية إليه ، وطلبهم العفو منه . غير أن هذا الجائلي مرض في طريقه ومات في مدينة حران بإقليم الجزيرة . إلا أنه بناء على وصيته قبل وفاته وضعت الرسالة في يده وهو ميت لكي يتسلمها منه الوالي محمد بن مروان الأموي حال وصوله إلى حران .. وسرعان ما وصل وتسلمها منه وكان لها أعمق الأثر عليه ، فأمر القائد عثمان بن الوليد بن عقبة الأموي بكتابة رسالة جوابية متضمنة العفو عن الأرمن ووضعها في يد جائليهم الميت وأعاد جثته إليهم وهي تحملها . وعندما دخل هذا القائد دوين عاصمة أرمينية الثانية بر بالوعد ولم ينكل بالأرمن ، غير أن حاكمهم الأمير الأرمني سمباطاً السادس البجراطي خشي مغبة الأمر فانسحب إلى إقليم طايق المجاور الذي كان تحت سيطرة الروم .

وفي عام ٧٠٥ تولى الخلافة بعد أبيه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فجدد في هذه السنة العزم على القضاء على استقلال أرمينية بالقضاء على طبقة نحرارها .. فلما بلغ ذلك حاكمها الأمير الأرمني سمباطاً السادس البجراطي خابر هؤلاء واتصل بالروم للقيام

على الوالي العربي محمد بن مروان الأموي ، فقام عليه الأرمن ، ولكنه تغلب عليهم ودخل عاصمتهم دوين عاصمة أرمينية الثالثة ، وقرر المضي في تنفيذ خطة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وأوعز بتنفيذها إلى والي (ناخشيفان) فدعا ألفاً ومائتين من أسر النحرار إلى الاجتماع بكنيستها وبكنيسة مجاورة بعد أن أعطاهم الأمان بحجة استعراضهم ثم أغلقهما عليهم وأحرقهم أحياء فيهما ، وكان ضمن الحريق حاكم إقليم البسفرجان — الأرمني المسمى أيضاً سمباط البجراطي والأمراء الأرمن كريكور الأردزروني — وكوريون الأردزروني — وورزشابوه الأماطوني .

ولم يخف المؤرخون العرب هذه الواقعة بل سجلها في تاريخه المؤرخ العربي اليعقوبي المتوفى في عام ٩٠٥ . كما سبى هذا الوالي العربي بعض أبناء النحرار الأرمن وأرسلهم رهائن إلى دمشق عاصمة دولة الخلافة .. وخاف حاكم أرمينية الأمير الأرمني سمباط السادس البجراطي فأوغل في أرمينية الثانية ايبريا حيث أقام في بوتي على البحر الأسود ، إلا أنه في عام ٧١٠ عاد الخليفة الأموي الوليد الأول بن عبد الملك وغير سياسته الأرمينية إثر عدم استطاعة واليه محمد بن مروان الأموي التغلب على الخزر الذين عادوا إلى الإغارة من الشمال على إقليم ما وراء القوقاز ، فقد بان له أنه من الأصح لدولة الخلافة الإبقاء على دولة أرمينية مستقلة والتحالف معها ضد الخزر ، وأقام بدلاً من واليه هذا أخاه القائد مسلمة بن عبد الملك الأموي ، الذي اشتهر في محاربة الروم ، والياً على إقليم ما وراء القوقاز كله وعهد إليه بمحاربة الخزر فتمكن في عام ٧١٤ من غزو بلادهم في شمال القوقاز والاستيلاء على دربند أو باب الأبواب الواقعة غرب بحرهم (بحر قزوين) . وأقام هذا الوالي الجديد على أرمينية عبد العزيز بن حاتم الباهلي نائباً له فعفا عن نحرارها ودعاهم إلى العودة إليها فعادوا وضمنهم حاكمها الأمير الأرمني سمباط السادس البجراطي الذي ظل قائماً في حكم أرمينية حتى وفاته في عام ٧١٧ .

هذا ويجدر ذكره أنه من عام ٧٠٧ إلى عام ٧٠٩ تمت إعادة بناء المسجد النبوي بالمدينة بإشراف وردان (ورتان) ، ويظن أنه معماري أرمني من البنائين الذين أرسلهم ملك الروم وقتئذ للمعاونة في هذه العملية ثم أسلم وبقي بالمدينة ، وذلك استناداً إلى حملة إسماء أرمينيا وكونه من الموالي لعدم نسبته وإلى ثبوت هذه المعاونة ...

٦٩٩ بالقبض عليهم ومصادرة أموالهم .. وأرسل حاكمها الأمير الأرمني سميباطاً السادس وجائليهما إسحق الثالث رهيتين إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في دمشق .. ولكن الخليفة أفرج عنهما وأعادهما إلى أرمينية عام ٧٠٠ ، غير أن الأمير سميباطا اعتزم الرد بالقوة على هذه السياسة الجائرة فدعا في عام ٧٠١ إلى اجتماع عام لكل نحرار أرمينية في أكوجي على السفوح الشمالية لجبل أرارات شهده الأمير الأرمني ورد الرشطوني ابن الأمير تيودور الرشطوني الحاكم الأول لأرمينية من قبل دولة الخلافة وعقد الصلح معها ، وأمير إقليم البسفرجان الأرمني وغيرهما ، فقرروا الخروج على دولة الخلافة ، وحشدوا حشودهم وعبروا نهر الرس وساروا شرقاً لملاقاة الجيش العربي الذي قصدهم من ناخشيفان وتغلبوا عليه في معركة وردان كرد .

ولما بلغ خبر هذه الهزيمة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أمر واليه على إقليم ما وراء القوقاز كله أخاه محمد بن مروان الأموي ، وقائده عثمان بن الوليد بن عقبة الأموي الذي كان يقاتل الروم بالقرب من أرمينية الرابعة بالانضمام معاً للانتقام من الأرمن فساروا بقواتهما إليهم .. واستصوب الأرمن عام ٧٠٣ إرسال جائليهم إسحق الثالث برسالة إلى هذا الخليفة في دمشق يعلنون فيها عن ولائهم له وقبولهم أداء الجزية إليه ، وطلبهم العفو منه . غير أن هذا الجائلي مرض في طريقه ومات في مدينة حران بإقليم الجزيرة . إلا أنه بناء على وصيته قبل وفاته وضعت الرسالة في يده وهو ميت لكي يتسلمها منه الوالي محمد بن مروان الأموي حال وصوله إلى حران .. وسرعان ما وصل وتسلمها منه وكان لها أعمق الأثر عليه ، فأمر القائد عثمان بن الوليد بن عقبة الأموي بكتابة رسالة جوابية متضمنة العفو عن الأرمن ووضعها في يد جائليهم الميت وأعاد جثته إليهم وهي تحملها . وعندما دخل هذا القائد دوين عاصمة أرمينية الثانية بر بالوعد ولم ينكل بالأرمن ، غير أن حاكمهم الأمير الأرمني سميباطاً السادس البجراطي خشي مغبة الأمر فانسحب إلى إقليم طايق المجاور الذي كان تحت سيطرة الروم .

وفي عام ٧٠٥ تولى الخلافة بعد أبيه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فجدد في هذه السنة العزم على القضاء على استقلال أرمينية بالقضاء على طبقة نحرارها .. فلما بلغ ذلك حاكمها الأمير الأرمني سميباطاً السادس البجراطي خابر هؤلاء واتصل بالروم للقيام

على الوالي العربي محمد بن مروان الأموي ، فقام عليه الأرمن ، ولكنه تغلب عليهم ودخل عاصمتهم دوين عاصمة أرمينية الثالثة ، وقرر المضي في تنفيذ خطة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وأوعز بتنفيذها إلى والي (ناخشيفان) فدعا ألفاً ومائتين من أسر النحرار إلى الاجتماع بكنيستها وبكنيسة مجاورة بعد أن أعطاهم الأمان بحجة استعراضهم ثم أغلقهما عليهم وأحرقهم أحياء فيهما ، وكان ضمن الحريق حاكم إقليم البسفرجان — الأرمني المسمى أيضاً سميباط البجراطي والأمراء الأرمن كريكور الأردزروني — وكوريون الأردزروني — وورزشابوه الأماطوني .

ولم يخف المؤرخون العرب هذه الواقعة بل سجلها في تاريخه المؤرخ العربي اليعقوبي المتوفى في عام ٩٠٥ . كما سعى هذا الوالي العربي بعض أبناء النحرار الأرمن وأرسلهم رهائن إلى دمشق عاصمة دولة الخلافة .. وخاف حاكم أرمينية الأمير الأرمني سميباط السادس البجراطي فأوغل في أرمينية الثانية ابيريا حيث أقام في بوتي على البحر الأسود ، إلا أنه في عام ٧١٠ عاد الخليفة الأموي الوليد الأول بن عبد الملك وغير سياسته الأرمينية إثر عدم استطاعة واليه محمد بن مروان الأموي التغلب على الخزر الذين عادوا إلى الإغارة من الشمال على إقليم ما وراء القوقاز ، فقد بان له أنه من الأصلح لدولة الخلافة الإبقاء على دولة أرمينية مستقلة والتحالف معها ضد الخزر ، وأقام بدلاً من واليه هذا أخاه القائد مسلمة بن عبد الملك الأموي ، الذي اشتهر في محاربة الروم ، والياً على إقليم ما وراء القوقاز كله وعهد إليه بمحاربة الخزر فتمكن في عام ٧١٤ من غزو بلادهم في شمال القوقاز والاستيلاء على دربند أو باب الأبواب الواقعة غرب بحرهم (بحر قزوين) . وأقام هذا الوالي الجديد على أرمينية عبد العزيز بن حاتم الباهلي نائباً له فعفا عن نحرارها ودعاهم إلى العودة إليها فعادوا وضمهم حاكمها الأمير الأرمني سميباط السادس البجراطي الذي ظل قائماً في حكم أرمينية حتى وفاته في عام ٧١٧ .

هذا ويجدر ذكره أنه من عام ٧٠٧ إلى عام ٧٠٩ تمت إعادة بناء المسجد النبوي بالمدينة بإشراف وردان (ورتان) ، ويظن أنه معماري أرمني من البنائين الذين أرسلهم ملك الروم وقتئذ للمعاونة في هذه العملية ثم أسلم وبقي بالمدينة ، وذلك استناداً إلى حملة إسمائياً وكونه من الموالي لعدم نسبته وإلى ثبوت هذه المعاونة ...

وفي عام ٧١٧ تولى الحكم في دولة الخلافة العادل عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي الملقب بخامس الخلفاء الراشدين وخير خلفاء بني أمية ، وقد أشاد بعدلته جميع المؤرخين وضمنهم الأرمن . إذ عفا عن جميع نحرارها وسمح لمن كان محتجزاً منهم بدمشق عاصمة دولة الخلافة بالعودة إلى أرمينية ، ولكنه لم يعين لها حاكماً جديداً من أبنائها اكتفاء بجائليق كنيسة الوطنية أو هانس الثالث الملقب بالحكيم أو بالفيلسوف الذي شغل هذا المنصب عن جدارة في المدة من عام ٧١٧ حتى عام ٨٢٨ وعقد في أثناءها مجمعاً دينياً مسيحياً في ملاذكرد في عام ٧٢٦ تمكن من توحيد عقائد الكنيستين الوطنيتين الأرمينية والسوريانية الأرثوذكسيين المونوفيتين . هذا فضلاً عن جمع دوين الديني المسيحي الأرميني الخامس الذي عقده في عام ٧١٨ وأدان فيه بدعة البوليسيين أو البيالصة الأرمينية الأصل .

وفي عهد هذا الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز تعاون الأرمن مع العرب لصد غارات الخزر الذين كانوا يعتبرون بحق متبررين وغير متحضرين — وخاصة بعد أن تحالف هؤلاء أي الخزر مع الروم ضد العرب ، وتمكنت جيوش العرب والأرمن المشتركة من صد الخزر فعلاً في عام ٧١٧ ، بل إنه في عهد الخليفة الأموي التالي يزيد الثاني بن عبد الملك أغار واليه الذي أقامه على إقليم ما وراء القوقاز كله الجراح بن عبد الله الحكمي بهذه الجيوش العربية الأرمينية المختلطة في عام ٧٢٢ على بلاد الخزر ذاتها وعبر إليها جبال القوقاز شمالاً واستولى من جديد على دربند ثم على عاصمتهم بلنجر وعاد بأوفر الغنائم . على أن الحروب استمرت بعد ذلك سجالاً بين العرب والأرمن من جهة وبين الخزر من جهة أخرى وكان كل من الفريقين يوغل في بلاد الآخر حتى استولى العرب والأرمن على دربند من جديد واقترب الخزر من الموصل بإقليم الجزيرة بشمال العراق وذلك حتى عام ٧٣٨ في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وكان يقود الجيوش العربية الأرمينية المختلطة في عهده وعهد خلفه الخليفة الأموي الوليد الثاني بن يزيد الثاني ولاية أرمينية العرب الجراح بن عبد الله الحكمي في ولايته الأولى عليها (عام ٧٢٢ / عام ٧٢٥) ثم مسلمة بن عبد الملك الأموي في ولايته الثانية عليها (عام ٧٢٥ / عام ٧٢٩) ثم الجراح بن عبد الله الحكم في ولايته الثانية عليها (عام ٧٢٩ / عام ٧٣٠) ، التي انتهت باستشهاده في حرب الخزر ، ثم سعيد بن عمر الحرش (عام ٧٣٠) ، ثم مسلمة بن عبد الملك الأموي في

ولايته الثالثة عليها (عام ٧٣٠ / عام ٧٣٢) ، ثم منذ عام ٧٣٢ مروان بن محمد بن مروان الأموي (عام ٧٣٢ / عام ٧٤٤) ابن واليها الأسبق محمد بن مروان الأموي والذي ولى الخلافة بعدئذ باسم الخليفة مروان الثاني بن محمد بن مروان الأموي (عام ٧٤٤ / عام ٧٥٠) وقد شاركهم في آخر حملاتهم حاكم أرمينية الأمير الأرميني أشوط الثالث البجراطي الآتي ذكره . وانتهت هذه الحروب في ذلك الزمان بصد الخزر عن إقليم ما وراء القوقاز ، والتغلب عليهم ، إذ شن الوالي مروان بن محمد بن مروان الأموي حملة كبرى ضد الخزر (عام ٨٣٧ / عام ٨٣٨) واقتحم في عام ٨٣٧ مملكتهم بشمال القوقاز واستولى من جديد على عاصمتهم بلنجر ووصل إلى آخر بلادهم إذ بلغ نهر الدون في جنوب روسيا ، فخضع له ملك الخزر وتظاهر باعتناق الإسلام ، وعاد الوالي مروان بن محمد الأموي في عام ٨٣٨ بقواته المكونة من العرب والأرمن التي كان يقود هؤلاء منهم حاكم أرمينية الأمير الأرميني المذكور .. ولم يجرؤ الخزر بعد هذه الحملة الكبرى على العودة إلى شن الغارات على أقاليم الخلافة إلا في عام ٨٦٤ ، في عهد خلفائها العباسيين . وقد كان الوالي العربي مروان بن محمد الأموي لإقليم ما وراء القوقاز وضمه أرمينية من أنشط الولاة العرب الذين حكموه وقد ظل قائماً في حكمه اثنين وعشرين عاماً حتى ولي الخلافة ، وقد صد الخزر عن هذا الإقليم بل وأخضعهم على ما سبق بيانه . كما أنه نظم شؤون أرمينية الداخلية ، فقد أقام بموافقة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام ٧٣٢ حاكماً على أرمينية الأمير الأرميني أشوط الثالث البجراطي (عام ٧٣٢ / عام ٧٤٨) سالف الذكر .. وفي أول عهده عارض في إقامته الأميران الأرمنيان الأخوان جرجور ماميكونيان وداود ماميكونيان كبيراً أسرة ماميكونيان المنافسة لأسرته ، لأنهما كانا يأملان أن يؤول حكم أرمينية إلى أسرتهما لكونها أعرق أسرها .. فقبض عليهما الوالي مروان بن محمد الأموي وأرسلهما إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بعاصمته دمشق فأمر بنفيهما بعيداً إلى اليمن ..

كما ذهب إلى دمشق مختاراً الأمير الأرميني أشوط الثالث البجراطي حاكم أرمينية ليقدم ولاءه شخصياً لهذا الخليفة وليطالب برواتب فرسانه الأرمن ليضعهم في خدمة دولة الخلافة في حملتها الكبرى المزمع شنها على مملكة الخزر إعمالاً لصلح عام ٦٥٣ . وتأكيداً لهذا الولاء ولذلك الصلح اشتركت فعلاً قوة من هؤلاء الفرسان الأرمن بقيادة حاكمهم

شخصياً في هذه الحملة الكبرى ضد الخزر (عام ٧٣٧ / عام ٨٣٧) السابق ذكرها ..

وفي عام ٧٤٤ خرج الوالي مروان بن محمد الأموي عن طاعة الخليفة الأموي الجديد يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك (عام ٧٤٤) ثم عن طاعة خلفه وأخيه الخليفة الأموي التالي إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (عام ٧٤٤) مطالباً بالخلافة لنفسه وتمكن من خلع هذا الأخير ووليها بدله في المدة من عام ٧٤٤ حتى عام ٧٥٠ حين زالت الدولة الأموية بانهزامه وقته ، وفي هذه الأثناء انتهز الأميران الأرمنيان جرجور ماميكونيان وداود ماميكونيان فرصة الاضطراب الذي حل بدولة الخلافة ، وتمكنا من العودة إلى أرمينية حيث حاولا إثارة الفتنة ضد حاكمها الأمير الأرمني آشوط الثالث البجراطي ولكنه لجأ إلى الخليفة الأموي مروان الثاني بن محمد بن مروان فأمر بإعدام الأمير الأرمني داود ماميكونيان بعد التمثيل به وأجبر الأمير جرجور ماميكونيان على تقديم الولاء لحاكم أرمينية الأمير الأرمني آشوط الثالث البجراطي .. ولكنه بعد تقديمه هذا الولاء مضطراً قام باستنفار النخرا الأرمن وانهز فرصة بدء الثورة العباسية والحرب الأهلية في دولة الخلافة عام ٧٤٨ وتحرك الروم إلى أملاكها في هذه العام فأعلن عن ولائه لهم وخرج على حاكم أرمينية الأمير الأرمني آشوط الثالث البجراطي وتمكن من خلعه ومثل به انتقاماً لأخيه ، ثم أعلن نفسه حاكماً على أرمينية باسم الأمير جرجور الثاني ماميكونيان ، وسار إلى حدودها غرباً نحو قاليقا (أرضروم) للالتقاء بقوات الروم في عام ٧٥٠ ولكنه توفي فيها ..

وفي هذا العام زالت الدولة الأموية إثر انهزام آخر خلفائها مروان الثاني بن محمد الأموي أمام العباسيين في واقعة نهر الزاب الأكبر بشمال العراق ثم فراره إلى مصر ومقتله بها . وطوال عهد هذه الدولة الأموية كانت الحروب متصلة بينها وبين دولة الروم ولم تكن ميادينها قاصرة على أرمينية وحدها بل دارت أيضاً بعيداً عنها بجزراً وبراً .

وبعد قيام الدولة العباسية اشتدت قبضتها على الأرمن واتجهت إلى إلغاء الاستقلال الذاتي لهم أو الحد منه وأرهقتهم بالضرائب وبالجزية واشتطت في جمعها منهم .

ولعل أبلغ وصف لحال أرمينية في ظل الدولة العباسية وما أهرقتها به ما روي عن الخليفة العباسي المتوكل أنه رأى في المنام نفسه راكباً بغلاً له رأس الأمير الأرمني آشوط بن

حمزة الأردزورني حاكم البسفرجان — الذي كان يقيم مع غيره من الأمراء الأرمن بصفة رهائن في بلاط هذا الخليفة في عاصمته سامراء ، وكان آشوط الأرمني المذكور يقول « إلى كم تؤذينا » . وكان رد الأرمن على هذه السياسة الجائرة هو الهجرات الجماعية من أرمينية ومنها هجرة اثني عشر ألفاً بقيادة الأمير شابوه الأماطوني إلى أملاك دولة الروم البيزنطية في عهد الخليفة العباسي المنصور ثم الثورات المستمرة بأرمينية التي أفضت في نهاية الأمر إلى استقلالها .

وشجع الأرمن على القيام بهذه الثورات حتى حصلوا على استقلالهم الحروب المستمرة التي استطالت دون أن تسفر عن نتيجة حاسمة بين دولتي الخلافة العربية الإسلامية والروم البيزنطية على حدودهما المشتركة التي كانت تمتد شرق آسيا الصغرى (الأناضول) بوتري يبدأ في الشمال من الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأسود ويتجه نحو الجنوب الغربي حيث ينتهي في الجنوب عند الزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط .

وقد اتخذت الحرب بين العرب والروم طابعاً دينياً ، وكانت تشن صيفاً وشتاء ، ولهذا أسماها العرب بالصوائف والشواتي ، وكان يتخللها تبادل الأسرى الذي أسماه العرب « بالفداء » . وكانت كل أرمينية تعتبر داخلية في ثغور دولة الخلافة وفي بنود دولة الروم ! إذ كانت تجري على أراضيها بعض حروبهما وكانت تتأرجح بينهما .

وصادف قيام الدولة العباسية عام ٧٥٠ ولاية الأمير الأرمني جرجور الثاني ماميكونيان الحكم على أرمينية تابعاً لدولة الروم . وقد توفي في هذه العام فخلفه أخوه الأمير الأرمني موشيغ الرابع ماميكونيان الذي أعلن عن تبعيته أيضاً لدولة الروم . فقاد ملكها قسطنطين الخامس في عام ٧٥١ حملة إلى أرمينية لمساعدته ضد دولة الخلافة منتهزاً فرصة الاضطراب الذي حل بها نتيجة للحرب الأهلية التي حدثت فيها وأدت إلى انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس . وتمكن في جنوب شرق الأناضول من الاستيلاء على ملطية وحصن قودية ولكنه لم يستطع فتح شمشاط . وفي شمال شرق الأناضول تمكنت قواته الرومية وقوات أرمينية قادها تابعه القائد الأرمني كوشان ، الذي كان لاجئاً لديه من الاستيلاء على حصن كمخ وعلى قاليقا (أرضروم حالياً) بمساعدة بعض الأرمن من

سكانها ، إلا أن قوات دولة الخلافة بقيادة القائد يزيد بن أسيد السلمي وبأوامر والي أرمينية أبو جعفر المنصور العباسي وتوجيهاته تمكنت في العام التالي عام ٧٥٢ من استرداد ملطية وحصن قلودية من الروم ، فلم يبق لهم إلا حصن كمخ فاضطر الأمير الأرمني موشغ الرابع ماميكونيان حاكم أرمينية إلى مغادرتها والالتجاء إلى الروم وعادت أرمينية إلى طاعة دولة الخلافة ، ولكن الخليفة العباسي لم يقيم عليها حاكماً من أبنائها لأن أسرة ماميكونيان كانت موالية للروم ، ولأن أسرة البجارطة كانت موالية للأمويين ..

وكان أول الخلفاء العباسيين هو أبو العباس السفاح ، وقد أقام أخاه أبا جعفر المنصور العباسي والياً على الجزيرة وآذربيجان وأرمينية كلها طوال مدة خلافته حتى وفاته .. وعندئذ تولى بعده الخلافة أخوه أبو جعفر المنصور العباسي ..

وفي عام ٧٥٤ أقام الخليفة المنصور العباسي الأمير الأرمني إسحق الثالث البجراطي (عام ٧٥٤ / عام ٧٦١) وهو ابن عم الأمير الأرمني أشوط الثالث البجراطي حاكم أرمينية الأسبق حاكماً عليها ثم من بعده ابن أسبقهما الأمير الأرمني سمباط السابع البجراطي حاكماً عليها ، كما أنه في نفس العام ٧٥٤ أقام هذا الخليفة القائد يزيد بن أسيد السلمي — وأمه أميرة أرمينية هي بنت حاكم السيسان أو السيجان — والياً على كل أرمينية ، وأمره بشن حملة على الخزر شمال جبال القوقاز لدرء خطرهم على دولة الخلافة فعبر هذه الجبال شمالاً وأخضعهم ، وتزوج ابنة ملكهم ، على أنهم بعد عشرة أعوام وفي عام ٧٦٤ شنوا هجوماً على أملاك دولة الخلافة في إقليم ما وراء القوقاز ، واشتركت في هجومهم هذا قوات من الروس الذين كانوا عندئذ تابعين لهم ، وتمكنوا من الاستيلاء على تفليس عاصمة جروزيا أو أرمينية الثانية ، وعاثوا فيها تخريباً ، فوجه إليهم الخليفة المنصور العباسي حملة بقيادة القائد حميد بن قحطبة الطائي لاستردادها ، فوصلت إليهم بعد انسحابهم منها .. ويمثل اشتراك الروس في حملة الخزر هذه أول ذكر وعلاقة لهم بدولة الخلافة وإقليم ما وراء القوقاز بما فيه أرمينية ..

وفي عام ٧٦٩ أقام الخليفة المنصور العباسي القائد بكاراً بن مسلم العقيلي ثم في عام ٧٧١ القائد الحسن بن قحطبة الطائي واليين على كل أرمينية . وفي عهد هذا الوالي الأخير المصادف لآخر عهد أمير أرمينية سمباط السابع البجراطي ضعفت سلطته لزيادة سلطة

النخار الأرمن ومنهم أمراء إقليم السفرجان الذي كان معقل أسرة الأردزروني حيث أقام الأخوة الثلاثة إسحق وهمازسب وخاتشيك من هذه الأسرة إمارة أرمينية تحددت أمير أرمينية وخرجت عن طاعة دولة الخلافة . كما أنه في عام ٧٧١ قامت في أرمينية ثورة شعبية عامة ضد دولة الخلافة رداً على مظالم ولايتها الثلاث المذكورين مؤخراً الذين أقامهم عليها الخليفة العباسي المنصور ، وانضم إلى هذه الثورة غالبية النخار وقادها الأمير الأرمني أرطفزد ماميكونيان ، ولكن قوات دولة الخلافة بقيادة واليها الحسن بن قحطبة الطائي وبمساعدة الأمير الحاكم الأرمني سمباط السابع البجراطي تمكنت من إخماد هذه الثورة ، فلجأ قائدها إلى الروم ، ولكن الأمير الأرمني موشغ الرابع ماميكونيان حاكم أرمينية الأسبق الذي كان قد لجأ إلى الروم في عام ٧٥٢ عاد إلى أرمينية في عام ٧٧١ بعد إخماد ثورتها وقاد حرب عصابات ضد قوات دولة الخلافة بإقليم بفروند وتمكن رغم قلة قواته من الانتصار عليها في معركتين عند قارس وبجران ، فانضمت إليه غالبية الشعب الأرمني ونخاره وحاول الاستيلاء على دوين وقاليقا (أرضروم حالياً) عاصمتي أرمينية الثالثة وأرمينية الرابعة فلم يستطع ، ولم تسعفه قوات الروم رغم دخولها إلى أرمينية الرابعة منذ سنة ٧٦٩ ، وانتهت حركته بانتهزاه في عام ٧٧٢ أمام قوات الخلافة في معركتين عند أرجيش ثم عند باجروان أو بفروند حيث قتل وكثير من النخار ، فضعفوا كما فقدت أسرة ماميكونيان معقلها في إقليم طارون ، وكاد أن يقضى عليها .

وفي عام ٧٧٢ واثراً لانتها هذه الحركة دون تدخل من الروم قرر القائد الأرمني كورشان العامل في خدمتهم في حصن كمخ تركه والعودة إلى أرمينية وطارده قائد هذا الحصن وبعض حاميته ففاجأهم العرب وقتلوه . كما أنه في هذا العام توفي الأمير الأرمني سمباط السابع البجراطي حاكم أرمينية فلم تقم دولة الخلافة بدله حتى عام ٧٨٠ . وفي عام ٧٧٤ تمكنت بعض قوات دولة الخلافة بقيادة الأمير سنان مولى الأمير عبد الله البطال من القضاء على إمارة السفرجان — الأرمينية وقتل اثنين من أمرائها هما إسحق وهمازسب الأردزروني ، وفر ثالثهم خاتشيك الأردزروني ثم وقع في قبضة دولة الخلافة ومات سجيناً .

وفي عام ٧٧٥ تولى الخلافة الخليفة العباسي المهدي ، فأعاد القائد يزيد بن أسيد السلمي والياً على كل أرمينية .. وفي عهده كان كثير من الأرمن وضمنهم الأمير أرطفزد

ماميكونيان يعملون في خدمة الروم بعد التجأهم إلى دولتهم إثر ثورتهم المتتابة ضد دولة الخلافة منذ عام ٧٥٠ وقد قاد هذا الأخير في عام ٧٧٨ في عهد ملك الروم ليون الرابع حملة رومانية أرمنية ناجحة ضد دولة الخلافة في إقليم قليقية .

وفي عام ٧٨٥ تولى الخلافة الخليفة العباسي الهادي ، ولم يبقَ في الخلافة إلا عاماً واحداً كان والياً فيها على أرمنية روح بن حاتم المهلي ، وإثر وفاته خلفه أخوه الخليفة العباسي هارون الرشيد أشهر الخلفاء العباسيين ، وقد أقام خزمية بن خازم التميمي والياً على أرمنية . ثم أشهر قواده يزيد بن مزيد الشيباني .

وكان الحاكم الفعلي لأرمنية طوال أربعة عشر عاماً .. وقد ضبط أرمنية ضبطاً شديداً وأسكن فيها بعض العرب من قبائل ربيعة بعد أن قامت الفتن فيها بعد العرب المهجرين إليها من قبل من قبائل نزارية (قيسية) ويمنية . وتمكن في عام ٧٩٥ بمساعدة القائد يحيى الحرشي من القضاء على فتنة الخارجي أبو مسلم الشاري الذي خرج بأرمنية على دولة الخلافة .

وإثر وفاته أقام الخليفة العباسي هارون الرشيد في عام ٨٠١ ، وفي عام ٨٠٢ ولديه أسداً بن يزيد الشيباني والين على أرمنية ، ثم أعاد في عام ٨٠٣ واليها الأسبق خزمية بن خازم التميمي ومن أعماله في ولايته الثانية هذه قتله الأميرين الأرمنيين إسحق وهماز سب ابني الأمير الأرمني خاتشيك الأردزروني حاكم البسفرجان للتخلص من طبقة النخار ، وحكم أرمنية حكماً مباشراً وهو ما وصفه المؤرخ العربي اليعقوبي ، المتوفى عام ٩٠٥ بأنه أسوأ سيرة لهذا الوالي .

وفي المدة من عام ٧٧٥ وحتى عام ٨٠٩ أي في عهد الخلفاء العباسيين المهدي والهادي والرشيد اشتدت الحروب بين دولتي الخلافة والروم ، ورجحت كفة دولة الخلافة وقد قاد بعض حملاتها الخليفة هارون الرشيد شخصياً قبل وبعد توليه الخلافة .. وقد تمكن من اختراق كل الأناضول أو آسيا الصغرى حتى وصل إلى نهايتها غرباً حيث يقع خليج القسطنطينية أمام هذه المدينة وهي عاصمة الروم في عام ٧٨١ وأجبر ملكهم إيريني على عقد الصلح معه وأداء الجزية إليه .. ولم يوفق ملكهم الملك نقفور الأول وهو من أصل

عربي ، في نقض هذا الصلح ورد الخليفة هارون الرشيد على رسالته البذيئة المتضمنة ذلك بحملة ضده أسفرت عن صده في إقليم قليقية والاستيلاء على هرقل في عام ٨٠٥ فاضطر الروم إلى إعادة أداء الجزية لدولة الخلافة . وكان لانتصار دولة الخلافة هذا أثره على أرمنية فقد عاد الأرمن إلى موالاتها وخاصة بعد أن أمر ملك الروم قسطنطين السادس في عام ٧٩٤ بنقل كثير من المهاجرين منهم لدولة الروم إلى جزيرة صقلية ..

ولما اطمأن الخليفة هارون الرشيد إلى ولاء غالبية الأرمن لدولة الخلافة وخشية من أن يخرج عليها أمراؤهم أي نخراهم وولاتها وأعرابها . أعاد إليها حكمها الوطنيين من أمرائها التابعين لدولة الخلافة ولمثلها وهو واليها ، بأن أقام عليها في عام ٨٠٦ الأمير الأرمني آشوط الرابع البجراطي وهو ابن أميرها الأسبق سمباط السابع البجراطي ، وقد ظل يحكمها عشرين عاماً حتى عام ٨٢٦ أي حتى نهاية عهد هذا الخليفة ، وطوال عهد خلفه الخليفة العباسي الأمين ثم إلى أواسط عهد خلف هذا الأخير وأخيه الخليفة العباسي المأمون ، وقد لقب هذا الأمير الأرمني لشجاعته مساكير أي « آكل اللحوم » أو الوحش واتخذ باجران عاصمة له .. وكان مؤسساً للأسرة الحاكمة التي قدر لها في عام ٨٨٥ أن تنال استقلال أرمنية شأن الأقاليم الأخرى لدولة الخلافة التي استقلت أيضاً عندئذ ، بل وقدر لها أن تبقى في حكمها حتى عام ١٠٤٥ . ولم تعد هناك أهمية لولاة دولة الخلافة على أرمنية إذ كان بعضهم اسميين لم يقيموا فيها شخصياً بل أقاموا في بغداد عاصمة دولة الخلافة أو في بردعة بإقليم شروان ..

وقد أخلص الأمير الأرمني آشوط الرابع البجراطي حاكم أرمنية من قبل دولة الخلافة في خدمة هذه الدولة فحارب الخارجين عليها بها ، وفي إقليم ما وراء القوقاز وتغلب عليهم .. وقد ترتب على هذا الإخلاص تقوية مركزه ومركز أسرته حين أقام الخليفة العباسي المأمون عام ٨١٣ أميراً أرمنياً آخر من هذه الأسرة آشوط الأول بن أردنس حاكماً على أيريا أو جورجيا أو جروزيا (عام ٨١٣) الذي عينه أيضاً (في ذات العام) حاكماً عليها ملك الروم ليون الخامس الملقب بالأرمني بناء على أن أصله الأرمني والمنتمي إلى أسرة الأردزروني الأرمنية فتعزز مركزه وأسس بها فرعاً حاكماً آخر من أسرته ظل يحكمها طويلاً حتى عام ١٨٠١ .

وإثر وفاة الأمير الأرمني أشوط الرابع البجراطي حاكم أرمينية في عام ٨٢٦ أقام الخليفة العباسي المأمون ابنه الأمير الأرمني سمباطاً الثامن البجراطي (عام ٨٢٦) حاكماً عليها ، وفي عام ٨٣٠ أشرك معه في حكمها أخاه الأمير الأرمني بجراط الثاني البجراطي ، وقسم بينهما أرمينية فخص الأول بالقسم الشرقي وهو إقليم نهر الرس بما فيه العاصمة باجران ، وخص الثاني بالقسم الغربي وهو إقليم طارون وإقليم صاسون ، وفي عهدهما تم القضاء على حركة الثائر بابك الخرمي زعيم طائفة الخرمية الفارسي ، التي قامت ضد دولة الخلافة في إقليم آذربيجان الفارسي وفي إقليم الران المجاور له .

وفي عام ٨٤٧ تولى الخلافة الخليفة العباسي المتوكل ، (الذي لقب نيرون العرب لشدة مظالمه) وقد أقام في عام ٨٤٩ الأمير يوسف بن محمد المروزي والياً على أرمينية وأمره بجباية الجزية ممن سبق أن أعفوا منها من النخار الأرمن فكلف هذا الوالي بذلك أمير أرزن العربي موسى بن زرارة الحرشي ، ولكن الأمير الأرمني بجراط الثاني البجراطي حاكم غرب أرمينية رفض أداؤها وتحالف مع ابن أخته الأمير أشوط بن حمزة الأردزروني أمير إقليم البسفرجاني ، وتمكنا من حشد قوات كثيرة من الأرض والتغلب على قوات دولة الخلافة التي أرسلها إليهما هذا الوالي بقيادة الأمير العربي موسى بن زرارة الحرشي وذلك في معركة جرت عند أغترنك في عام ٨٥٠ فأرسل الخليفة العباسي المتوكل في نفس السنة حملة ثانية بقيادة واليه المذكور ضد الأرمن وأمره بالقبض على أمراءهم أو نحرارهم واقتيادهم أسرى إلى بلاطه في سامراء بشمال بغداد .. فقبض على الأمير الأرمني بجراط الثاني البجراطي حاكم غرب أرمينية وكثيرين غيره وأرسلهم إلى بلاط الخليفة العباسي المتوكل في عام ٨٥١ ، ولكن باقي الأمراء لم يمثلوا له واستمالوا إلى صفهم الأمير العربي موسى بن زرارة الحرشي الذي كان متزوجاً أخت حاكمي أرمينية الأرمنيين ، وحاصروا الوالي الأمير يوسف بن محمد المروزي في موش وتغلبوا عليه وقتلوه في عام ٨٥٢ فأرسل الخليفة العباسي المتوكل حملة ثالثة كبيرة ضد الأرمن وحليفهم الأمير العربي موسى بن زرارة الحرشي للتنكيل بهم والأخذ بثأر واليه الذي قتلوه ، وأسند قيادتها إلى كبير قواده من الأتراك بغا الكبير الشراي التركي ومعاونيه القائد زيرك التركي فأتيا إلى أرمينية الرابعة وتمركزا في أخلاط ثم هاجما إقليم أرزن ومن بعده إقليم البسفرجان وأسرا أميرهما الأمير العربي موسى بن زرارة الحرشي والأرمني

أشوط بن حمزة الأردزروني ثم هاجما إقليم نهر الرس وأسرا الأمير الأرمني سمباطاً الثامن البجراطي حاكم أرمينية وأرسلوا الجميع إلى بلاط الخليفة المتوكل ، كما قتلوا الكثيرين انتقاماً لمقتل الوالي يوسف بن محمد المروزي ، وتبعاً من هرب ممن قاموا عليه إلى كل أنحاء إقليم ما وراء القوقاز واستولوا في عام ٨٥٣ على تفليس عاصمة أرمينية الثانية وقتلوا واليها إسحق بن إسماعيل الأموي لانتهامه بالخروج على دولة الخلافة وخربا كل هذا الإقليم ولم يبق إلا على الأمير بجراط الأول البجراطي حاكم اييريا الذي لم يشك في ولائه لهذه الدولة .

وظل حاكماً أرمينيا الأميران بجراط الثاني البجراطي وسمباط الثامن البجراطي بالمنفى في سامراء حتى توفيا في عام ٨٥٢ وفي عام ٨٥٥ ، وكانا مع سائر الأمراء المنفيين رهائن في هذه المدينة .

وفي عام ٨٥٣ تجددت الحروب بين دولة الروم ودولة الخلافة التي بدأت في الضعف والانقسام ، وقد قاد قواتها في هذه الحروب عمر الأقطع أمير ملطية العربي ، وعلي بن يحيى الأرمني اللذان استشهدا فيها . وكان ثانيهما قد تولى في الفترة منذ تجدد هذه الحروب حتى استشهاده البالغة عشرة أعوام مركزاً قيادياً في دولة الخلافة تمكن استناداً إليه ومن خلاله أن يخدم بني جلدته الأرمن ؛ فقد سعى لدى الخليفة العباسي المتوكل لكي يطلق الأمراء الأرمن المحتجزين كرهائن في بلاطه وإعادتهم إلى أرمينية ولكي يرد أرمينية إلى وضعها المستقل الممتاز يحكمها الأمراء من أبنائها . فأقام الخليفة العباسي المتوكل في عام ٨٥٦ الأمير الأرمني أشوط الخامس البجراطي ، وهو ابن حاكم أرمينية السابق سمباط الثامن البجراطي حاكماً عليها . وأخذ يطلق تباعاً الأمراء الأرمن المذكورين فكان هذان الأمران ، ثم إقامة الخليفة العباسي المستعين للأمير القائد علي بن يحيى الأرمني ذاته والياً على أرمينية ، وهو الأمير الأرمني المسلم الوحيد الذي وليها ، كان ذلك بداية حصول أرمينية على استقلالها . إذ أفضى إلى إقامة حاكمها الجديد أشوط الخامس البجراطي ملكاً عليها من دولة الخلافة ثم من دولة الروم أيضاً ...

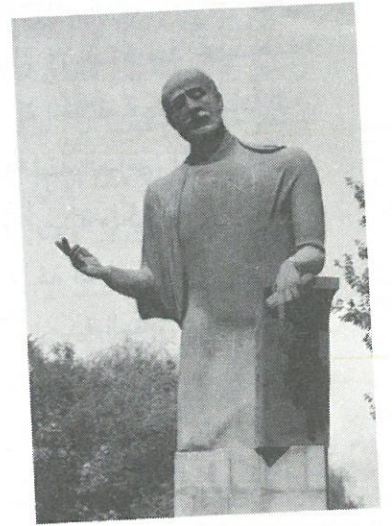
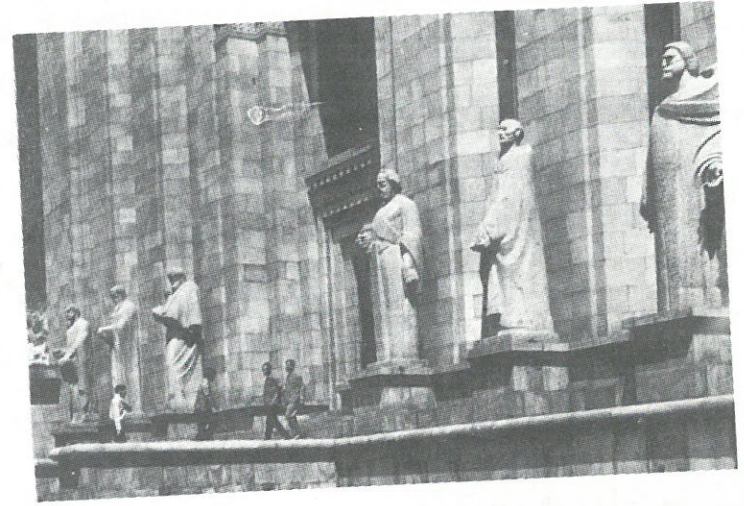
الفصل الخامس

أرمنية الكبرى المستقلة

بدأ استقلال دولة أرمنية الكبرى — والتي أسميت بالكبرى تمييزاً لها عن دولة أرمنية الصغرى التي نشأت بعد زوالها في إقليم قليقية في جنوب الأناضول (آسيا الصغرى) على ساحل البحر المتوسط — بدأ هذا الاستقلال بتولية الخليفة العباسي المتوكل منذ عام ٨٥٦ للأمير الأرمني أشوط البجراطي إشخانا على أرمنية وفي عام ٨٦٢ منحه الأمير علي بن يحيى الأرمني والي أرمنية من قبل الخليفة العباسي المستعين لقب « بطريق البطارقة » أي أمير الأمراء ... وقد ظل هذا الحاكم يحكم أرمنية مدة ٢٩ عاماً حتى ٨٨٥ .

وانحاز إلى دولة الخلافة ضد الروم ، كذلك حارب الخارجين عليها بأرمنية سواء من العرب أو من الأرمن وساعد في ذلك واليها عيسى بن الشيخ الشيباني الذي صادقه فتمكنا في المدة من عام ٨٧٠ وحتى عام ٨٧٧ من القضاء على الإمارة القيسية العربية ..

متحف « المادينا تاران »



كوميداس

سايداد نوبا

وعلى إمارة بفروند الأرمنية التي كان يتزعمها الأمير الأرمني كريكور ماميكونيان في هذا الإقليم أي إقليم بفروند ..

كما حظي الأمير الأرمني أشوط الخامس البجراطي بتأييد جاثليق الكنيسة الأرمنية الوطنية كيغورك الثاني وجميع النخرا ، أي الأمراء الأرمن وعامتهم فطلبوا جميعاً في عام ٨٨٥ من الخليفة العباسي المعتمد إقامته ملكاً على أرمنية ، فأجابهم وأرسل إليه تاجاً . كما أن ملك الروم باسيل الأول الأرمني الأصل ومؤسس السلالة المقدونية استصوب الاعتراف بالأمير الأرمني أشوط الخامس البجراطي ملكاً على أرمنية ، فأقامه في العام نفسه ٨٨٥ ملكاً عليها أيضاً ، وأرسل إليه تاجاً آخر وقطعة من خشب الصليب الأصلي تأكيداً لرابطة المسيحية التي تجمعهما .

وفي عام ٨٨٥ توج الجاثليق الأرمني كيغورك الثاني هذا الأمير ملكاً على أرمنية بحضور النخرا وعامة الشعب في عاصمته باجران ... ونعمت أرمنية في عهد ملكها الجديد بالأمان والرخاء اللذين حرمت منهما طويلاً ، وقد سجل ذلك واشاد به في تاريخه لأرمنية جاثليقها أوهانس أو حنا الخامس الملقب بالمؤرخ الذي شهد هذا العهد .

وإثر وفاة ملك أشوط الأول الأكبر في عام ٨٩٠ خلفه في الحكم ابنه الملك الأرمني سباط الأول البجراطي الملقب بالشهيد ، وتمكن في أول عهده من القضاء على محاولة عمه الأمير الأرمني عباس البجراطي اغتصاب الحكم منه فاعترف به ملكاً على أرمنية الخليفة العباسي المعتمد وملك الروم الجديد ليون السادس الملقب بالحكيم من سلالة ملوكها ذوي الأصل الأرمني التي أسسها أبوه ملك الروم السابق باسيل الأول ، بل وأنه في عام ٨٩٣ تحالف معه ملك أرمنية سباط الأول البجراطي لما أيقن قوة دولة الروم وضعف دولة الخلافة في عهد خلفائها العباسيين المعاصرين له .. المعتضد — والمكتفي — والمقتدر — إذ بدأت دولة الروم تتغلب على دولة الخلافة في حروبهما المستمرة التي جرت براً وبحراً في ذلك الزمان والتي بدأت منذ عام ٨٦٤ .

ولئن كانت دولة الخلافة قد ضعفت فإن هذا الضعف قد لحق بسلطتها المركزية دون أن يصيب قوة الدول المستقلة المتفرعة عنها ، وقد كانت منها الدولة الساجية أو

الأفشينية التي أسسها في إقليم آذربيجان الفارسي واليه من قبل دولة الخلافة العباسية القائد أبو الساج ديوداد الأول الأفشين (عام ٨٧٩) وأصله من أمراء أشروسنة بإقليم ما وراء النهر ، فقد استقل بإقليم آذربيجان الفارسي — وعاصمته أردبيل — عن هذه الدولة ولم يرتبط بها إلا اسمياً باعترافه بسيادتها عليه . ثم خلفه في ولايته ابنه الأمير محمد بن ديوداد الأفشين الساجي (عام ٨٨٩) ، وفي عام ٨٩٥ انتهز فرصة إخضاع ملك أرمنية سباط الأول البجراطي لبلدة دوين العاصمة القديمة لأرمنية وقبضه على الأميرين العربيين الحاكمين لها وإرسالهما إلى ملك الروم في ذلك العام ، فاعتبره خارجاً عن دولة الخلافة وسار إلى مملكته لإعادته إلى طاعة هذه الدولة واستولى على النشوى ودوين ثم قاتله في معركة دارت قرب جبل أرجتسي ، ولما لم يستطع تحقيق النصر عاد إلى ولايته آذربيجان الفارسية ، وأخذ يحرض على ملك أرمنية المذكور سباط الأول البجراطي الأمراء الأرمن ولكنه لم يفلح ، لأن كبيرهم الأمير الأرمني أبا مروان الأردزروني بإقليم البسفرجان انضم إلى هذا الملك فحرض عليه الخليفة العباسي المعتضد حتى استصدر منه في عام ٨٩٨ أمراً بعزل هذا الملك عن حكم أرمنية وبإضافتها إلى ولايته آذربيجان الفارسية . واعتزم الأمير محمد الساجي السير إلى أرمنية مرة أخرى للاستحواذ عليها بعد ضمها إلى ولايته ، غير أنه في العام ذاته سبقه إلى أرمنية وغزاها الأمير أحمد بن عيسى الشيخ الشيباني والي دياربكر فاستولى على إقليم طارون الأرمني وحشد كل حلفائه من الأمراء الأرمن قواتهم لملاقاة قوات ملك أرمنية سباط الأول البجراطي وحلفائه من هؤلاء الذين نهض معهم لاسترداد هذا الإقليم وصد تلك الغزوة . ودارت بين الفريقين معركة عند بلدة طايخ انتهت بانتهزام الملك سباط الأول البجراطي وحلفائه بسبب انسحاب الأمير الأرمني أبي مروان الأردزروني من صفوفهم وانخيازه إلى الأمير أحمد بن عيسى الشيخ الشيباني ، ولكن هذا النصر لم يجد هذا الأمير لأنه توفي في العام التالي أي عام ٨٩٩ ، وعزل الخليفة العباسي المعتضد ابنه محمداً بن أحمد الشيباني الذي خلفه في ولايته وضمها إلى دولة الخلافة ، فتخلص بذلك ملك أرمنية سباط الأول البجراطي من خطر تلك الدولة الشيبانية التي كانت قائمة على الحدود الجنوبية لمملكته .

وفي عام ٨٩٩ غزا الأمير محمد الساجي أرمنية مرة ثانية للاستحواذ عليها وضمها

إلى ولايته أذربيجان الفارسية بناء على زوال الدولة الشيبانية التي نافسته في ذلك ، واستولى على بلدة قارس حيث أسر ملكة أرمينية والجنائليق الأرمني كيفورك الثاني واضطر ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي لإعطائه ابنة أخيه زوجة له لكي يطلقهما ، ورغم ذلك واصل الأمير محمد الساجي زحفه على أرمينية واستولى على بلدة دوين ثم تفليس وبعدئذ رجع إلى ولايته . فعاد ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي واسترد ما كان قد فقده ، غير أنه في عام ٩٠٠ غزا الأمير محمد الساجي أرمينية مرة ثالثة واستولى على بلدة وان ، ومنها سار عائداً إلى ولايته عن طريق بردعة حيث مات في عام ٩٠١ فسحب ابنه وخلفه الأمير ديوداد الثاني الساجي عام ٩٠١ قواته من أرمينية إلى ولايته أذربيجان الفارسية ليدبر أمورها ، ولكن عمه الأمير يوسف بن ديوداد الساجي الملقب « بالشيخ الكريم » تغلب عليه واستولى منه على الحكم في هذه الولاية (وقد بقي فيها حتى عام ٩٢٧ حين أرسله الخليفة العباسي المقتدر لمحاربة القرامطة في جنوب العراق حيث قتلوه) وانتهر ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي فرصة انسحاب الساجيين من بلاده فاسترد وان وقضى نهائياً على الإمارة العربية القيسية ، وعلى إمارة سيوني الأرمينية بإقليم ناخشيفان في عامي ٩٠٢ و ٩٠٣ ..

كما انتهر ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي فرصة توتر العلاقات بين دولة الخلافة وبين الدولة الساجية بإقليم أذربيجان الفارسي .. فأرسل في عام ٩٠٢ إلى الخليفة العباسي المكتفي يعلن ولاءه له فأقره ملكاً على أرمينية ، ولكنه رغم ذلك شن الأمير يوسف الساجي في عام ٩٠٣ حملة على أرمينية وأخذ بردعة ودوين ، واضطر ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي إلى استرضائه ومصالحته فعاد إلى ولايته ، ولكنه في عام ٩٠٨ شن حملة ثانية على أرمينية بحجة تأييد أمير إقليم البسفرجان الأرمني خاتشيك الأردزروني الذي خرج على ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي فاستولى على جنوبها وأقام هذا الأمير الأرمني ملكاً عليه (عام ٩٠٨) ، فانقسمت أرمينية إلى مملكتين ، وفي عام ٩١٠ شن الأمير يوسف الساجي حملة ثالثة على أرمينية لمساعدة تابعه الملك خاتشيك الأردزروني في ضم إقليم ناخشيفان إلى أملاكه واستولى عليه ثم على دوين وتفليس وانتصر وحلفاءه من النخار الأرمن على ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي في معركة دارت عند

تزنكا فاغار على ضفاف نهر رزدان شمال مدينة يريفان وهرب إثرها هذا الملك إلى قلعة كابويد برت (أي القلعة الزرقاء) حيث اعتصم بها حتى استسلم في عام ٩١٣ ولما حاول بعدئذ الهرب قبض عليه الأمير يوسف الساجي وأمر بصلبه فلقب « بالشهيد » وصار الأمير يوسف الساجي هو المسيطر على أرمينية كلها وضمها لولايته وهو الأمر الذي استنكره المفكر والجغرافي العربي ابن حوقل النصيبي واعتبره خرقاً للعهود المعطاة لأرمينية .

ولكن الظروف التالية يسرت للأمير الأرمني أشوط البجراطي ابن ملك أرمينية سمباط الأول البجراطي ولاية ملكها بعد أبيه باسم الملك أشوط الثاني البجراطي فقد لجأ في عام ٩١٤ إلى ملكة الروم زوى أرملة ملكهم ليون السادس — الملقب بالحكيم الأرمني الأصيل .. فأعادته إلى ملكه في هذا العام ، واعترف به الأمير يوسف الساجي ملكاً على أرمينية فأرسل إليه تاجاً في عام ٩١٧ ، وفي عام ٩١٩ خرج الأمير يوسف الساجي . عن ولايته لدولة الخلافة في عهد الخليفة العباسي المقتدر ، إذ ضم إقليم الري إلى ولايته أذربيجان الفارسية فأرسل إليه هذا الخليفة قائده المعروف مؤسساً الخادم فحاربه في معركة دارت عند عاصمته أردبيل وانتصر عليه وأسرته وأرسله إلى بغداد حيث سجن بها ، وفي فترة عزله عنها آلت نيابة عنه إلى تابعه الأمير سبك المفلحي ثم إلى تابعه الأمير نصر السبكي ..

وانتهر ملك أرمينية أشوط الثاني البجراطي — الذي لقب بالحديد لقوته وشدته — الفرصة وشن الحرب ضد دولة الخلافة وحليفها غريمه الملك خاتشيك الأردزروني ملك إقليم البسفرجان لطرد قواتها من أرمينية مؤيداً في ذلك من غالبية النخار الأرمن ومن الجنائليق الأرمني أوهانس الخامس .. وسافر إلى القسطنطينية عاصمة مملكة الروم في عام ٩٢١ حيث حصل على تأييد ملكها رومانوس الأول ، الذي كان يعطف على الأرمن لكونه منهم وتحالف معه ، ولكن قواتهما الأرمينية والرومية لم تستطع في هذا العام الاستيلاء على دوين فتحالف أيضاً مع الأمير سبك المفلحي غلام الأمير يوسف الساجي ونائبه في أذربيجان الفارسية الذي كان يعتبر خارجاً على دولة الخلافة فمنحه هذا الأمير لقب « شاهنشاه » أي ملك الملوك وهو ما أقره الخليفة العباسي فيما بعد ..

وفي عام ٩٢٣ أعيد الأمير يوسف الساجي إلى ولايته أذربيجان الفارسية فأقام

الأمير الأرمني أشوط البجراطي حاكم باجران وكغب ملكاً عليهما لينافس ابن عمه ملك أرمينية أشوط الثاني البجراطي ، بل وتابعه ملك البسفرجان خاتشيك الأردزروني بعد أن انحرف هذا الأخير عن ولائه له .. كما أن الأمير يوسف الساجي وجه حملة كبيرة قامت من دوين بقيادة غلامه بشير أسغار ضد ملك أرمينية أشوط الثاني البجراطي ، وأمره بالقبض عليه . ولكن القوات الأرمينية بقيادة أحسن قواها الأمير الأرمني كريكور المرزبدوني تمكنت من صدها عند بحيرة سيفان .

وفي عام ٩٢٧ أرسل ملك الروم رومانوس الأول الأرمني الأصل سابق الذكر حملة إلى دوين لمساعدة ملك أرمينية أشوط الثاني البجراطي في حربه ضد دولة الخلافة — وقادها القائد الرومي الأرمني الأصل حنا قرقاس .. واستولت هذه الحملة في طريقها على وان . ولكن نصراً السبكي غلام الأمير يوسف الساجي ونائبه تمكن من صدها عن دوين .. وفي عام ٩٢٨ توفي ملك أرمينية أشوط الثاني البجراطي قبل أن يشهد الانتصارات المتتالية التي أحرزتها بعدئذ دولة الروم على دولة الخلافة ، والتي كانت بدايتها هذه الحملة ..

وفي عام ٩٢٨ خلف الملك عباس الأول البجراطي في حكم أرمينية أخاه ملكها أشوط الثاني البجراطي الذي بدأ عهده بعقد صلح مع الأمير أبي المسافر الفتح بن محمد الساجي الوالي الجديد لأذربيجان الفارسية ..

كما أنه وطد تحالفه مع الروم واعتزم ملكهم رومانوس الأول الأرمني الأصل إجلاء قوات دولة الخلافة عن أرمينية كلها فأرسل مرة أخرى ثانية قواته بقيادة الدمستق حنا قرقاس ، وتمكنت بمساعدة خاتشيك ملك البسفرجان الأرمني من الاستيلاء في جنوبها بأرمينية الخارجة على خلاط وبدليس ، وأرزن ، ثم على ملطية بعد أن تغلبت على قوات دولة الخلافة ، التي كان يقودها الأمير ثمل الخادم والي طرسوس في المدة من عام ٩٢٨ حتى عام ٩٣١ ..

ورداً على هذه الغارات وفي عام ٩٣١ شن الأمير مفلح غلام الأمير يوسف الساجي الذي ولاه الخليفة العباسي المقتدر بعده وبعد خلفه الأمير أبي المسافر الفتح الساجي المشار إليه ، على آذربيجان الفارسية في عام ٩٣٠ — شن هذا الأمير غارة على

أملاك ملك أرمينية عباس الأول البجراطي بأرمينية الداخلة ووصل إلى دوين وتغلب على هذا الملك في معركة دارت عند فغار شباط (اتشمياتزين) ، ولكن خاتشيك الأردزروني ملك البسفرجان الأرمني خف لمساعدته فتمكننا من التغلب على الأمير مفلح وصده في معركة ثانية دارت عند دوين ...

وفي عام ٩٣٦ توفي الملك أشوط البجراطي ملك باجران الأرمني فضم ابن عمه ملك أرمينية عباس الأول البجراطي أملاكه ، ولكنه لم يستطع ضم اقليم البسفرجان إثر وفاة ملكه الأرمني خاتشيك الأردزروني في عام ٩٣٧ لقوة هذه المملكة التي نافست بحق مملكة أرمينية الكبرى وخاصة في عهد أول ملوكها هذا .. ومن أعماله أنه جدد بلدة أختار ببحيرة وان والواقعة حولها مملكته لتكون عاصمتها بدلاً من بلدة وسطان ، وبني كنيسة الشهيرة التي انتقل إليها مقر جاثليق الكنيسة الرمنية في عام ٩٢٨ ، وبقي بها حتى عام ٩٥٩ حين انتقل مؤقتاً إلى أنى العاصمة الجديدة لمملكة أرمينية الكبرى .

وقد خلف هذا الملك في حكم مملكة البسفرجان ابنه الملك درنيك أشوط الأردزروني ..

وفي عام ٩٤٠ دارت الحرب بين العرب والروم حول بحيرة « وان » بأرمينية الخارجة واستولى الأمير سيف الدولة الحمداني نتيجة لها على بعض الأراضي الأرمينية ، وقدم له الولاء الملك الأردزروني وبعض النخار الأرمن واضطروا إلى التخلي عن تحالفهم مع الروم ..

وفي الفترة من عام ٩٤٤ إلى عام ٩٥٥ دارت المعارك حول قاليقا (أرضروم) والحدث ومرعش وزبطرة ، وملطية بأرمينية الخارجة أيضاً وبقبادوكية وتبادها العرب والروم .. وحقق الأمير سيف الدولة الحمداني نصراً في معركة دارت في عام ٩٥٣ على قائد الروم برطاس فوقاس ، وفيها أصيب واسر ابنه القائد قسطنطين فوقاس ، وقد سجل وقائع هذه المعركة الشاعر العربي أبو الطيب المتنبي في إحدى قصائده المعروفة .

وفي عام ٩٦٢ أرسل الأمير سيف الدولة الحمداني حملة بقيادة قائده وغلامه نجا

الكاسكي إلى أرمينية الخارجة فانتصر على الروم والأرمن عند حصن زياد (خربوط) وأسر ملك اقليم البسفرجان الأرمني (ابن الديراي) أبا سهل همازسب الأردزروني .. كما انتصر على الأمير العربي أبي الورد المتغلب على أرمينية الخارجة ، وقتله وفتحها هي وأخلط وموش وملازكرد ، ولكن ملك أرمينية أشوط الثالث البجراطي تمكن من صدّه عن التقدم إلى أملاكه بأرمينية الداخلية .

وفي عام ٩٦٨ باشر ملك الروم نففور الثاني فوقاس مع قادته فتوحه في الشام والجزيرة ، فاستولوا على طرابلس وحمص وأنطاكية وحلب والرها .

وفي عام ٩٦٩ خلف ملك الروم نففور فوقاس إثر مقتله ملكهم يانس الشمشقيق أو حنا الأول ، وكان أرمينيا خالصة وقيل إنه من أسرة الأردزروني ، ومعنى لقبه هذا باللغة الأرمينية (القصير القامة) .

وفي عام ٩٧٣ عقد ملك الروم يانس الشمشقيق معاهدة سلام وتحالف مع ملك أرمينية أشوط الثالث البجراطي ، بعد أن كان هذا الأخير قد حشد كل قواته وقوات النحرار الأرمن على حدوده ، مع دولة الروم قرب اقليم طارون الأرمني الذي كانت هذه الدولة قد ضمته إلى أملاكها في عام ٩٦٨ بناء على طلب أمراءه الأرمن ، وذلك خشية منها . غير أنه في العام التالي عام ٩٧٤ دخل ملك الروم هذا الاقليم في طريقه أثناء حملته الثانية على اقليم الجزيرة وطمان الأرمن على حسن نيته نحوهم ، ولم يطلب منهم إلا إمداده بقوة منهم قوامها عشرة آلاف جندي .

وفي عام ٩٧٥ قاد شخصياً حملة كبرى على الشام بدأها من أنطاكية ثم استولى على حمص وبعلبك ودمشق والرمل والناصرة ، واقترب من القدس ثم عاد بدون سبب معروف ، وفي طريق العودة استولى على صيدا وبيروت وأرسل بعدئذ إلى حليفه ملك أرمينية أشوط الثالث البجراطي وأخبره بانتصاراته التي اعتبرها من المعجزات .

لكن مملكة أرمينية بدأت في الانقسام في عهد ملكها أشوط الثالث البجراطي فقد أقطع أخاه الأمير موشغ البجراطي اقليم قارس ومنحه لقب ملك إرضاء له في عام ٩٦٢ وولاه ملكاً حتى عام ٩٨٤ . كما أنه أقر ضم دولة الروم لاقليم طارون الأرمني الذي تم منذ

عام ٩٦٨ . ثم تلقب الأمير الأرمني لاقليم سيوني الأرمني بشرق مملكته سمباط السيوني بلقب الملك سمباط الثاني السيوني في عام ٩٧٠ ، فصار أربعة من الأمراء الأرمن يحملون لقب ملك هم ملك أرمينية ، وملك البسفرجان ، وملك قارس ، وملك سيوني . ثم صاروا خمسة في عام ٩٨٢ حينما تلقب الأمير الأرمني خورين البجراطي ابن الملك أشوط الثالث البجراطي حاكم اقليم لوري بشمال مملكة أرمينية بعد وفاة والده بلقب خورين الأول البجراطي ملك لوري ، وظل يحكم اقليمه هذا حتى عام ٩٨٩ .

وفي عام ٩٧٧ خلف الملك سمباط الثاني البجراطي أباه الملك أشوط الثالث البجراطي في حكم أرمينية ، وسار على سياسته السلمية ، ولكنه تصادم مع ملوك أرمينية المنافسين ، ومنهم أخوه خورين الأول البجراطي الذي أعلن نفسه ملكاً على لوري عام ٩٨٢ . وقد أدى هذا التصادم إلى استنجد خورين خاتشيك الأردزروني ملك البسفرجان بوالي آذربيجان الفارسية الأمير مملاط الأول بن أبي الهيجاء السلاري الديلمي .. فقصد أرمينية في عام ٩٨٨ واضطر ملكها سمباط الثاني البجراطي إلى إعلان الولاء له وأداء الجزية إليه .

وفي عام ٩٨٩ خلف الملك خاتشيك الأول البجراطي أخاه الملك سمباط الثاني البجراطي في حكم أرمينية . وقد تحالف مع الملك داود الثاني الأكبر البجراطي ملك اييريا الذي آلت عليه زعامة جميع الممالك المسيحية في اقليم ما وراء القوقاز ، فكان ذلك ممهداً لقيام مملكة الكرج أو جورجيا الموحدة في عام ١٠٠٨ وتصدرها هذه الممالك بعد أن فقدت مملكة أرمينية زعامتها لها . كما أنه في عهد ملك أرمينية هذا انتقل نهائياً وفي عام ٩٩٢ مقر جاثليق الكنيسة الأرمينية الوطنية إلى عاصمته آني ، وبقي بها حتى عام ١٠٥٤ أي بعد سقوطها .

وفي عام ١٠٢٠ خلف الملك سمباط الثالث البجراطي أباه الملك خاتشيك الأول البجراطي في حكم أرمينية . ولكن الملك لم يستقر له ، إذ نازعه فيه أخوه الملك أشوط الرابع البجراطي الملقب بالشجاع ، الذي نادى بنفسه ملكاً على أرمينية أيضاً ... وتدخل في النزاع ملك جورجيا والملوك الأرمن الآخرون بل وملك الروم باسيل الثاني ، الأرمني الأصل الذي كان يسعى لإضعاف كل هؤلاء الملوك وضم أملاكهم إلى مملكة الروم .

ولما توفي ملك أرمينية في عام ١٠٤٠ دون ولد لم يعترف ملك الروم الجديد عندئذ ميخائيل الرابع ، ومن بعده ملكهم قسطنطين التاسع ، لم يعترفوا بأخيه الملك خاتشيك الثاني البجراطي آخر البجارطة من ملوك أرمينية ملكاً عليها ، بل ورشح ملك الروم قسطنطين التاسع سمباطاً الثالث السيوني ملك سيوني (عام ١٠١٩) ملكاً عليها ، وأيده في هذا الترشيح الجاثليق الأرمني بدروس الأول .

وأرسل قوة رومية إلى مدينة آنى عاصمة أرمينية ساندها هذا المرشح ، وداود الثاني البجراطي ملك لورى الأرمني .

ولكن عامة الشعب الأرمني ونخاره وعلى رأسهم القائد الأرمني بهرام كامسار كان يهلوني أيدوا الملك خاتشيك الثاني البجراطي في تولي حكم أرمينية وانتصروا على قوات الروم وحلفائهم من الأرمن التي أرسلت إلى آنى في عام ١٠٤١ . ونصبوا الملك خاتشيك الثاني البجراطي ملكاً على أرمينية في عام ١٠٤٢ . كما أنهم تمكنوا بقيادة هذا القائد من صد قوات الأمير أبي الأسوار شاور بن الفصل الشدادي الكردي والانتصار عليها عند بحيرة سيفان عام ١٠٤٢ أيضاً .. ولكن ملك أرمينية خاتشيك الثاني البجراطي قبل رغم ذلك ورغم نصيحة قائده التوجه إلى القسطنطينية عاصمة الروم لمفاوضة ملكهم قسطنطين التاسع على مستقبل أرمينية في عام ١٠٤٥ ، وهناك أجبره هذا الملك على التنازل عن مملكته لدولة الروم مقابل إقطاعه بعض الأراضي باقليم قليقية . ولم يعد ملك أرمينية خاتشيك الثاني البجراطي إلى مملكته قط .. بل أقام في القسطنطينية حيث اغتاله الروم في عام ١٠٧٩ ، وكان معه عندئذ تابعه أو قريه الأمير روين مؤسس مملكة أرمينية الصغرى في هذا الاقليم عام ١٠٨٠ والتي دامت حتى عام ١٣٧٥ .

وعقب هذا التنازل أرسل الروم قواتهم إلى آنى عاصمة مملكة أرمينية الكبرى ففتحتها بالقوة في عام ١٠٤٥ ، وانقرضت بذلك هذه المملكة . ولكن قوات الروم لم تستطع الاستيلاء على اقليم شيراك الأرمني الذي كان الأمير الأسوار شاورين الفضل الشدادي الكردي قد استولى عليه منذ عام ١٠٤٣ تنفيذاً لاتفاقه معهم بمهاجمة هذه المملكة .

ولا على دوين عاصمته التي كانت في يده من قبل رغم حملتين شنتهما ضده في عام

١٠٤٧ وفي عام ١٠٤٩ ، ولكنهم اضطروا في هذا العام الأخير إلى نقل عاصمته بعيداً عن متناول أيديهم إلى جنزة .. وكذلك أجبر ملك الروم قسطنطين العاشر ملك فارس الأرمني عباساً الثاني البجراطي الفارسي على التنازل له عن مملكته مقابل إقطاعه أراضي أخرى للروم ولم يبق من الممالك الأرمينية بعدئذ إلا مملكة لورى ، وكان آخر ملوكها كريكور الثاني البجراطي ، ومملكة سيوني وكان آخر ملوكها كريكور الخامس السيوني وقد خضعتا لدولة السلاجقة التي ضمت بلادهما نهائياً في سنة ١٠٩٠ .

ورغم ذلك بقيت للأرمن ثلاث إمارات صغيرة في الشرق بإقليم سيوني ، وفي جنوب وغرب بحيرة وان باقليم موقسين ، وفي الغرب باقليمي صاسون وشمشاط ، وكانت تحكم الأولى أسرة جاردمان التي انقرضت في عام ١١٦٦ وتحكم الثانية بقايا أسرة الأردزروني وتحكم الثالثة بقايا أسرى ماميكونيان تحت سيادة الروم حتى عام ١١٩٠ حين انقرضتا أيضاً وآلت أملاكها لدولة شاهات الأرمن التركية السلجوقية ..

ولم تلق دولة الروم بالاً وهي تقضي على هذه الدول الأرمينية أن فعلها هذا سيجردها من دول حازجة ، بل من حلفاء طبيعيين ضد دولة الخلافة والدول المتفرعة منها .. وقد أفضى هذا القضاء إلى تعرض أملاك دولة الروم مباشرة لهجوم دولة السلاجقة المتفرعة من دولة الخلافة ، والتي بدأت قواتها في الظهور في أرمينية منذ عام ١٠٤٦ — حينما أغارت بقيادة الأمير قتلмыш السلجوقي على اقليم البسفرجان ووصلت إلى بحيرة وان ، وكان هذا إنذاراً باستيلاء السلاجقة على كل أرمينية ثم على كل آسيا الصغرى ، بل وعمل كل دولة الروم بسلسلة من الانتصارات عليها بدأت بمعركة ملاذكرد الحاسمة منذ عام ١٠٧١ ، وختمت باستيلاء خلفائهم العثمانيين على عاصمتها القسطنطينية في عام ١٤٥٣ .

لقد كان عهد الملكة الأرمينية البجراطية عهد رخاء وتقدم وقوة للشعب الأرمني صقل طابعه حتى اعتبر عهدها نموذجاً سعى لاحداثه رواد النهضة الفكرية الأرمينية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فقد ازدهرت التجارة بينها وبين دولتي الروم والخلافة ، وكان لها طرقها التجارية البحرية عبر البحر الأسود من ميناء طرايزون ، وعبر بحر قزوين من بردعة وطرقها التجارية البرية من وان إلى بدليس إلى الموصل ، ومن دوين إلى ناخشيفان .

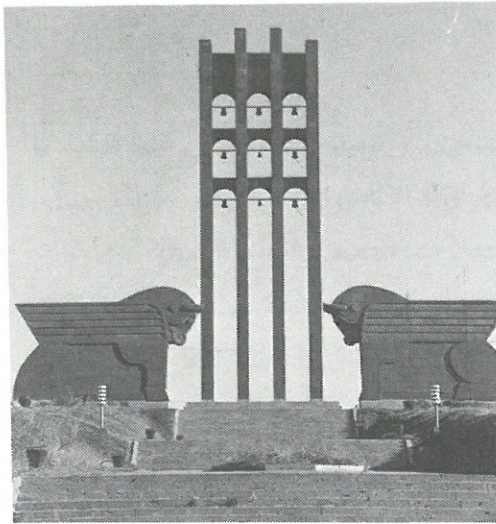
كما ازدهرت الصناعات الدقيقة التي اشتهرت بها وخاصة الأقمشة والأخشاب

والأسلحة . وأقيمت بهذه المملكة مبان وكنائس كثيرة ذات طابع معماري خاص في مدن آني وقارس وبجران وكوتياس وأختار وغيرها صممها المهندسون المعماريون الأرمن وأولهم تريداد المعروف ، الذي باشر نشاطه في المدة من عام ٩٨٠ إلى عام ١٠٠٠ (وكان ضمنه تجديد قبة كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية عاصمة الروم) . حتى صارت آني عاصمة الأرمن منافسة لها في تزعم المسيحية الشرقية وتعرف « بمدينة الألف كنيسة وكنيسة » . وكذلك ظهرت بهذه المملكة مراكز علمية وثقافية ، كانت تتمركز في الأديرة ومكتباتها . ومنها تلك التي في طاطيق ، وجلاذور ، وسيغان ، وقارس ، وجرت فيه الأنشطة في ذلك الزمان ، أي في القرنين العاشر والحادي عشر ، وضمنها أن كتب القديس والفيلسوف الأرمني كريكور الناركي المتوفى عام ١٠٠٣ « كتاب النياح » وهو مجموعة أشعار فلسفية صوفية حيكت بأسلوب مزامير داود وألحاناً موسيقية ، وإن كتب المؤرخ الأرمني توما الأردزروني تاريخاً لأسرته آل الأردزروني ، وإن كتب المؤرخ الأرمني المطران أوكتناس الرهاوي تاريخاً لأرمنية وتاريخاً للخلاف الديني بين الأرمن والكرج ، وإن كتب المؤرخ الأرمني اصطفان أسوغك تاريخاً لأرمنية من أحسن ما كتب عنها ، وإن كتب المؤرخ الأرمني أرسطاكس لاستفري تاريخاً لأرمنية سجل فيه سقوط هذه المملكة .. كما أنه بعد سقوطها وفي القرن الثاني عشر رثاها بقصيدة شعرية الجاثليق الأرمني نرسييس الرابع شنورهاني ، وسجله أيضاً المؤرخ الأرمني صموئيل الآني في تاريخه العام ، كما جمع قوانينها الفقيه والمشرع الأرمني الأشهر ميختار غوش ، وقد بلغ من قوتها أن وصل مجموع جيشها ثمانين ألف جندي مقاتل ، وهابتها دولة الروم والخلافة المجاورتان لها .

تافيت الصاسوني



نصب تذكاري في بكفيا — لبنان



نصب معركة سارادار اباد البطولية

الفصل السادس

أزمينية في المنفى

قبل الحديث عن قيام مملكة أرمينية الصغرى أو أرمينية في المنفى في اقليم قليقية ، يجدر الحديث عن قدوم الأتراك إلى آسيا الصغرى (الأناضول) وتغييرهم أحوالها حيث أصبحت بلادهم ، بعد أن كانت بلاد الروم ابتداء منذ منتصف القرون الوسطى ، مما كان له أثر خطير على الشعب الأرمني .. وأول هذه الدول هي الدولة السلجوقية التركية الكبرى التي تأسست عام ١٠٤٠ ، واعتبرت إحدى الدول المستقلة المتفرعة عن دولة الخلافة العربية الإسلامية ..

وقد أسست الدولة السلجوقية قبائل بدائية من الترك الغزية الذين عرفوا فيما بعد بالتركان الذين كانوا يتجولون بآسيا الوسطى . وقد بدأوا بشن سلسلة من الغارات والحروب في جميع الاتجاهات .. حتى تمكنوا من آسيا الصغرى .. ثم من كل الأناضول حيث استوطنوا فيه وضمموه نهائياً لدولتهم ..

وقد ترتب على هذه الفتوح والاستيوانات التركية السلجوقية هجرة كثير من الروم (الاغريق) والأرمن من البلاد المفتوحة .. واتجهت الهجرة الأرمنية من أرمينية ، والخارجة منها على وجه الخصوص ، نحو الجنوب إلى الرها باقليم الجزيرة الغربي وإلى اقليم قبادوقية الذي كانت قد اتجهت إليه من قبل في أوائل القرن العاشر ، وإلى اقليم قليقية الواقع بجنوب الأناضول على الزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط حول خليج الاسكندرية ، والذي كان الروم قد هجروا إليه من قبل كثير من الأرمن إثر استيلائهم على بلادهم وضمها إلى أملاكهم .. وكان من هؤلاء الجاثليق الأرمني الذي ترك آنى منذ عام ١٠٥٤ ، وأخذ مقره ينتقل في اقليمي قليقية وقبادوقية ، وفي أرمينية ذاتها ، حتى استقر في عام ١١٥٠ بقلعة الروم على نهر الفرات الأعلى .. كما كان من هؤلاء خاتشيك القاني البجراطي آخر ملوك أرمينية الذي اغتاله الروم في عام ١٠٧٩ باقليم قليقية .. كما أنه كان منهم أيضاً الأميران المشهوران أوشين بن هيثوم ، ورويين ، وقد أقام كل منهما في هذا الاقليم إمارة أرمينية من أتباعه في الأرض التي أقطعها له الروم ، بدأتا في قلعة لامبرون ، وفي قلعة بارتزبرت في عام ١٠٧٢ وفي عام ١٠٨٠ .

غير أنهما في البداية لم يتزعمها الأرمن بل تزعم الأرمن قبل سلالتهم أمير أرميني ثالث هو القائد فيلاراطوس بجراميوس أو بهرام العامل في خدمة الروم ، وحاكم مرعش من قبلهم ، فقد رفض الاعتراف بملكهم الجديد ميخائيل السابع الذي أقاموه بعد أسر ملكهم رومانوس الرابع ، وتمكن من الاستيلاء منهم على مدن ملطية وطرسوس ، وعين زرية في عام ١٠٧٤ ، ثم على الرها في عام ١٠٧٧ ، ثم على أنطاكية في عام ١٠٧٨ ، وكون دولة أرمينية كبيرة امتدت في اقليمي قبادوقية وقليقية ، وأعلن الأميران الأرمنيان أوشين ورويين عن ولائهما له . ثم أعلن هو عن ولائه للملكي الروم التاليين نقفور الثالث ، والكسيوس الأول ، ليؤمن مساعدتهما له ضد السلاجقة ، ولكن هؤلاء أخذوا منه أنطاكية في عام ١٠٨٤ (وقد بقيت في أيديهم حتى عام ١٠٩٨ حين استولى عليها الصليبيون ، ثم خرجت عليه الرها ثم أخذها السلاجقة أيضاً في عام ١٠٨٦) (وقد بقيت في أيديهم حتى عام ١٠٩٤ حين استولى عليها قائد أرميني آخر هو الأمير طوروس أحد قادة الأمير فيلاراطوس

بجراميوس ، ثم سلمها إلى الصليبيين في عام ١٠٩٨) . ومات الأمير فيلاراطوس بجراميوس في عام ١٠٩٠ وليس في يديه غير مرعش وملطية .

ثم آلت مرعش إلى تابعه القائد الأرمني طاطول حتى سلمها إلى الصليبيين في عام ١٠٩٧ الذين سلموها بدورهم إلى الروم فأبقوه حاكماً عليها حتى عام ١١٠٤ . وأما ملطية فقد آلت إلى تابعه القائد الأرمني جيرائيل ، حتى استولى عليها الدانمشندية في عام ١١٠٣ . وكذلك نشأت في ذلك الزمان إمارة صغيرة في رعبان وقيسون على أعالي نهر الفرات شمالي مرعش أقامها القائد الأرمني كوخ باسيل ، الملقب باللص (أي سارق الممالك كما قيل) في عام ١٠٨٢ وظلت قائمة حتى قدوم الصليبيين في عام ١٠٩٧ ثم بعد وفاته في عام ١١١٢ وحتى عام ١١١٦ حين أخذتها إمارة الرهام الصليبية من خلفه باسيل طغا . وكانت دولة الأمير فيلاراطوس بجراميوس الأرمينية والدويلات الأرمينية الأخرى الصغيرة المشار إليها تؤذن بقيام دولة أرمينية الصغرى في اقليم قليقية وتعاونها مع الصليبيين ..

ولم تستطع دولة السلاجقة الكبرى مواصلة فتوحها لأنها ضعفت وأخذت في الانقسام منذ وفاة سلطانها ملكشاه في عام ١٠٩٢ ، ولأنه ظهرت قوة جديدة في الشرق الأوسط أوقفت مؤقتاً الزحف السلجوقي التركي على دولة الروم وكانت من أسباب تأجيل سقوطها . وهذه القوة هي « الصليبيون » .

وهكذا قامت مملكة أرمينية الصغرى أو الدولة الأرمينية الجديدة أو أرمينية (في المنفى) أو مملكة سيس كما أسميت فيما بعد نسبة إلى عاصمتها الأخيرة (في المنفى أي بعيداً عن أرمينية الأصلية ، وهي أرمينية الداخلة وأرمينية الخارجة — في اقليم قليقية من الأرمن المهاجرين إلى هذا الاقليم حول الإمارة التي أنشأها الأمير الأرمني روبين في قلعة باتزبرت على مقربة من سيس في عام ١٠٨٠ ، وهي السنة التالية لمقتل الملك خاتشيك الثاني البجراطي آخر ملوك أرمينية الكبرى ، التي أزالتها الروم في عام ١٠٤٥ ، وكان هذا الأمير تابعاً له وحاضراً اغتيال الروم له ، وادعى قرابته له وأقسم أن يؤسس مملكة أرمينية جديدة تكون امتداداً للمملكة الأرمينية الزائلة ، وتعتنق المسيحية المونوفيسية الأرثوذكسية ، وتؤيد كنيسها الأرمينية المستقلة والمنفصلة عن الكنيسة المسيحية الرومية الأرثوذكسية .

وفي هذا كان يختلف عن الأمراء الأرمن السابقين عليه وهم أوشين وفيلاراطوس بجرامبوس ، وطوروس ، وطاطول ، وجبرائيل .. فقد كانوا يعتقدون المسيحية الرومية الأرثوذكسية ، ولم يكن غيره يعتنق المسيحية المونوفيسية الأرثوذكسية إلا الأمير كوخ باسيل .. وقد سبق ذكر إقامة الأمير الأرمني فيلاراطوس بجرامبوس دولة أرمنية كبيرة في اقليم قبادوقية وتمزقها قبل وفاته في عام ١٠٩٠ ، ثم الإمارات الأرمنية الصغيرة التي قامت معاصرة لها وبعدها على أنقاضها وضمها إمارة الأمير الأرمني روين الأول ، والتي خلفه فيها ابنه الأمير الأرمني قسطنطين الأول ، وفي عهده أتى الصليبيون إلى الشرق في عام ١٠٩٧ .

وكان من قادة الصليبيين الأمير بالدوين ، وقد اعتزم منذ بداية الحملة الصليبية الأولى إنشاء إمارة أرمنية صليبية مختلطة بزعامته اعتماداً على صداقته للأرمن منذ أن كان في عام ١٠٩٧ في نيقية ، إذ تصادق مع الأمير الأرمني بجرات ، الذي كان يعمل في خدمة ملك الروم ، وأخي الأمير الأرمني كوخ باسيل حاكم رعبان وقيسون السابق ذكرهما .. وهذا مثل ما فعله فيما بعد الأمراء الصليبيون الآخرون من إنشاء الإمارات الصليبية المشار إليها . ولهذا فقد انفصل الأمير بالدوين عن القوة الصليبية الرئيسية عند طوانة ، ودخل اقليم قليقية الذي كان يسكنه الأرمن ، ولكنه وجد ظروفه غير ملائمة لأن الأميرين الأرمنين أوشين بن هيثون وقسطنطين الأول بن روين كانا يتطلعان لإقامة دولة أرمنية به .. وقد لاقى الصليبيون بقلقية ثانيهما واستولوا على المصبصة القريبة من أملاكه ، التي كانت قد تركزت في قلعة فهقة ، ثم انفصل الأمير بالدوين عن القوة الصليبية الرئيسية مرة أخرى عند مرعش وتوجه إلى الرها ، التي سلمها إليه في عام ١٠٩٨ حاكمها الأرمني الأمير طوروس وتبناه ، ثم تزوج الأمير بالدوين من أميرة أرمنية ، ونجح في إقامة إمارة أرمنية صليبية مختلطة ، إذ ولاه أهلها حكمها بعد أن قاموا على حاكمهم السابق ، وقتلوه في هذا العام ، ولكنه لم يلبث طويلاً في إمارته المختلطة هذه فقد استدعي إلى مملكة القدس كي يخلف ملكها في عام ١١٠٠ ، ولكن هذه الإمارة الأرمنية الصليبية المختلطة ظلت قائمة يحكمها أمراء صليبيون حتى استولى عليها في عام ١١٤٤ السلطان عماد الدين زنكي بن آقسنقر ..

وقد رحب الأرمن بالصليبيين ، وتعاونوا معهم ، وقدموا لهم كل المساعدات الحربية وغير الحربية ، بل صاهروهم إذ وجدوا فيهم ضالهم المنشودة ، وهي البحث عن حلفاء بعد أن عاداهم واعتدى عليهم كل السلاجقة والترك والروم ، واستولوا على بلادهم واقتسموها . ولم يحل دون هذا التعاون اختلاف المذهب الديني المسيحي بين الأرمن وبين الصليبيين ، فقد سعوا جميعاً للتقارب ، وخاصة أن هؤلاء الآخرين صاروا منذ عام ٨٦٩ ، وبناء على مقررات مجمع القسطنطينية الرابع الديني المسيحي ، والتي تأكدت بالقطيعة التي تمت في عام ١٠٥٤ — يختلفون أيضاً في المذهب عن الروم .

وأدى هذا التعاون إلى تحالف بين الأرمن والصليبيين ، وكان سند مملكة أرمنية الصغرى ، التي انطبعت بناء على ذلك وإلى حد كبير ، بطابع لاتيني (أوروبي غربي) ، هو اعتمادها على هؤلاء الصليبيين القادمين من أقصى الغرب من أوروبا ، ولما ضعف الصليبيون وجدت مملكة أرمنية الصغرى حليفاً جديداً في المغول غير المسلمين الذين قدموا بعد ما يزيد على القرن من أقصى الشرق من آسيا . ثم لما زالت الإمارات الصليبية من الشام ، واعتنق المغول الإسلام وزالت دولتهم التي أسسوها في الشرق الأوسط ، فقدت مملكة أرمنية الصغرى حلفاءها فسقطت في يد الدولة الإسلامية التي تفرعت عن دولة الخلافة ..

وفي ظل حماية الصليبيين في الشرق وخاصة حماية إمارتي الرها ذات الطابع الأرمني الصليبي وأنطاكية ، ذات مثل هذا الطابع إلى حد ما واللتين جاورتا اقليم قليقية — في ظل حمايتها لهذا الاقليم من السلاجقة وبناء على معارضة الصليبيين عموماً في إعادته إلى دولة الروم ، بدأ الأمير الأرمني قسطنطين الأول بن روين في تكوين مملكة أرمنية الصغرى ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه الأمير الأرمني طوروس الأول ، وقد انفرد بزعامة الأرمن بعد وفاة منافسه الأمير الأرمني أوشين بن هيثوم في عام ١١١٠ ، واستسلام أمراء الإمارات الأخرى الأرمن للصليبيين في المدة من عام ١٠٩٧ حتى عام ١١١٨ ، وضم إلى أملاكه بلدي سيس وعين زربة اللتين كان الروم قد استردوها عقب الحملة الصليبية الأولى . وخلفه أخوه الأمير ليفون الأول فواصل توسيع أملاكه وضم إليها في عام ١١٣٢ المصبصة ثم أضنة وطرشوس من الروم أيضاً فقامت فعلاً الدولة أو الإمارة الأرمنية الجديدة في سهل قليقية

الخصيب تحميها من الشمال جبال طوروس . ولكن ظهور هذه الدولة أثار غيرة الكونت ريموند بواتيه أمير أنطاكية الصليبي فحارب أميرها الأرمني هذا وأسرته ثم أطلقه في عام ١١٣٦ ، كما اعتزم ملك الروم حنا الثاني كوفين القضاء على هذه الدولة ، وضم قليقية إلى مملكة الروم ، وشن حملة عليها في عام ١١٣٧ ، فاستولى فيها على طرسوس وأضنة ، والمصيصة ، وعين زربة ، وسيس ثم توجه إلى أنطاكية وهاجمها ، فأعلن أميرها الصليبي ريموند بواتيه ولاءه له . ثم عاد في عام ١١٣٨ إلى قليقية واستولى على قلعة فهقة وأسر بها الأمير ليفون الأول أمير أرمينية وولديه روين وطوروس ، واقتادهم أسرى إلى القسطنطينية حيث مات الأمير ليفون الأول في عام ١١٤٢ بعد ضم إمارته إلى دولة الروم .

وفي عام ١١٤٣ تمكن الأمير الأرمني طوروس ابن الأمير ليفون حاكم أرمينية الصغرى السابق من الهرب من القسطنطينية ، والتجأ إلى ابن خاله الأمير جوسلين كورتناي الثاني أمير الرها الصليبي ، ثم عاد في عام ١١٤٥ إلى قليقية ، وتمكن من استرداد قلعة فهقة ، ثم في عام ١١٥١ تمكن من استرداد المصيصة وطرسوس ، وأضنة ، وعين زربة ، وسائر أملاك أبيه ، وصار طوروس الثاني حاكم وأمير أرمينية الصغرى ، ولم تغلح غارات الصليبيين والسلاجقة على بلاده التي شنت في الأعوام عام ١١٥٣ ، وعام ١١٥٤ ، وعام ١١٥٥ ، بتحريض من ملك الروم مانويل الأول في انتزاعها منه .. فسار هذا الملك في عام ١١٥٨ ، نحو الشرق لضم قليقية ، والقضاء على الدولة الأرمينية بها بل وللسيطرة على إمارة أنطاكية الصليبية ، واستولى على عين زربة وطرسوس والمصيصة ، وأضنة ، وهرب الأمير الأرمني طوروس الثاني إلى الجبال ، ثم انتهت هذه الحرب بتوسط الملك بالدوين الثالث ملك القدس الصليبي في عقد صلح اعترف بموجبه الأمير الأرمني طوروس الثاني بسيادة ملك الروم وترك له سهل اقليم قليقية ، فلم يبق له إلا جباله التي اعتصم بها ، ولما حاول نقض هذا الصلح واستولى على عين زربة في عام ١١٦٢ اضطر إلى التزامه في العام التالي .

وإثر وفاته في عام ١١٦٨ خلفه ابنه القاصر الأمير الأرمني روين الثاني ، فخرج عليه عمه الأمير الأرمني مليح الأول ، الملقب بالمرتد ، الذي كان لاجئاً لدى السلطان نور الدين محمود بن زنكي حاكم حلب ثم دمشق أيضاً ، وخلف أبيه السلطان عماد الدين

زنكي بن آقسنقر الملقب بالشهيد حاكم الموصل وحلب ، الذي استرد الرها من الصليبيين عام ١١٤٤ على ما سبق ذكره .

وطلب الأمير الأرمني مليح الأول من السلطان نور الدين محمود المساعدة كي يتولى الإمارة بقلقية . فأعطاه قوة تمكن بها في عام ١١٧٠ ، من الاستيلاء عليها وخلع ابن أخيه الأمير الأرمني روين الثاني وخلفه في حكمها .. وصار تابعاً للسلطان نور الدين محمود ، ولم يجد تحالف مانويل ملك الروم وأملريك الأول ملك القدس الصليبي ضده منذ عام ١١٦٩ ، ولا حملة هذا الأخير ضده في عام ١١٧٣ في إزاحته عن إمارته ، بل وضم إليها من أملاك الروم المصيصة ، وطرسوس ، وأضنة في هذا العام ، وبقي حاكماً لها حتى بعد وفاة حليفه السلطان نور الدين محمود في عام ١١٧٤ ، وبعدئذ وفي عام ١١٧٥ اغتاله ابن أخ آخر له هو الأمير الأرمني روين الثالث ، وتولى الإمارة بدله ، وعاد إلى التحالف مع الصليبيين ، بل وحاول التقريب بين كنيسة روما الكاثوليكية ، وبين الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية في مجمع قلعة الروم الديني الأرمني المنعقد في عام ١١٨٠ . كما أنه حارب سلاجقة الروم فاستغاثوا بالسلطان صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام فغزا أرمينية الصغرى في عام ١١٨٠ ، وأعلن أميرها هذا ولاءه له ، ثم ترهبين وتنازل عن الحكم لأخيه الأمير الأرمني ليفون الثاني (عام ١١٨٧) ، الذي سعى لتدعيم إماراته فتمكن في عام ١١٨٨ في معركة دارت عند مرعش من صد هجوم السلاجقة الروميين على سيس ، التي نقل إليها عاصمته من طرسوس ، ومن الاستيلاء على بعض أملاكهم غرباً .. وعلى بغراس من إمارة أنطاكية الصليبية شرقاً .. وقد رحب عام ١١٩٠ كل الترحيب بالامبراطور الألماني فردريك الأول ببروسا ، حال مروره في إمارته قائداً جنوده الألمان للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة ، وقدم له كل المعونة ، وكلف المطران نرسييس لمبروناتسي بمفاتحته بشأن تأييد إمارته ، ورفعها إلى مصاف الممالك . ولكن الامبراطور ما لبث أن توفي غريقاً في نهر سالف بإمارة أرمينية الصغرى ذاتها حال عبوره له ، فعاد أغلب جنود حملته إلى بلادهم ، وتمكن الأمير الأرمني ليفون الثاني في عام ١١٩٤ من إلزام الأمير بوهيمند الثالث أمير أنطاكية الصليبي بطاعته ، ثم سعى لتقريب الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية من كنيسة روما الكاثوليكية في مجمع طرسوس الديني الأرمني المنعقد في عام ١١٩٦ حتى تمكن في عام

١١٩٧ من الحصول على لقب « ملك أرمنية » من البابا سلسنتين الثالث ، والامبراطور الألماني هنري السادس ، وأرسلا إليه تاجاً توجه به مندوبهما والجاليليك الأرمني كريكور السادس في يوم ٦ كانون الثاني عام ١١٩٨ وهو عيد ميلاد المسيح لدى الأرمن الأرثوذكس بكنيسة طرسوس ، لكونها مسقط رأس القديس بولس الرسول ، مقابل اعترافه برئاسة البابا الدينية ودخوله المجتمع الأوروبي الغربي ، وفي عهده ازدهرت مملكته إذ أدخل فيها إصلاحات داخلية اقتبسها من الإمارات الصليبية وجعلها مركزاً لتقاطع طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب ، وخاصة تجارة التوابل الآتية من الهند والشرق الأقصى ، ومنح الجنوبيين والبنادقة الإيطاليين امتيازات تجارية في موانئه المطلّة على البحر المتوسط ، وهي أياص ، وطرسوس ، وقاريقوس ، وخاصة أياص التي زارها ووصفها في كتاب رحلاته الرحالة البندقي الإيطالي المعروف ماركو بولو في عام ١٢٧١ حتى صارت منافسة لاسكندرية بمصر في هذه التجارة حتى أواسط العهد المملوكي بها ، حين زالت مملكة أرمنية الصغرى .

وإثر وفاة الملك الأرمني ليفون الثاني في عام ١٢١٩ خلفته ابنته الملكة زابل ، وتزوجت أولاً من الأمير فيليب بوهيند ابن أمير أنطاكية الصليبي بوهيمند الرابع ، الذي صار بناء على ذلك ملكاً على أرمنية (عام ١٢٢٢) . ولكن الأمراء الأرمن خلعه وقبضوا عليه ثم قتلوه ، لأنه لم ينفذ ما اشترطوا عليه حين ولوه عليهم أن يحيا حياة أرمنية . ثم زوجها كبيرهم الأمير الأرمني قسطنطين الهيثومي حفيد الأرمن الأرمني أوشين بن هيثوم — زوجها في عام ١٢٢٦ من ابنه الأمير الأرمني هيثوم ، الذي أعلنه ملكاً على أرمنية ، فانتقل الملك إلى هذه الأسرة المنافسة من قبل لأسرة روين ، بل اتحدت الأسرتان المذكورتان في شخص الملك هيثوم الأول أو الأكبر . والتزم هذا الملك ، الذي أسماه العرب باسم حاتم ، بسياسة التحالف مع الصليبيين ، وتصلح مع إمارة أنطاكية الصليبية بوساطة ملك فرنسا القديس لويس أو لويس التاسع إبان وجوده بجزيرة قبرص أثناء حملته الصليبية ضد مصر والشام في المدة من عام ١٢٤٨ وحتى عام ١٢٥٤ .

وفي عهد ملك أرمنية الصغرى هيثوم الأول وصلت إلى الشرق الأدنى حملات المغول الكبرى ، وكانت مملكته أول الممالك المسيحية تحالفاً معهم ضد الممالك

الإسلامية . وقد بدأت هذه الحملات المغولية الكبرى إثر توحيد زعيم المغول « تيموجين » لقبائلهم البدائية وتلقبه بلقب « جنكيز خان » أي ملك الملوك وحكمه لها ، وإقامته دولتهم الكبرى في عام ١٢٠٦ (وقد دامت حتى عام ١٢٩٤) .

وفي عام ١٢٣١ دخل المغول أرمنية الخارجة وخربوا بلادها ثم انشغلوا منذ عام ١٢٣٦ بحملة ضد الكرج انتهت بإخضاعهم وبلاستيلاء على أملاكهم في أرمنية الداخلة في آنى وفارس في عام ١٢٣٩ . ولم يواصل المغول حملاتهم في أرمنية الخارجة والأناضول إلا في عام ١٢٤٢ في عهد سلطان سلاجقة الروم الجديد غياث الدين كيخسرو الثاني ، حين استولوا بقيادة قائدهم المعروف بابجو المغولي على أرضروم ، فجمع هذا السلطان جيشاً كبيراً من المسلمين من الترك والعرب ومن المسيحيين من الإغريق والفرنج ، والكرج ، والأرمن ، وتوجه إلى أرمنية الخارجة لصد المغول ، والتقى الفريقان في عام ١٢٤٣ عند كوسا داغ قرب أرزنجان ، حيث دارت معركة كبيرة انتهت بانهزام السلطان السلجوقي هذا وهربه إلى أنقرة ، فانتشر المغول في أملاكه في كل اتجاه ، واستولوا على أرزنجان وتوقات ، وسيواس ، وقيصريّة ، وملطية ، ثم أخلاط ، وآمد في عام ١٢٤٥ ، واقتربوا من مملكة أرمنية الصغرى .

ووجد ملك أرمنية الصغرى هيثوم الأول في المغول حليفاً جديداً لأرمنية الصغرى بدلاً من الصليبيين الذين أخذت دولتهم تنهار ، فأرسل في عام ١٢٤٣ إلى القائد المغولي بابجو كتاباً يفيض بالولاء ، وكان أول من فكر من ملوك الدول المسيحية في تنصير المغول والتحالف معهم .

وفي عام ١٢٥٤ ذهب ملك أرمنية الصغرى هيثوم الأول شخصياً متنكراً وماشياً ، وليس معه إلا تابع واحد إلى قره قروم عاصمة المغول بمنغوليا ، حيث عقد له الخان الأكبر الجديد للمغول مانكوخان استقبالاً رسمياً في ١٣ أيلول عام ١٢٥٤ ، وفيه قدم ولاءه للخان الأكبر للمغول ، وحصل منه على وعد بوضع الكنيسة الأرمنية الوطنية الأرثوذكسية تحت حمايته ، وتوجيه حملات مغولية ضد دول العباسيين والأيوبيين والسلاجقة ، وهي الدول الإسلامية بآسيا الغربية للقضاء عليها . وفي عام ١٢٥٥ عاد ملك أرمنية هيثوم

الأول إليها وفي صحبته حملة مغولية بقيادة بايجو المغولي الذي فرض سيادة المغول على دولة سلاجقة الروم .

وقد سجل الكند سطل سمباط الأرمني تفاصيل رحلته وسفارته في رسالة أرسلها من سمرقند إلى صهره الملك هنزي الأول لوزجان ملك قبرص في عام ١٢٤٨ .

وفي عام ١٢٦٢ أرسل السلطان الظاهر بيبرس قواته للاستيلاء على إمارة أنطاكية الصليبية ، ولكنه لم يتمكن من ذلك لتصدي ملك أرمينية هيثوم الأول بقوات أرمينية ومغولية ساعد بها قوات هذه الإمارة ، كما أنه في عام ١٢٦٣ نجح في صد قوات دولة بني قرمان التركية والمتمركزة في قونية .

وقاد السلطان الظاهر بيبرس في عام ١٢٦٦ حملة على الصليبيين بسواحل الشام فاستولى على قيصرية ، وحيفا بفلسطين على البحر المتوسط ، ثم صفد ، وتبين ، ثم أرسل قائده الأمير سيف الدين قلاوون إلى مملكة أرمينية الصغرى ، ولما علم بذلك ملكها هيثوم الأول هرع إلى تبرز مرة ثانية لاستئجار الإيل خان المغولي الجديد أبغاخان ، وعند غيابه وصلت إلى مملكته الحملة المصرية المملوكية بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون واشتبكت مع قواته التي كان يقودها ابنه الأميران الأرمنيان طوروس ، وليفون عند بلدة سرفنتكار أو حجر سروند ، وانتصرت عليها وقتلت ابنه الأول وأسرت الثاني ، وخربت حصن دريساك وميناء أياس ، ومدينة أضنة ، والعاصمة سيس ، وعادت بأربعين ألف أسير .

ثم وجه السلطان الظاهر بيبرس قواته إلى إمارة أنطاكية الصليبية التي صارت منعزلة وحيدة ففتحها في عام ١٢٦٨ بعد أن ظلت في يد الصليبيين مدة ١٧١ عاماً منذ عام ١٠٩٧ ، وسعى ملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول لإطلاق ابنه الأمير الأرمني ليفون الذي صار ولي عهده من الأسر ، لعقد الصلح مع دولة المماليك المصرية ، فتم ذلك في ذات العام ١٢٦٨ باستبدال ابنه هذا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر من قادة المماليك ، الذين كانوا قد وقعوا في أسر المغول عند استيلائهم على حلب في عام ١٢٦٠ ، وقد أتى به من سمرقند ، بعد أن بحث طويلاً عن مكانه ، ومقابل تنازل مملكة أرمينية الصغرى عن قلاع جربسك وهنسا ، ورعبان الواقعة بشرقها لدولة المماليك المصرية .

وأخيراً ، وفي عام ١٢٦٩ ترهبين ملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول ، وتنازل عن ملكه لابنه الأمير ليفون ، بعد أن فشلت خططه الطموحة ، ولم تحقق آماله العريضة المبنية على التحالف مع المغول ، وكان أدهى ساسة وملوك أرمينية ، فقد رفع مملكة أرمينية الصغرى ، في وقت ما ، إلى المرتبة الأولى في تسيير السياسة الدولية ، ثم توفي بعدئذ في عام ١٢٧٠ .

وخلفه في ملك أرمينية الصغرى ابنه ليفون الثالث ، فأكد سياسة تحالفها مع المغول ، التي صارت لازمة لها بعد سقوط حليفتها وجارتها إمارة أنطاكية الصليبية ، وبعد أن أخذت دولة سلاجقة الروم الموالية للمغول تضعف وتنقسم وتقوم على أنقاضها إمارات تركية جديدة معادية لهم .

وكانت أول هذه الإمارات وأكبرها إمارة بني قرمان التركية ، التي نشأت غرب مملكة أرمينية الصغرى في بلدة لارندة في عام ١٢٥٦ ثم تركزت في قونية .. وفي عهد ملك أرمينية الصغرى ليون الثالث شن المغول غارات جديدة على الشام في عام ١٢٧١ ، وفي عام ١٢٧٢ ، فكان رد السلطان الظاهر بيبرس عليها أن قاد بنفسه في عام ١٢٧٥ حملة ثانية ضد حليفهم مملكة أرمينية الصغرى ، فخرّب مدنها وعاصمتها سيس ، ثم شن في عام ١٢٧٧ حملة ثالثة ضد حليفهم الأخرى سلطنة سلاجقة الروم ، ودخل عاصمتها قيصرية ، ولكنه عاد وانسحب منها لما اتجهت إليه القوات المغولية ، وبعدئذ وفي عام ١٢٧٨ عرض الإيلخان أبغاخان المغولي حاكم الدولة المغولية بإيران والعراق على هذا الملك أن يقمه سلطاناً على هذه السلطنة إضافة لمملكته ، ولكن ذلك لم يتم .

وفي عام ١٢٨٠ ثم في عام ١٢٨١ ، وفي عهد سلطان مصر والشام المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون ، وهو القائد السابق الذي ولي الحكم عليهما ، وجه الإيلخان أبغاخان المغولي حملة استطلاعية ، ثم ثاني الحملات المغولية الكبرى لفتح الشام بقيادة أخيه القائد منكوتيمور المغولي ، وكان قرابة ثلثها من الجنود الأرمن والكرج بقيادة ملكهم ليفون الثالث ، وديميتري الثاني البجراطي ، ومن الجنود الصليبيين ، وسارت هذه الحملة جنوباً حتى التقت بقوات المماليك عند حمص واستطاعت ميمنة الحملة المغولية المكونة من الأرمن والكرج كسر ميسرة المماليك المواجهة لها . ولكن قائدها منكوتيمور

المغولي أصيب في القتال فانهار قلبها الذي كان يقوده ، وانتهت المعركة بانزهاهما وانسحابها من الشام ، فخلا الجو للسلطان المنصور قلاوون ، وتمكن أن يسترد من الصليبيين اللاذقية في عام ١٢٨٧ ، وطرابلس في عام ١٢٨٩ . فلم يبقَ لهم بكل الشام إلا عكا التي اعتزم فتحها أيضاً ، فلم يتيسر له ذلك لوفاته في عام ١٢٩٠ ، ففتحتها في عام ١٢٩١ ابنه وخلفه السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون وبذلك تم تطهير الشام من الصليبيين وتصفية إماراتهم ، وكل آثار الحروب الصليبية في الشرق الأوسط . وكان ذلك بعد وفاة ملك أرمينية الصغرى ليغون الثالث في عام ١٢٨٩ .

وخلفه في حكم أرمينية الصغرى ابنه هيثوم الثاني الذي كان زاهداً ، وكل همه التقرب من البابا زعيم المسيحية الغربية ، ولهذا فإنه في عام ١٢٩٣ تنازل عن ملكها لأخيه التالي طوروس الثالث ، غير أنه في عام ١٢٩٦ خرج عليهما أخوهما الثالث الملك سيباط الأول ، واستولى على الملك ، وعزل أخاه طوروس الثالث وقتله . وفي عام ١٢٩٨ خرج على هذا الخارج الأخ الرابع الملك قسطنطين الثاني ، واستولى على الملك وعزل أخاه المذكور ، إلا أن الأرمن خرجوا على هذا الخارج الثاني ، وأعادوا في عام ١٢٩٩ إلى ملكهم الملك هيثوم الثاني الأسبق . وقد ظل فيه حتى عام ١٣٠٥ ، حين تنازل عنه نهائياً إلى الملك التالي لأرمينية الصغرى ليغون الرابع وهو ابن أخي ملكها الأسبق طوروس الثالث ، وتدل هذه التقلبات على اضطراب أحوال مملكة أرمينية الصغرى في عهد ملوكها هؤلاء .

هذا وفي عهدهم انتقل مقر جاثليق الكنيسة الأرمنية الوطنية الأرثوذكسية من قلعة الروم من أملاكهم الواقعة قرب رعبان على نهر الفرات عام ١٢٩٣ إلى سبيس عاصمة مملكة أرمينية الصغرى وبقي فيها حتى بعد سقوط هذه المملكة في عام ١٣٧٥ وحتى عام ١٤٤١ ، حين انتقل للمرة الأخيرة إلى اتشمياترين حيث بقي فيها حتى الآن .

كما يجدر بالذكر عن هؤلاء الملوك أن الملك هيثوم الثاني كتب قصيدة شعرية تاريخية سجل فيها أحداث عصره .

وانتهى أمر ملك أرمينية الصغرى ليغون الرابع وعمه ملكها السابق هيثوم الثاني بأن قتلتهما الأمير المغولي بلرغوا أو برلغى سغير الايلخان المغولي أو لجايخوخان عام

١٣٠٧ . لرفضهما إقامة مسجد بسبيس وشكواهما ضده في ذلك لهذا الايلخان المغولي .

كما أنه في أواخر عهد ملك أرمينية الصغرى ليغون الرابع انعقد في يوم ١٩ آذار عام ١٣٠٧ في سبيس مجمع ديني أرمني أرثوذكسي هو مجمعها الأول للنظر في ضم الكنيسة الأرمنية الوطنية الأرثوذكسية إلى كنيسة روما الكاثوليكية ، ولم يتم ذلك لمعارضة مطارنة أرمينية الكبرى ، كما أنه لم يسفر عن ذلك أيضاً مثل هذا المجمع ، المنعقد في ٢٦ آب عام ١٣٤٣ في سبيس كذلك ، وهو مجمعها الثاني .

وخلف ملك أرمينية الصغرى أوشين الأول وهو خامس الأخوة الأربع ملوكها المشار إليهم ، خلف في ملكها ابن أخيه ليغون الرابع .. فلم يجد صديقاً ولا حليفاً ، بعد أن استقر الإسلام في الدولة الايلخانية المغولية بایران والعراق إلا في الدول الأوروبية الغربية وممثلتها الباقية في الشرق وهي مملكة قبرص ... فتحالف معها وتزوج ابنة ملكها هنري الثاني لوزجنان أو لوسينان ... وفي عهد هذا الملك الأرمني لم تحدث إلا بعض الغارات المملوكية المصرية على مملكته التي صارت مألوفة . واثراً وفاته في عام ١٣٢٠ خلفه ابنه القاصر ليغون الخامس ملكاً على مملكة أرمينية الصغرى ، وفي عهده استمرت هذه الغارات في عام ١٣٢٢ وفي عام ١٣٣٥ وفي عام ١٣٣٧ ، حين دمر مرتين ميناء أياس الذي كان منافساً خطيراً لميناء الاسكندرية المصري في التجارة الدولية ، وخاصة في التوابل بين أوروبا وبين الهند ، والشرق الأقصى ، والتي كانت المورد الرئيسي لمملكة أرمينية الصغرى ، ولم يسمح بإعادة بنائه بعد تدميره في عام ١٣٢٢ إلا بشرط مقاسمة تلك الدول في دخله فزالته هذه المنافسة وانقطع هذا المورد ، بل إنه بموجب المعاهدة التي فرضتها دولة المماليك المصرية على مملكة أرمينية الصغرى في عام ١٣٣٧ إثر تدمير هذا الميناء للمرة الثانية منعت من التحالف والتعامل مع الدول الأوروبية ، فصارت دولة المماليك المصرية محتكرة وحدها لهذه التجارة الدولية الراجعة حتى عام ١٤٩٨ حين اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح البحري حول افريقية إلى الهند والشرق الأقصى .

وإثر مقتل ملك أرمينية الصغرى ليغون الخامس دون ولد آلت مملكته بناء على وصيته إلى ابن أخته الأمير القبرصي جاي لوزجنان أو لوستيان الفرنسي الأصل ، لكونه من سلالة ملك القدس الصليبي ، وأقيم ملكاً عليها عام ١٣٤٢ باسم قسطنطين الثالث . غير

أن غالب الأرمن خرجوا عليه وحاربوه هو وأنصاره الموالين له والافرنج ، ومن أتى من هؤلاء لتأييده فغلبوه وقتلوه ونصبوا مكانه ملكاً لأرمينية الصغرى هو الملك قسطنطين الرابع عام ١٣٤٤ . من أحفاد الكند سبطيل الأرمني سباط أخو ملكها الأسبق هيثوم الأول ، فكان صعباً عليه بعدئذ التعاون مع الدول الأوروبية وخاصة مع مملكة قبرص ، وفي عهده استولت دولة المماليك المصرية في الولايتين الأولى ثم الثانية لسلطانها الملك الناصر ناصر الدين حسن بن محمد قلاوون على ميناء أياس ثم على مدن المصيصة ، وأضنة ، وطرشوس في عام ١٣٥٩ ، وضممتها جميعاً نهائياً إلى أملاكها . ولما عجز ملك أرمينية الصغرى المذكور قسطنطين الرابع عن مناهضتها وعن مناهضة الدول التركية الناشئة بالأناضول بجوار مملكته ترك أمر ذلك لمملكة قبرص ..

وتنازل في عام ١٣٦٠ لملكها بطرس الأول لوزجنان عن جزيرة قاريقوس الصغيرة المملوكة له والواقعة قرب مصب نهر سالف في البحر المتوسط ..

وفي عام ١٣٦٥ خلفه ملك أرمينية الصغرى الملك قسطنطين الخامس ابن عمه بناء على اختيار الأمراء الأرمن الذين استحكم النزاع بينهم فنأدى بعضهم ملكاً عليها أيضاً في عام ١٣٦٨ ببطرس الأول لوزجنان ملك قبرص سالف الذكر . كما أنه في هذا العام شنت دولة المماليك المصرية في عهد سلطانها الملك الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني بن صالح قلاوون غارة على مملكة أرمينية الصغرى لمعاقبها على تواطئها مع مملكة قبرص في الحملات والغارات البحرية سابقة الذكر ، فخربت قواتها سبب عاصمتها ، ثم عادت منها . وبعد مقتل الملك قسطنطين الخامس في عام ١٣٧٣ لم تستطع زوجته الملكة مريم أن تخلفه ، ولم يجد الأمراء الأرمن بداً من إعادة حكم مملكتهم هذه إلى الوارث الشرعي لملكها الأسبق جاي لوزجنان (قسطنطين الثالث) ، وقريب الملك القبرصي بطرس الثاني لوزجنان سالف الذكر .. وهو الملك ليغون السادس لوزجنان آخر ملوك مملكة أرمينية الصغرى ، ووصل هذا الملك الجديد بصعوبة إليها لأنها كانت قد تقلصت وصارت قاصرة على عاصمتها سبب وعين زربة المجاورة لها ، الواقعتين على نهر جيحجان في داخل إقليم قليقية بعيداً عن ساحل البحر المتوسط .

وفي عام ١٣٧٥ شنت دولة المماليك المصرية في عهد سلطانها المذكور حملتها

الأخيرة على أرمينية الصغرى وقادها نائبها في حلب الأمير أشقتمر المارديني ، ففتح عين زربة ثم سبب وقلعتها بعد حصار دام شهرين ضربهما خلاله بالمنجنيق الذي نصبه الخير به المعلم خليل العيتابي ، وذلك في يوم ١٣ نيسان عام ١٣٧٥ ، وضم هذه المملكة نهائياً إلى أملاك دولته . وأقام نائباً عنها لحكم اقليمها ، وهو إقليم قليقية ، الأمير يعقوب شاه ومن بعده في عام ١٣٧٨ الأمير رمضان مؤسس الدولة الرضائية بهذا الاقليم واقتيد آخر ملوك أرمينية الصغرى ليغون السادس لوزجنان أسيراً إلى القاهرة ، وبقي بها في الأسر سبعة أعوام حتى عام ١٣٨٢ حين اقتاده بمساعي مرافقه القس الفرنسي جان داريل ، الملك بطرس الرابع ملك أراجون باسبانيا ، فذهب إلى باريس وأقام فيها حتى توفي دون ولد عام ١٣٩٣ .

وورثه بالقراية الملك جيمس الأول لوزجنان ملك قبرص فصار ملوك قبرص من آل لوزجنان الفرنسي الأصل يحملون ألقاب ملوك القدس وقبرص وأرمينية لأنهم من سلالة ملوك القدس قبل أن يؤول إليهم ملك قبرص بالشراء منذ عام ١١٩٢ ، وإن كان حملهم لقي ملك القدس وملك أرمينية صار نظرياً بحثاً بعد سقوط هاتين المملكتين في عام ١١٨٧ ، وعام ١٣٧٥ .

وبعد انقراض سلالة آل لوزجنان في عام ١٤٨٩ آلت هذه الألقاب إلى سلالة آل سافوي الفرنسية الإيطالية حكام سافوي وبيدموت ، ثم ملوك سردينيا ، ثم ملوك إيطاليا كلها .

لقد كان عصر مملكة أرمينية الصغرى هو العصر الفضي للأدب الأرمني ، وكان له مراكز نشاط بالأديرة وأهمها دير « قلعة الروم » مقر جاثليق الكنيسة الأرمنية الوطنية الأرثوذكسية ، في المدة من عام ١١٥٠ حتى عام ١٢٩٢ ، والواقع على نهر الفرات على الحدود الشمالية الشرقية لهذه المملكة (ودير طاطيف ، ودير جلاذور بأرمينية الكبرى) .

وقد كتب بأرمينية الصغرى ذاتها المؤرخ الأرمني بهرام الرويني الرهاوي تاريخاً لآل روين حكامها الأولين ، وكتب معاصره الأمير الأرمني الكند سبطيل سمباط الهيثومي المتوفى عام ١٢٧٧ سابق الذكر تاريخاً لأرمينية الصغرى وترجم من اللغة اللاتينية إلى اللغة

الأرمنية قوانين إمارة أنطاكية للعمل بها في أرمنية الصغرى ، وكتب الجاثليق الأرمني نرسيس الرابع شنوراهالي أي الموهوب المتوفى في عام ١١٧٣ ، قصيدة طويلة عن حياة المسيح ، وأخرى طويلة عن سقوط إمارة الرها الأرمنية الصليبية المختلطة ، في عام ١١٤٤ وألحاناً موسيقية ، وكتب قريبه المطران الأرمني نرسيس لمبروناتسي المتوفى عام ١١٩٨ مؤلفات دينية كثيرة وألحاناً موسيقية كما أنه ساهم أكبر مساهمة في تطبع مملكة أرمنية الصغرى إلى حد كبير بالطابع اللاتيني ، وفي دخولها المجتمع الدولي الأوروبي الغربي (وهما ما تميزت بهما) . فقد كان أنشط من شارك في تقريبها من هذا المجتمع دينياً في مجمعي قلعة الروم وطرسوس الدينيين الأرمنيين المنعقدتين في عام ١١٨٠ ، وفي عام ١١٩٦ والسالف ذكرهما . كما أنه فاوض الامبراطور الألماني فردريك الأول ببروسا بشأن دخولها في هذا المجتمع في عام ١١٩٠ على ما سبق بيانه ، وكتب ورتان المرغشي قصصه الخرافية المعروفة في حوالي عام ١٢٢٠ .

وفي أرمنية وفي هذا العصر الذي يمتد طوال القرون الثاني ، والثالث ، والرابع عشر ، ازدهر دير جلاذور ، وصار جامعة ثقافية هامة ورأسه الراهب عيسى النشاطي .

وكان من مظاهر النشاط الثقافي أن كتب الفقيه والمشرع الأرمني الأشهر مخيطار غوش المتوفى عام ١٢١٣ ، مؤلفاته القانونية (القوانين الأرمنية) وقصصه الخرافية ، وكتب القس الأرمني متى الرهاوي تاريخاً عاماً حتى حوادث عام ١١٣٨ ، وأكمل القس الأرمني كريكور القيسوني حتى حوادث عام ١١٦٨ ، وكتب كل من المؤرخين الأرمن صموئيل الآني ومخيطار الآني ، وورطان الأكبر تاريخاً عاماً حتى حوادث عام ١١٨٠ ، وإلى آخر القرن الثاني عشر ، وترجم المؤرخ الأرمني أكسوكس من اللغة السوربانية إلى اللغة الأرمنية التاريخ العام لميخائيل السورباني المتوفى في عام ١١٩٩ ، وأكملته حتى حوادث عام ١٢٤٨ .

وكتب الطبيب الأرمني مخيطار هراتسي في عام ١١٨٤ ، كتاب (الشفاء من الحميات) ، وكتب الشاعر الشعبي الأرمني فريك المتوفى في حوالي عام ١٣١٥ أشعاراً تفيض بالحماس والحنين إلى الوطن منها « كرونك » أي الكركي أو الغرنوق المعروفة . وكتب القس والشاعر الأرمني أراكيل السيوني « قصيدة آدم » عن الفردوس أي الجنة في

عام ١٤٠٧ ، وكتب الفيلسوف والرسام الأرمني غريغور الطاطيفشي المتوفى عام ١٤١١ كتاب (الأسئلة) وهو بمثابة دائرة معارف في الدين والفلسفة والعلوم . وكان آخر الأدباء الأرمن في العصور الوسطى الشاعر الشعبي الأرمني ناهابد كوشاك المتوفى حوالي عام ١٥٩٢ .

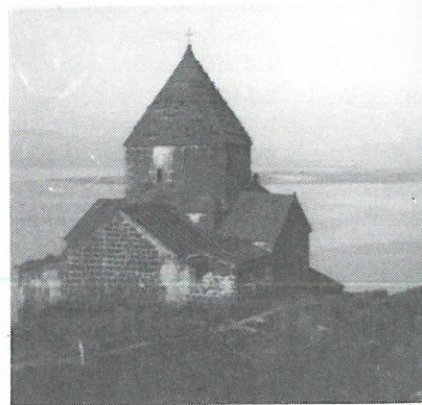
وظهر في أرمنية الصغرى في هذا العصر الرسام الشعبي الأرمني المشهور طوروس روسلين الذي زين بالصور كثيراً من الكتب الأرمنية ، وكان آخر رواد مدرسة الرسامين الأرمن في العصور الوسطى هما راستاكس وهاغوب النشوغاشي .

وتحفل مكتبة « ماتندران » في يريغان بالعديد من المخطوطات الأرمنية القديمة التي يبلغ عددها قرابة ثلاثة عشر ألف ، وأهمها وأقدمها ، هو انجيل « اتشمياتزين » ، الذي نسخ وصور عام ٩٨٩ في دير « نورافتك » ، ويليه في الأهمية « انجيل ملكة البسفرجان » ، وهو محفوظ حالياً في مكتبة الرهينة المخيطارية في مدينة البندقية الإيطالية ، والتي تحفل هي الأخرى بحوالي أربعة آلاف مخطوط ، وتحوي مثل هذا العدد أيضاً مكتبة دير مار يعقوب مقر البطريركية الأرمنية الأرثوذكسية في مدينة القدس .

وفي الختام يجدر بالذكر كتاب « مواعظ موش » المنقطع النظير كونه محرر على الجلد ووزنه ٣٢ كغ ، وهو من كنوز مكتبة « يريغان » .



إتشميازين



كنائس من عمر التاريخ



الكتاب المقدس باللغة الأرمنية

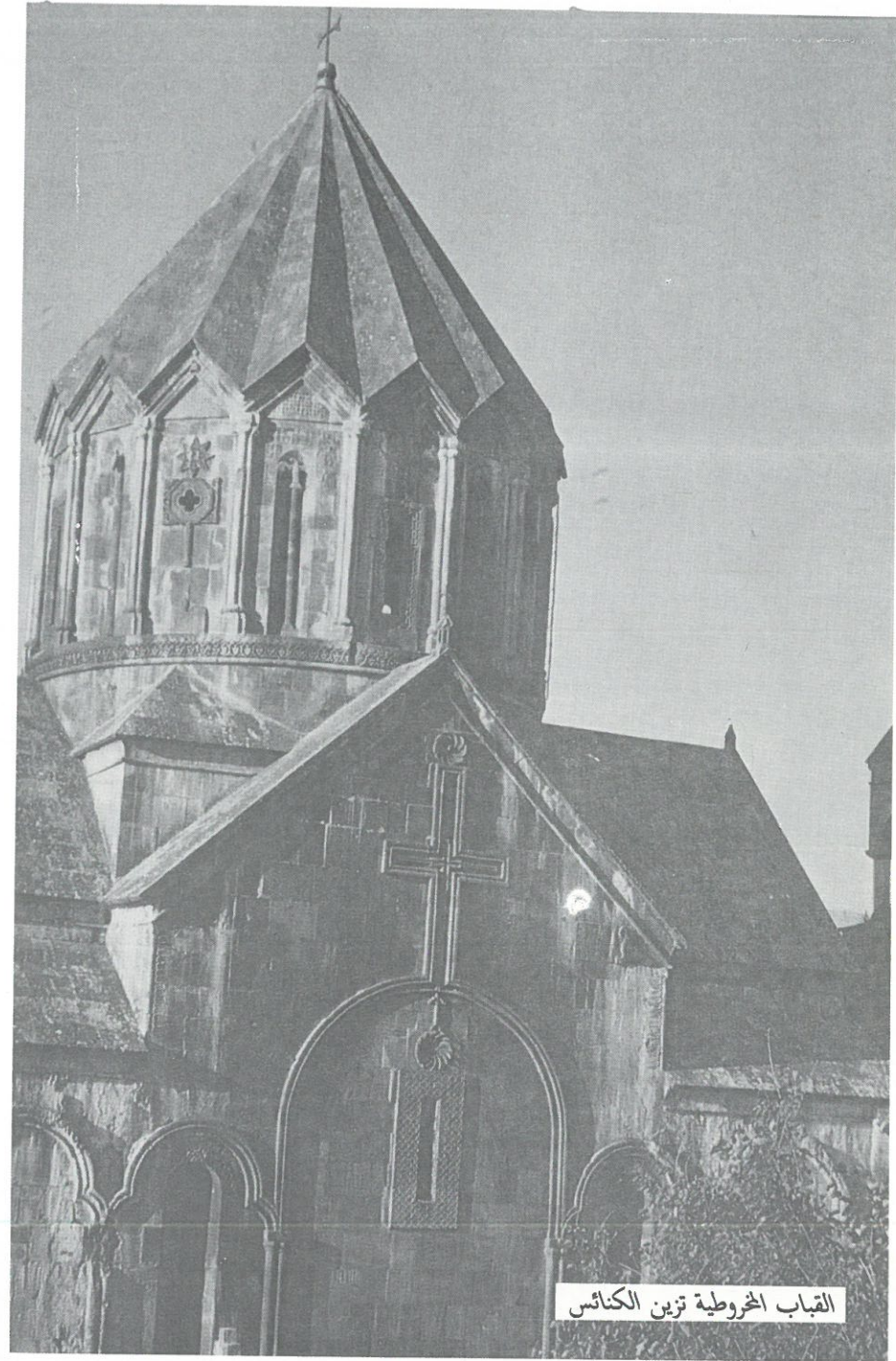


الفصل السابع

الفتح العثماني

خلفت معركة « ملاذكرد » الحاسمة والتي وقعت في عام ١٠٧١ أثراً هاماً في تاريخ الشرق الأوسط ، حيث مثلت أول انتصار للأتراك على الروم ، وأدت إلى فتحهم آسيا الصغرى ، وكنتيجة مباشرة لهذه المعركة أصبحت أرمينية الكبرى جزءاً من الدولة السلجوقية الكبرى ، ثم من الدول التي تفرعت عنها .

ومنذ عام ١٢٣٩ انتقلت أرمينية الكبرى إلى أملاك المغول ، ثم أصبحت جزءاً من الدولة الايلخانية ، كبرى دول الشرق الأوسط التي تركزت في إيران والعراق .. وذلك منذ عام ١٢٥٦ وحتى عام ١٣٣٦ . وفي عام ١٣٨٦ اقتحم السلطان تيمورلنك في حملاته نحو الغرب أذربيجان وجورجيا وأرمينية الكبرى ، ودمر مدينة « وان » وقتل ثلاثة آلاف من سكانها غالبهم من الأرمن ، ثم قصد مدينة سيواس واستولى عليها وقتل نحو ثلاثة آلاف أيضاً من الفرسان الأرمن المدافعين عنها .. حيث كانوا في خدمة الدولة العثمانية ..



القباب المخروطية تزين الكنائس

وفي عام ١٤٦٨ آلت أرمينية الكبرى للدولة الأقالونية التركمانية إلى أن تمكن الشاه اسماعيل الأول الصفوي عام ١٥٠٢ من الاستيلاء على تبريز وبغداد عاصمتي الدولة الأقالونية ، فأصبحت أرمينية الكبرى بحوزته ، وبقيت حتى عام ١٥١٤ حين آل الجزء الغربي إلى الدولة العثمانية .

ففي هذا العام تمكن العثمانيون أي في عهد السلطان العثماني سليم الأول من فتح ذلك الجزء من أرمينية الكبرى .. إضافة إلى فتحهم أرمينية الصغرى والشام ، ومصر ، ثم الحجاز .

وقضوا تماماً على دولة المماليك المصرية التي كانت تحكم هذه الأقطار ، وفي عهد السلطان العثماني سليم الأول الملقب بالقانوني بلغت الدولة العثمانية أوجها حيث أكملت فتوحاتها ، وأصبحت إلى جانب وراثتها لدولة الروم البيزنطية وريثة لدولة الخلافة العربية الإسلامية .

والجدير بالذكر أنه في عهدي السلطانين العثمانيين سليم الأول ، وسليمان الثاني ، كان المهندس المعماري الأرمني العثماني الأشهر سنان كلفيان الملقب بسنان معمر وميكيل أنجلو الشرق ، يمارس نشاطه المعماري في القسطنطينية ، وغيرها من المدن العثمانية ، حيث أشاد مائتين وخمسين ألف مسجداً وقصراً ومنشأة من روائع الفن ، ومن أهمها مسجد السلمانية المشهور في مدينة القسطنطينية .

وكانت الحروب بين الدولة الصفوية والعثمانية تدور بأراضيها المتجاورة الشاملة أرمينية الكبرى كلها شرقية وغربية ، مخربة لها وسجلاً دون أن تنال إحداها النصر الحاسم ، وقد استؤنفت في عام ١٥٣٤ في عهد السلطان العثماني سليمان الأول القانوني ، ومعاصره الشاه الفارسي طهماز سب الأول الصفوي ، وانتهت باستيلاء العثمانيين على مدينة وان الأرمينية ، ثم استيلائهم على مدينة تبريز الإيرانية ، ثم على مدينة بغداد وكل العراق ، وفي عام ١٥٣٨ استولى العثمانيون مرة ثانية على مدينة تبريز ، ثم في عام ١٥٣٨ استولوا عليها مرة ثالثة .. كما استولوا منذ هذا العام وحتى عام ١٥٥٤ على المدينة الأرمينية وان مرة ثانية ثم يريفان ، وناخشيفان ، فضموا كل أرمينية الكبرى .

وانتهت هذه الحرب المتقطعة ، وهي العثمانية الفارسية الثانية ، بعقد أول معاهدة للصلح بين الدولتين العثمانية والفارسية ، وهي معاهدة صلح أماسيا المؤرخة في ٢٩ أيار عام ١٥٥٥ ، وقد تركت للدولة العثمانية كردستان ، كما ضمت إليها العراق وأقاليم هذه المدن الأرمينية الكائنة غرب وشرق نهر الرس .

وفي عام ١٥٧٨ — أي في عهد السلطان العثماني مراد الثالث المعاصر لحكم الشاهين الفارسي اسماعيل الثاني الصفوي ، ومحمد خدا بنده الصفوي — نقض العثمانيون معاهدة الصلح المذكورة ، واستولوا على جورجيا بما فيها عاصمتها تفليس ، ثم على داغستان بما فيها عاصمتها دربند اللتين كانتا تحت السيادة الفارسية ، فشن الفرس في عام ١٥٨٥ حملة لاستردادها ، واسترداد جميع أملاكهم ، التي فقدوها من قبل ، وعبروا نهر الرس وأغاروا على يريغان عاصمة أرمينية الشرقية ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، بل استولى العثمانيون في هذا العام على تبريز ، فشن الفرس حملة ثانية في عام ١٥٨٧ على بغداد ، ولكنها صدت عنها ، واستطاع العثمانيون الاستيلاء على إقليم قره باغ الأرميني والأذربيجاني في عام ١٥٨٨ . وانتهت هذه الحرب وهي العثمانية الفارسية الثالثة بإبرام معاهدة صلح استنبول الأولى في ٢١ آذار عام ١٥٩٠ بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، وبموجبها تنازلت الأولى للثانية على كل إقليم ما وراء القوقاز ، بل وعن أذربيجان الفارسية بما فيها تبريز أيضاً .

وفي عام ١٦٠٣ في عهد الشاه الفارسي عباس الأول الأكبر ، شن الفرس بعد تقوية دولتهم وضعف الدولة العثمانية حملة جديدة لاسترداد تبريز وسائر أملاكهم المفقودة ، وتمكنوا في هذه المرة من استرداد تبريز ، وكذلك يريغان ، وقارس ، ووآن بأرمينية الشرقية والغربية في ذلك العام ، وفي عام ١٦٠٤ ، كما أنه في هذا العام الأخير دارت معركة كبرى قرب بحيرة أرمينية انتصر فيها الفرس على العثمانيين ، واستولوا نتيجة لذلك على كل أذربيجان وجورجيا ، وداغستان ، وكردستان ، والعراق .

وانتهت هذه الحرب ، وهي الحرب العثمانية الفارسية الرابعة ، بعقد معاهدة صلح استنبول الثانية في يوم ٢٠ تشرين الثاني عام ١٦١٢ بين الدولتين العثمانية والفارسية ، تضمنت تحلي الأولى عن داغستان (التي كانت القوات الروسية قد وصلت إليها في عام

١٥٩٤ وفي عام ١٦٠٤ ، وتعاون معها بعض حكامها ثم انسحب منها) ، وكذلك العودة إلى حدودها حسبما كانت عليه في عهد السلطان العثماني سليم الأول ، الأمر الذي كان معناه تخلي الدولة العثمانية عن فتوحها بعد عهده في العراق وكردستان وفي أرمينية الشرقية وفي أذربيجان وجورجيا ، ولكن العثمانيون استأنفوا الحرب ، وهي الحرب العثمانية الفارسية الخامسة في عام ١٦١٦ وحاولوا الاستيلاء على يريغان وتبريز ، فلم يوفقوا ، ولكنهم وفقوا في إبرام معاهدة صلح جديدة بين الدولتين هي معاهدة صلح سراب في يوم ٢٦ آب عام ١٦١٨ وقد عدلت لصالحهم معاهدة الصلح السابقة عليها . إذ تضمنت تركهم للفرس أرمينية الشرقية بما فيها عاصمتها يريغان وناخشيفان .

وترتب على هذه الحملات الأخيرة التي استمرت من عام ١٦٠٣ حتى عام ١٦١٨ أمران هامان يخصان أرمينية ، الأول هو تهجير الشاه الفارسي عباس الأول الأكبر الصفوي قرابة الخمسين ألف أرمني من أرمينية الشرقية ، وخاصة من جولفا إلى عاصمتها أصفهان ، حيث بنوا حياً لهم هو حي جولفا الجديدة ، الذي لم يزل موجوداً للآن . وساهموا بخبراتهم ومهاراتهم في تحديد الحياة السياسية والاجتماعية والتجارة والصناعات ، وخاصة صناعة السجاد العجمي في كل إيران .. كما هاجر بعضهم منها إلى الهند ، حيث كونوا مع من هاجر إليها قبلهم من الأرمن جالية نشيطة شاركت في النهضة الفكرية الأرمينية في القرن الثامن عشر ، والأمر الثاني ، وهو الأهم ، هو تقسيم أرمينية إلى قسمين شرقي وغربي بين الدولتين الفارسية الصفوية والتركية العثمانية ، ودخول أرمينية الشرقية التي كانت تمتد على الضفتين الشرقية والغربية للمجرى الأوسط لنهر الرس ، وتضم مدن يريغان وجنزة وناخشيفان التاريخية واتشميأتزين المقدسة مقر جاثلين الكنيسة الأرمينية الرسولية ، أو الأرثوذكسية الوطنية ، وجبل أراارات رمزهم في نطاق دولة إيران الحديثة ، ثم فيما بعد في عام ١٨٢٨ في نطاق الدولة القيصرية الروسية ، على أنه يجدر بالذكر أن الأرمن لم يكن لهم دور هام في النزاع الذي دار بين الدولتين العثمانية والفارسية على تملك بلادهم وخرابها ، ثم أدى إلى اقتسامها بينهما في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وذلك لضعف شأنهم ، وعدم وجود دولة لهم في ذلك الزمان ، وأنهم والكرج والأذربيجانيين كانوا مؤيدين للفرس لكي يخلصوهم من وطأة الحكم العثماني .

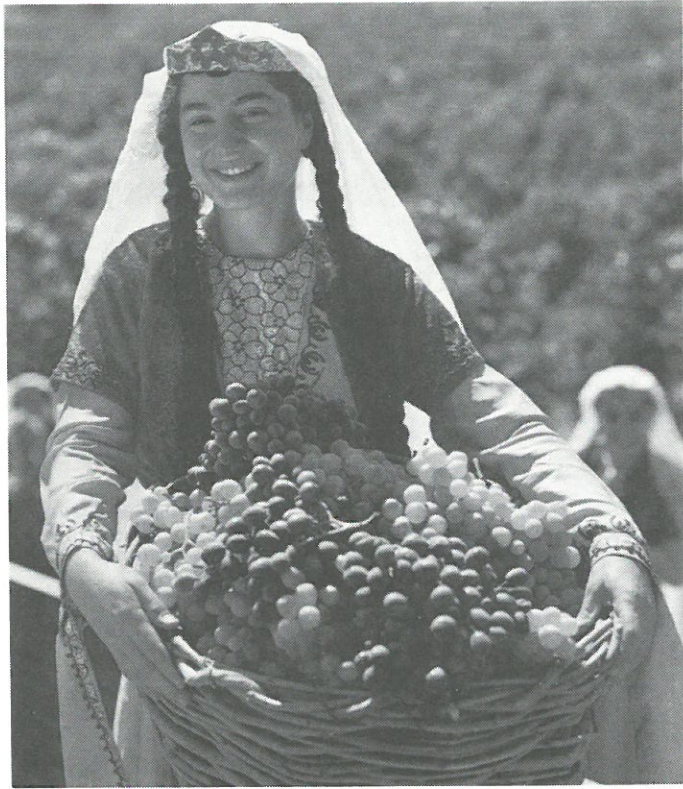
وفي عام ١٦٣٠ أي في عهد السلطان العثماني مراد الرابع ، ومعاصره الشاه الفارسي صفي الأول الصفوي ، استؤنفت الحرب من جديد بين العثمانيين والفرس ، وهي السادسة بينهم . وقد بدأها العثمانيون بالاستيلاء على مدينة همدان بغرب إيران فرد عليهم الفرس بالاستيلاء على بغداد عاصمة العراق في العام نفسه ، وفي عام ١٦٣٥ شن السلطان العثماني مراد الرابع حملة للاستيلاء على يريغان وتبريز ، فاستولى عليهما . ولكن الفرس استردوها في العام التالي ، وفي عام ١٦٣٨ قاد السلطان مراد الرابع بنفسه حملة لاستعادة بغداد ففتحها ، وإثر ذلك تم في يوم ٧ أيار عام ١٦٣٩ عقد معاهدة صلح ذهاب المشهورة بين الدولتين العثمانية والفارسية ، وقد تضمنت العودة إلى الحال قبل عام ١٦٣٠ ، أي بقاء العراق وكردستان للعثمانيين ، وبقاء أذربيجان كلها وأرمينية الشرقية بما فيها عاصمتها يريغان وجورجيا للفرس .

وقد استمر الحال على ذلك حتى عام ١٧٢٤ ، حين استولى العثمانيون مؤقتاً على هذه الأقاليم من الفرس الذين عادوا واستردوها في عام ١٧٣٥ ، وقد سجل الحروب الفارسية العثمانية منذ عام ١٦٠٣ ، والأحداث التالية لها حتى عام ١٦٦١ — من وجهة النظر الأرمينية — في تاريخه المؤرخ الأرمني المعاصر لها أراكيل التبريزي ، الذي عاش في القرن السابع عشر ، كما أنه في العهد الفارسي بأرمينية الشرقية نشأت في إقليم قره باغ الجبلي الأرمني خمس إمارات أرمينية صغيرة حمل حكامها الأرمن لقب « ملك » وتمتعوا بالاستقلال الذاتي تحت السيادة الفارسية . وكانت هذه الإمارات هي : جلستان — تشرابرت — خاتشن — فرنده — تيزاك . وتحكمها أسر الملوك : بجلاريان — إسرائيليان — حسن جلاليان — شاه نزاریان — إفانيان . ثم تمتعوا باستقلال حقيقي في المدة من ١٧٢٢ حتى عام ١٧٣٠ ، تحت زعامة داود بك القرباغي المتوفى عام ١٧٢٨ أثناء الحرب العثمانية الفارسية السابعة .

في تلك الأثناء كانت الدولة الروسية القيصرية تقوى وتتجه في توسعها جنوباً نحو القرم ، وأقليم ما وراء القوقاز ، وغرباً نحو بولونيا والبلقان ، فاصطدمت بالدولة العثمانية وأخذتا تتنافسان تنافساً شمل اقتسام الأملاك الفارسية في اقليمي القوقاز وما ورائه ، بل في إيران ذاتها . وذلك منذ عام ١٦٧٦ ، ثم احتدم التصادم والتنافس في عهد القيصر بطرس

الأكبر مجدد روسيا القيصرية ، حينما حاولت الدولة العثمانية السيطرة على اقليمي داغستان وشروان الايرانيين في عام ١٧٢١ ، فبدأ الروس عام ١٧٢٢ ، بالزحف على الساحل الغربي لبحر قزوين جنوباً نحو هذين الاقليمين ، بقيادة قيصرهم بطرس الأكبر شخصياً ، وذلك بعد أن استطاعت أحوال إيران بعثتان روسيتان أرسلهما إليها في عام ١٧٠٨ برئاسة المفكر الأرمني إسراييل أورى ، ثم في عام ١٧١٥ ، برئاسة المفكر الروسي أرتيمي فولونسكي .

كما أن القيصر بطرس الأكبر أرسل حال قدومه إلى اقليم القوقاز مبعوثه ايفان كاراباتيان من الأرمن المستوطنين في روسيا للحصول على مساندة من الأرمن . ونالت إمارتهم الخامسة بإقليم قره باغ الجبلي الأرمني ، بقيادة زعيمهم داود بك القرباغي سالف الذكر في عام ١٧٢٢ استقلالها الحقيقي ، الذي دام حتى عام ١٧٣٠ ، حين قضت الدولة العثمانية على هذه الإمارات الخمسة أثناء حملتها ضد الفرس .



الأرض ... مواسم خير وعطاء

الفصل الثامن

الأزمن في الدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية منذ نشأتها متعددة القوميات والأديان ، ولكنها كانت لا تعترف بالقوميات المتعددة لرعاياها ، ولا تميز بينهم على أساسها ، إنما كانت — لأن الإسلام دينها الرسمي — تلتزم نظرياً أحكام الشريعة الإسلامية في معاملة رعاياها غير المسلمين باعتبارهم مسيحيين ويهود أي « ذميين » من « أهل الكتاب » وقوام هذه الأحكام هو الاعتراف بدياناتهم وحرية اعتناقهم لها وممارستهم لعباداتهم وحماية أشخاصهم وأعراضهم وأموالهم مقابل أداء الجزية ، فالدولة العثمانية إذاً كانت تميز بين رعاياها على أساس الدين فقط ، وهو ما أكدته بإقامتها لغير المسلمين منهم نظام « الملل » الذي اعترفت بموجبه لهم بكيانات دينية لها رئاساتها التي أناطت بها تنظيم شؤونهم وضمنها الفصل في قضايا أحوالهم الشخصية والمدنية ، وقد أدى هذا النظام إلى تمتعهم في واقع الأمر باستقلال ذاتي محدود حفظ كياناتهم ، وإلى صيرورة قسمهم زعماء يسعون إلى

السلطة والنفوذ ، الأمر الذي انحرف ببعضهم عن مهامهم الدينية ، وجعلهم موالين للدولة العثمانية ، رغم أنها عملياً كانت دائماً تشعر رعاياها من غير المسلمين أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، وتحرم عليهم حمل السلاح ، ولا تقبل شهادتهم أمام المحاكم ، وتلزيمهم بأداء الجزية .

وقد بدأت الدولة العثمانية في تنفيذ نظام « الملل » رسمياً في عام ١٤٥٤ إذ طلب السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح من قسس الكنيسة الرومية الأرثوذكسية التي كانت الكنيسة الرسمية لهذه الدولة المنقرضة انتخاب بطريك جديد ليرأس « ملة » الروم ، التي اعتبرها شاملة لكل من يعتنق الديانة المسيحية الرومية الأرثوذكسية في البلاد التي استولت عليها دولته العثمانية .

فانتخب هؤلاء القسس الراهب « جناديوس » بطريكاً جديداً لكنيستهم ، وأقر السلطان العثماني انتخابه ، وخصه بكنيسة في حي الفنار وعهد إليه بجمع الضرائب من أهل ملته ، وتنظيم شؤونهم ، وجعله في مصاف كبار علماء الدين المسلمين بدولته .

وفي عام ١٤٦١ اعترف السلطان محمد الثاني الفاتح بملتي اليهود ، والأرمن الأرثوذكس ، وأقام لهما رئيسين دينيين هما : الحاخام اليهودي موسى كراسل ، الذي عينه حاخام باش لليهود . والمطران الأرمني الأرثوذكسي لمدينة بروسة بالأناضول الغربي هواكيم الذي عينه بطريكاً للأرمن الأرثوذكس . وجعلهما كذلك في مصاف كبار علماء المسلمين بدولته ، وظلت الدولة العثمانية لمدة أربعة قرون لا تعترف رسمياً إلا بهذه الملل الثلاثة لرعاياها غير المسلمين ، وصارت لرؤسائها سلطات واسعة على أتباعهم لا في الشؤون الدينية فحسب ، بل وفي الشؤون الدنيوية أيضاً . على أنه منذ عام ١٦٠٤ انفصل بعض الأرمن الأرثوذكس ومنهم رئيس كنيستهم أي جاثليقهم الأكبر في اتشمياتزين عن تبعة الدولة العثمانية .

ثم اختلف الأمر عام ١٨٢٨ حين استولت الدولة الروسية القيصرية التي كانت تدين رسمياً بالديانة المسيحية على المذهب الرومي الأرثوذكسي ، وتعتبر نفسها وارثة دولة الروم البيزنطية ، بل وروما الثالثة وحامية كل المسيحيين الشرقيين وضمنهم الأرمن ،

وتسعى متسلحة بكل ذلك ، للقضاء على الدولة العثمانية — حينما استولت الدولة الروسية القيصرية من الدولة الفارسية على هذين الاقليمين ، ومن الدولة العثمانية على بعض الأراضي الأرمنية المجاورة لهما — فإنها أخذت تستقطب لجانبها كل الأرمن الأرثوذكس في كل الدولة العثمانية بصفتهم من المسيحيين الشرقيين ، رغم اختلافهم مذهباً عنها للعمل ضد هذه الدولة الأخيرة ، واضطرتها في عام ١٨٣٣ ثم في عام ١٨٤٠ إلى الاعتراف بأن جاثليق الأرمن الأرثوذكس الأكبر المقيم باتشمياتزين التابعة لأمالك الدولة الروسية القيصرية ، هو الرئيس الديني الأعلى لكل هؤلاء الأرمن الأرثوذكس ، وهم غالبية الأرمن بالدولة العثمانية ، وتبعية بطريركهم الذي أقامته لهم في عاصمتها القسطنطينية وجاثليقهم في سويس لهذا الجاثليق الأكبر . وكان ذلك مقابل تعهد الدولة الروسية القيصرية وحدها ، ثم تعهدا وغيرها من الدول الأوروبية بمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد والي مصر الخارج عليها « محمد علي باشا » بموجب معاهدة هنكاراسكلسي المبرمة في ٨ حزيران عام ١٨٣٣ ، ثم معاهدة لندن المبرمة في يوم ٥ تموز عام ١٨٤٠ .

ولكن الدولة العثمانية كانت تضم أيضاً قليلاً من الأرمن الكاثوليك ، ومن الأرمن البروتستانت ، ولكي تبعدهم عن نفوذ الدولة الروسية القيصرية واستقطابها لكل الأرمن ، اعترفت بناء على طلب فرنسا عام ١٨٣٠ اعترافاً رسمياً بملة الأرمن الكاثوليك — ثم اعترفت بناء على طلب بريطانيا عام ١٨٤٦ اعترافاً رسمياً بملة الأرمن البروتستانت .

غير أنه منذ بداية القرن السابع عشر ، وفي بداية عهد ضعف وتدهور الدولة العثمانية الذي عرف بعهد الانحطاط ، والذي أدى في النهاية إلى نشوء « المسألة الشرقية » ارتفع شأن كبار الإغريق (الروم) والأرمن ، وزاد نفوذهم في القسطنطينية ، بصفة خاصة ، لكونهم أصحاب الملتين المسيحيتين المعترف بهما رسمياً وحدهما فيها ، ولزيادة عددهم في عاصمتها هذه ، ولاختصار النشاط فيهم دولة باقي رعاياها من مسلمين ويهود ، بل ومسيحيين من غيرهم من الملل غير المعترف بها ، فصاروا يمثلون فيها فئات المثقفين المثورين والفنيين ، والحرفيين ، والتجار ، أي الطبقة الوسطى ، إذ كان المسلمون ، وخاصة الترك من رعايا هذه الدولة ، لا يمارسون إلا أعمال الحكم والحرب والدين ، والزراعة أساساً ، وقد قيل إن الأرمن هم أصحاب القلم بهذه الدولة .

كما أن الأرمن كانوا أشد الشعوب المسيحية في الدولة العثمانية إخلاصاً في خدمتها ، فقد أطلق عليهم اسم « الملة الصادقة » ، وهو الأمر الذي كاد أن ينسى بعد أن صارت المذابح الأرمنية هي ما يذكر عن علاقة هذه الدولة بالأرمن .

ومن أشهر الأرمن الذين برزوا في خدمة الدولة العثمانية الصيدلي والطبيب المعالج لسلطانها الأرمني العثماني أمير دولة الأماصي في القرن الخامس عشر الذي ألف الكتب الكثيرة ، ومنها « في خدمة الطب » ، والمهندس المعماري سنان باشا كلفيان في القرن السادس عشر ، والمؤرخ والكتّاب الأرمني العثماني أرميا شليي قومرجيان في القرن السابع عشر ، الذي ألف كتباً في التاريخ العثماني ، والمؤرخ والكتّاب الأرمني العثماني مراد جي حسون ترجمان السفارة السويدية في القسطنطينية في أواخر القرن الثامن عشر ، ومؤلف كتاب « الجدول العام للدولة العثمانية » باللغة الفرنسية .

ومن أشهر الأرمن الذين برزوا أيضاً في خدمة الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أرتين أمير بزجيان ، مدير دار سك النقود ، والمهندس المعماري نقولاس باليان باني سراي ضوطة بخشه المعروفة ، وداود قره بيت باشا والي لبنان في المدة من عام ١٨٦١ حتى عام ١٨٦٨ ، ثم وزير الأشغال في المدة من ١٨٦٨ حتى عام ١٨٧١ ، التي أشرف أثناءها على مد خط السكة الحديدية بالرومي ، وأوروبا العثمانية ، وجبرائيل نوارادونجيان الفقيه المعروف في القانون العثماني ، وكان مستشاراً قانونياً للباب العالي ، أي لرئاسة مجلس الوزراء في الدولة العثمانية ، ثم وزيراً للخارجية في وزارة المغازي أحمد مختار باشا في عام ١٩١٢ ، وألف كتاب مجموعة المعاهدات الدولية الخاصة بالدولة العثمانية ، المطبوع باللغة الفرنسية في باريس في عام ١٨٩٧ ، وهاغوب قازاقيان باشا ، وزير المالية العثماني منذ عام ١٨٧٩ الذي عقد القروض العثمانية ، وبرز في مصر نوبار نوباريان باشا ، مؤسس المحاكم المختلطة عام ١٨٧٦ ، وأول رئيس لوزرائها ولثلاث مرات في الأعوام من ١٨٧٨ إلى ١٨٧٩ ، ومن ١٨٨٤ إلى ١٨٨٨ ، ومن ١٨٩٤ إلى ١٨٩٥ ، وأخوه أراكيل نوبار بك وزير التجارة المصرية وحاكم السودان ، وابنه بوغوص نوبار باشا مدير السكة الحديد بمصر ومؤسس الاتحاد الخيري الأرمني العام بها عام ١٩٠٦ ، والذي تزعم فيها بعد الأرمن العثمانيين في أوروبا وكان يفاوض الدولة الأوربية نيابة عنهم وقت إبرامها معاهدة سيفر مع

الدولة العثمانية من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٠ ، ثم زوج ابنته ديكران دابرو باشا الذي تولى وزارة الخارجية المصرية عام ١٨٩١ ، ثم الدكتور حنا ورتبت من رواد تعليم الطب والاستشراق بالجامعة الأمريكية في بيروت ، ثم الصحفي والأديب الأشهر أديب إسحق من تلاميذ جمال الدين الأفغاني ، ومن أعلام النهضة العربية الحديثة .

ثم يعقوب أرتين باشا وكيل وزارة المعارف المصرية لمدة عشرين عاماً والمؤلف عن الملكية العقارية وعن التعليم في مصر ، ومن الجيل السابق لهؤلاء بوغوص يوسفيان بك وزير التجارة والخارجية في عهد محمد علي باشا والي مصر ، وأرتين تشاراكيان وزير الخارجية المصرية .

الفصل التاسع

تَنَازُلُ الْوَلَاءِ

ساهم في تحول الشعوب المسيحية العثمانية عن ولائها للدولة العثمانية بدءاً بالاغريق وانتهاءً بالأرمن عاملان خارجيان هما :

أولاً : الثورة الفرنسية الكبرى التي قامت في عام ١٨٧٩ .

ثانياً : التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ، الذي مارسه الدول الأوروبية ، التي زادت قوة ، وخاصة روسيا القيصرية التي ادعت فوق وراثتها لدولة الروم البيزنطية ولروما ذاتها ، أنها حامية كل المسيحيين الأرثوذكس ؛ أي المسيحيين الشرقيين ، ومنهم الاغريق والأرمن ، وأنها أيضاً زعيمة كل الشعوب السلافية التي ينتمي إليها الروس أنفسهم مثل الصرب والبلغار وغيرهم ..

وكانت أول الشعوب المسيحية العثمانية خروجاً عن الولاء للدولة العثمانية الشعب الاغريقي ، الذي أعلن في عام ١٨٢١ الثورة وساعده على نجاحها جغرافية بلاده المكونة

من الجزر وشبه الجزر المحيطة بها البحار ... وعطف الدول الأوروبية عليه وسهولة اتصالها به وتدخل بعضها وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا لمصلحته ضد الدولة العثمانية لا مجرد إضعافها واقتطاع أطرافها وحسب .. بل تضامناً معه لا لكونه مسيحي وحسب ، بل لكونه أيضاً وريث الاغريق القدماء أصحاب الفضل على أوروبا كلها ..

وكان تدخل هذه الدول الثلاث تدخلاً مسلحاً بدأ بمعركة نفايرين البحرية التي حطمت فيها أساطيلها الأسطول العثماني والمصري في عام ١٨٢٧ .. وانتهى بالحرب الروسية العثمانية (عام ١٨٢٧ / ١٨٢٩) التي وصلت في أواخرها القوات الروسية إلى مدينة أدرنة على مقربة من القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية عاصمة الدولة العثمانية ثم باعتراف هذه الدولة باستقلال الاغريق في عام ١٨٣٠ .

أما الأرمن فإنهم وإن كانت توافرت فيهم العوامل التي من شأنها خروجهم عن الدولة العثمانية .. فإن ظروفهم كانت تختلف عن ظروف الاغريق وظروف الشعوب الأوروبية المسيحية الأخرى القاطنة بالبلقان بأوروبا .. لأن بلاد الأرمن كانت تقع بشرق الأناضول أو آسيا الصغرى بعيداً عن أوروبا ، كما كانت متداخلة في البلاد التي يقطنها الترك ، والأكراد ، واللاظ ، والشراكسة ، ومنتشرة ومتناثرة ، بينها ، ولم يكن الأرمن يكونون في مجموع بلادهم ولا في مكان محدد منها أغلبية ظاهرة يمكن أن تكون نواة لدولة مستقلة منفصلة وكذلك فإنهم لم يكونوا يتمتعون بعطف روسيا لأن غالبيتهم العظمى كانت تتبع الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية الوطنية ..

والخلاصة .. لم يساعد الأرمن على المطالبة بالمزيد من الإصلاحات الداخلية بالدولة العثمانية في نطاق بقائهم من رعاياها .. وعلى رأسها مساواتهم قانوناً بباقي رعاياها من المسلمين .. وضمان حقوقهم .. إلى أن الإصلاحات الداخلية في الدولة العثمانية ، والتي عرفت « بالإصلاحات الخيرية » أو « التنظيمات » بدأت بمبادرة سلاطينها ومستشاريهم ..

كانت تستلهم الماضي وتسعى للعودة إلى العظمة الغابرة ، ولا تتطلع إلى المستقبل ، وتحصر على الطبيعة العثمانية المحافظة ، بل الجامدة المتحجرة التي لا تؤمن بالتطور ، ولا بالإصلاح العام الحقيقي وخاصة في جوانبه السياسية والاجتماعية . وقد بدأت هذه

الإصلاحات « بالخط الشريف » المؤرخ في ٢٦ أيار عام ١٨٢٦ ، واستهدف إلى إنشاء جيش حديث على النظام الأوروبي سمي « بالنظام الجديد » . وأسفر عن القضاء على فرق عسكر « الانكشارية » التي كانت قد استفحلت مفاسدها ، وقاومت إنشاء هذا الجيش الحديث .. ثم خط « كلخانة » .. ثم الخط « الهمايوني » المؤرخ في ١٨ شباط عام ١٨٥٦ الذي نشر بمبادرة بريطانيا وفرنسا حليفتي الدولة العثمانية ضد روسيا في حرب القرم (عام ١٨٥٣ إلى عام ١٨٥٦) قبيل إبرام معاهدة باريس المؤرخة في ٣٠ آذار عام ١٨٥٦ ، التي أنهت صلحاً .. وذلك لكي يضع موضع التنفيذ « خط كلخانة » ، ولكي يشمل أيضاً وبصفة خاصة الرعايا المسيحيين للدولة العثمانية ، ويساويهم برعاياها المسلمين برفع الجزية عنهم .. وقبول شهادتهم أمام المحاكم ، وكل ما يحقق هذه المساواة ..

غير أنه عملياً لم ينفذ إصلاح يفيد منه العثمانيون سواء من المسلمين أو المسيحيين فمثلاً . فرض على المسيحيين البديل العسكري لإعفائهم من أداء الخدمة العسكرية بدلاً من الجزية التي رفعت عنهم ، وكان قبول شهادتهم أمام المحاكم قبولاً شكلياً لا موضوعياً ، واقتصر الأمر على صدور دستورين بنظمي ملتي الروم الأرثوذكس والأرمن الأرثوذكس في عام ١٨٦٣ بإنشاء مجلسين لهما غالبيتهما منتخبة وبقصد مساعدة بطريكتيهما في إدارة شؤونهما .. وأدى ذلك إلى الحد من نفوذهما ، ومن نفوذ قسسهما عموماً .. ولعل هذا ما كان وراء إصدار هذين الدستورين .. وكان صدور دستور ملة الأرمن الأرثوذكس بمقتضى الفرمان المؤرخ في ٣٠ آذار عام ١٨٦٣ ، الذي حاول إضعاف علاقتها بجائليق اتشمياتزين الأكبر يخالف ما تضمنه نظامها الذي وضعه أبناؤها أنفسهم بتاريخ ٥ حزيران عام ١٨٦٠ بمبادرة بعض مثقفهم ، ومنهم جرجور أوديان .. سيروبي فتشنيان — ناهابد روسنيان — وصاغه كريكور ماركوسيان .. ثم ألفته الدولة العثمانية بالفرمان المؤرخ في ٣١ آب عام ١٨٦١ ، وبقي حرمانهم من حمل السلاح قائماً لحرمانهم من الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداءات عليهم ، التي تواصلت وتصاعدت حتى بلغت درجة المذابح ..

وبالرغم من الوعود التي حوتها الخطوط أو المراسيم العثمانية الثلاث المشار إليها ، وخاصة للمسيحيين العثمانيين ، فقد حصلت مذابح ضدهم بعدها كان أبرزها مذابح لبنان في عام ١٨٦٠ ..

ثم ثورة الأرمن ومذابحهم في اقليم زيتون الجبلي بولاية مرعش بجنوب شرق الأناضول (عام ١٨٦١) التي بدأت بسبب زيادة الضرائب ، وتمكنوا خلالها من صد القوات العثمانية الكبيرة التي وجهت ضدهم بقيادة عزيز باشا ، ولم يحمدها إلا تحريض جيرانهم من الترك والأكراد عليهم . ثم ثورة جزيرة كريت الاغريقية (عام ١٨٦٦) .. ثم مذابح البوسنة والهرسك في عام ١٨٧٥ .. ثم المذابح والفظائع البلغارية التي بدأت في عام ١٨٧٦ في عهد السلطان العثماني مراد الخامس وأدت إلى مطالبة السياسي البريطاني جلادستون زعيم حزب الأحرار بطرد الدولة العثمانية من أوروبا كلها ، ثم إعلان روسيا القيصرية الحرب عليها في عام ١٨٧٧ لتحرير بلغاريا ، واستكمال تحرير باقي بلاد شعوب البلقان من ربقها ..

ولهذا فقد ظهرت في الدولة العثمانية حركة قادها السياسي المعروف أحمد مدحت باشا ، الذي تولى رئاسة الوزراء بها في يوم ١٣ كانون الأول عام ١٨٧٦ للمطالبة بإصلاحات حقيقية ، وتمكن أنصار هذه الحركة من السيطرة على الدولة العثمانية وإجبار السلطان العثماني الجديد عبد الحميد الثاني على إصدار دستور لها سمي « بقانونها الأساسي » أعلن وتلي بعد تعديله بما يلائم رغبات هذا السلطان في يوم ٢٣ كانون الأول عام ١٨٧٦ . ويجدر بالذكر إن من ساعد أحمد مدحت باشا في وضع مبادئه ، وفي صياغة مواده هو معاونه وصديقه الفقيه الأرمني العثماني كريكور أوديان ونص هذا الدستور على إنشاء برلمان عثماني من مجلسين هما مجلس المبعوثين أي النواب المنتخبين ومجلس الأعيان المعينين ، والبالغ عددهم ما لا يتجاوز ثلث عدد النواب أعضاء المجلس الأول ، وعلى تمثيل جميع قوميات الدولة العثمانية فيهما ..

ولكن السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان مستبداً بطبعه ما لبث أن عزل أحمد مدحت باشا في يوم ٥ شباط عام ١٨٧٧ ، أي قبل انعقاد البرلمان وفي ظرف شهرين من توليه رئاسة الوزراء ثم أعدهم فيما بعد في عام ١٨٨٣ بتهمة اشتراكه في قتل السلطان العثماني الأسبق عبد العزيز الذي انتحر ولم يقتل .. ومع ذلك ترك البرلمان العثماني بمجلسيه ينعقد في يوم ١٩ آذار عام ١٨٧٧ ، وكان مجلس الأعيان مكوناً من ٢٥ من الموظفين المعينين أما مجلس المبعوثين فكان يتكون من ١١٥ نائباً من أصل مجموعهم وهو ١٢٠ منهم ٦٩ من

المسلمين ، و ٤٦ من المسيحيين ضمنهم الأرمن .. وقد انتخبهم المجالس المحلية ، وعهد برئاسته لأحمد وفيق باشا الذي سيره وفق أهوائه ، وكان ينهر قلة النواب المعارضين ويأمرهم بالسكوت وسط تهليل أغلبية المؤيدين .. ومع ذلك ضاق السلطان عبد الحميد الثاني ذرعاً بالبرلمان العثماني وحله بمجلسيه في يوم ١٤ شباط عام ١٨٧٨ ، بل وأوقف العمل بالدستور ونفى أعضاء البرلمان العثماني .. وظل يحكم دولته حكماً استبدادياً طوال ثلاثين عاماً حتى أجبر على إعادة العمل بالدستور ، وعقد البرلمان إثر الانقلاب الذي وقع ضده في عام ١٩٠٨ ، ثم أفضى إلى خلعه إثر محاولته القيام بانقلاب مضاد عام ١٩٠٩ .

وكان الأرمن العثمانيون أشد المسيحيين تحمساً لصدور الدستور العثماني لإيمانهم بحسن نوايا الدولة العثمانية ، وقد تجلّى ذلك في الاجتماع الهام الذي عقد في يوم ١٨ كانون الثاني عام ١٨٧٧ وشهده ٢٣٧ من أعيان الدولة العثمانية بمناسبة نشر فرمان العثماني المصدر لهذا الدستور .. وعندما عرضت على المجتمعين مقترحات المؤتمر الدولي الذي بدأ انعقاده بالعاصمة القسطنطينية في يوم ٢٣ كانون الأول عام ١٨٧٦ ، بشأن ضمان الدولة الأوروبية الكبرى الستة للإصلاحات الخاصة بالمسيحيين العثمانيين . وهو ما كان يسعى إليه جاهداً سفير روسيا لدى الدولة العثمانية الجنرال ايجانتيف ...

• رفضوا هذه المقترحات ، وكان في مقدمة الرافضين ممثلو الأرمن استناداً إلى أنهم قد صاروا مسيحيين عثمانيين مساوين للمسلمين العثمانيين طبقاً للدستور العثماني الجديد ، وعلى هذا رفض السلطان العثماني رسمياً مقترحات الدول المذكورة وانفض المؤتمر دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة ..

وقد ترتب على فشل المؤتمر أن انعقد مؤتمر دولي آخر في لندن فوضع مشروعاً جديداً للإصلاحات المشار إليها في ٣١ آذار عام ١٨٧٧ ، وقدمته الدول الأوروبية الكبرى الستة للسلطان العثماني للتصديق عليه فرفضه في ٩ نيسان عام ١٨٧٧ وبناء على ذلك أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ٢٤ نيسان ١٨٧٧ ، وتمكنت الجيوش الروسية في أوروبا من عبور (الدانوب) جنوباً ودخول بلغاريا ، والوصول إلى سان استفانو في ضواحي القسطنطينية يوم ٣١ كانون الثاني عام ١٨٧٨ ..

كما تمكنت أيضاً الجيوش الروسية في آسيا والتي كانت تضم بعض القوات الأرمنية الروسية وعهد بقيادتها كلها إلى القائد الأرمني الروسي الجنرال ميخائيل لوريس مليكوف يعاونه الجنرالان الأرمنيان الروسيان أرشاك درهوجسوف وهوفانس لازارييف من الاستيلاء على عدة مدن في أرمينية الغربية العثمانية شرق الأناضول ..

واضطرت الدولة العثمانية إلى طلب الهدنة من روسيا في يوم ٣١ كانون الثاني عام ١٨٧٨ ، وأخذت تفاوضها لعقد الصلح ..

وحين أيقن الأرمن العثمانيون عدم جدية الدولة العثمانية في إصلاحاتها بناء على عدم تنفيذها شيئاً منها .. حرصوا أن تتضمن معاهدة الصلح الدولية الجاري إبرامها بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية نصاً بشأن أرمينية يضمن إجراء الإصلاحات فيها ، وعدم التنكيل بأبنائها .. فأوفد المجلس الملي للأرمن الأرثوذكس بالقسطنطينية وفداً برئاسة كيفورك روسجولكيان مطرانهم بأدرنة وعضوية هوفانس نوريان ، وستيبان أرسلانيان من أعيانهم بالقسطنطينية إلى معسكر القوات الروسية بأدرنة ثم بسان استيفانو حيث قابلوا قائدهما العام الدوق نقولا فتش الأكبر ، ثم لحق بهم بطريك الأرمن الأرثوذكس في القسطنطينية نرسييس فرجيديان ، لعرض المطالب الأرمينية عليهما ، وتم الاتفاق على أن تتضمن معاهدة الصلح مادة عن أرمينية نصها « لضمان منع الاضطهادات والفظائع التي وقعت في الولايات الأوروبية والآسيوية من الدولة العثمانية ، يمنح السلطان بالاتفاق مع القيصر حكماً ذاتياً محلياً للولايات التي يسكنها الأرمن » .

ونجحت المساعي الأرمينية جزئياً إذ تضمنت معاهدة صلح سان استيفانو الدولية التي أبرمت في يوم ٣ مارس عام ١٨٧٨ — المادة ١٦ التي نصت على (أن خروج عساكر روسيا من أرمنستان وإرجاع تلك البلاد إلى الدولة العثمانية يمكن أن يفضي إلى المناقشة والاختلافات فيما بينهما ولهذا يتعهد الباب العالي بإجراء الإصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية في الولايات التي يسكنها الأرمن وتأمين المسيحيين من تعدي الأكراد والشراكسة) .

وكان هذا أول ذكر لأرمينية في معاهدة دولية في التاريخ الحديث مثلما كان ذكرها

في نقش بهستون المؤرخ في عام ٥١٦ ق . م .. وهو أول ذكر لها في التاريخ القديم .. كما تضمنت هذه المعاهدة في المادة ١٩ منها ضم روسيا لجزء من جورجيا وأرمينية الغربية .. وإعادة روسيا إليها إقليم أرضروم بأرمينية الغربية ، الذي كانت قد احتلته ، ولكن هذه المعاهدة لم تنفذ إذ اعترضت عليها بريطانيا لحرصها على إبقاء الدولة العثمانية قوية ووقوفها ضد توسع روسيا ، ودعت إلى عقد مؤتمر دولي عام لتسوية المسألة الشرقية من جديد ..

فانعقد مؤتمر برلين الدولي لهذا الغرض في المدة من ١٣ حزيران حتى ١٣ تموز عام ١٨٧٨ ، وحضرته الدولة العثمانية وكذلك روسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، والمجر ، وإيطاليا .. وهي الدول الست الكبرى في ذلك الزمان .. وأرسل إليه الأرمن العثمانيون بإذن من الحكومة العثمانية وفداً يمثلهم برئاسة المطران خرميان هايريك مطران « وان » .. ثم جاثليق كل الأرمن الأرثوذكس مكرديش الأول ، وعضوية المطران خورين ناري مطران بشكطاش بالقسطنطينية ، وميناس شيزار ، وستيبان باباريان عضوي المجلس الملي للأرمن الأرثوذكس .

وفي باريس وقبل أن يتجه رئيس الوفد إلى برلين قابل نوبار نوباريان باشا الوزير الأرمني العثماني العامل في خدمة الحكومة المصرية ، وعرض عليه المذكرة التي أعدها لتقديمها للمؤتمر ، وطلب تأييده الأدبي والمادي .. فوافق نوبار نوباريان باشا على تقديم هذا التأييد دون أي تحفظ وعرض من جانبه بصفته كبير الأرمن العثمانيين العارف بما يصلح أمورهم وخبيراً في المفاوضات الدولية .. على رئيس الوفد تنقيح المذكرة شكلاً وموضوعاً والانضمام إلى أعضاء الوفد لشرحها شخصياً بعدئذ لأعضاء المؤتمر . ولكن هذا العرض قد رفض بناء على قرار المجلس الملي للأرمن الأرثوذكس في القسطنطينية لعدم اتساع الوقت لدراسة التعديلات المقترحة لمطالب الأرمن العثمانيين قبل عرضها على المؤتمر ..

وعند انعقاد المؤتمر في برلين برئاسة بسمارك مستشار ألمانيا لم يسمح للوفد الأرمني بالدخول إلى المبنى الذي اجتمع فيه أعضاؤه المؤتمرون ، ولكن أخذت من هذا الوفد مذكرته الحايوة للمطالب المشار إليها .. وقد جاء بهذه المذكرة أنه قد خابت آمال الأرمن العثمانيين في الإصلاحات التي وعدت بها الدولة العثمانية قبيل انتهاء حرب القرم بالخط الهمايوني المؤرخ في ١٨ شباط عام ١٨٥٦ لعدم تنفيذها .. ولكنهم لا يطالبون

بالانفصال عن الدولة العثمانية ، بل إن مطالبهم تنحصر في إدارة ذاتية مسيحية مضمونة بضمانات دولية مثل نظام لبنان الدولي الصادر في عام ١٨٦١ والمعدل في عام ١٨٦٤ مع بقائهم في نطاق الدولة العثمانية ، وأنهم يبدون تحفظاً على انسحاب روسيا من أقاليم أرمينية الغربية التي احتلتها ولكنها لن تضمها ، وهو أن يكون مرتبطاً بتنفيذ هذه المطالب .

ولكن هذا التحفظ لم يراعَ عند إبرام المعاهدة لأن بريطانيا كانت حريصة على سرعة انسحاب روسيا من أرمينية الغربية ، بل إنها تعهدت بمساعدة الدولة العثمانية عسكرياً عند الحاجة لإرغام روسيا على هذا الانسحاب ، مقابل إعطاء الدولة العثمانية لبريطانيا جزيرة قبرص ، وأبرمت بريطانيا مع الدولة العثمانية في يوم ٤ حزيران ١٨٧٨ في القسطنطينية معاهدة سرية تضمنت ذلك ، ثم أبرمتا في أول تموز في القسطنطينية أيضاً معاهدة سرية ثانية تضمنت إعادة بريطانيا جزيرة قبرص للدولة العثمانية فيما لو أعادت روسيا إليها جميع البلاد التي فتحتها في الحرب الأخيرة ، ولم تعلن هاتان المعاهدتان السريتان إلا بعد إبرام معاهدة برلين الدولية في ١٣ تموز عام ١٨٧٨ .

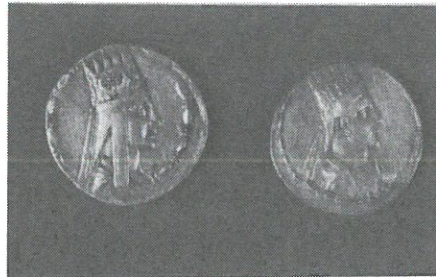
أناهيد ربة الخصب



النسر الحجري



نقود من عهد ديكران الأول



الفصل العاشر

الأزمُن وعَبْدُ الحَمِيدِ الثَّانِي

سمي عهد عبد الحميد الثاني بعهد الاستبداد الحميدي ، كما سمي هو « السلطان الأحمر » لأنه مثل قمة الاستبداد والظلم والرجعية .. وفوق ذلك اتسم بالخبث والدهاء السياسي وقيل أيضاً أنه كان مريضاً نفسياً ..

ولم يحاول هذا السلطان تقوية الجيش ، لأنه كان يخشاه خشيته للشعب الذي لم يطمئن إليه لعدم ثقته فيه .. ولهذا اعتمد سياسة كم الأفواه والضغط على الحريات ومحاربة كل معارضة ، وطلب أي إصلاح ، والإيقاع بين كل الفئات .. وجعل الدولة قائمة على التجسس والتقارير السرية ، والرقابة الشديدة على الصحف والمطبوعات والكتب ، وعلى كل نشاط سياسي واجتماعي ، بل وعلى الاغتيال .. وكانت أشنع جرائمه الفردية ، إعدامه سرّاً وزيره أحمد مدحت باشا عام ١٨٨٣ ، واغتياله عام ١٨٩٧ بالسّم حكيم الشرق المصلح الإسلامي الكبير جمال الدين الأفغاني ، الذي أبقاه في عاصمته القسطنطينية مدة

خمس سنوات تحت الرقابة خشية من آرائه ونفوذه ، ثم فضل في نهاية الأمر التخلص منه ، واغتياله قبله بالسم أيضاً المطران الأرمني خورين ناربي عام ١٨٩٢ ، وخورين هذا عضو الوفد الأرمني لمؤتمر برلين الذي عقد عام ١٨٧٨ .

على أن المذابح التي اقترفها ضد الأرمن ، كانت أفظع جرائمه العامة وأسودها في تلطيخه بالعار .. حتى أنه جعلها جزءاً مألوفاً ومعروفاً من السياسة الداخلية للدولة العثمانية ، حيث درج عليها من بعده خلفاؤه من عصابة فتيان تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي ..

إذ بعد انتهاء الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ بتوقيع معاهدة برلين الدولية ، وانسحاب القوات الروسية طبقاً لهذه المعاهدة من أقاليم أرزروم وبايزيد والشفرد لم تقم الدولة العثمانية بتنفيذ الإصلاحات التي التزمت بها في ولاياتها الأرمنية الستة طبقاً للمادة ٦١ من هذه المعاهدة . بل وساءت الحالة لتزايد الاعتداءات على الأرمن العثمانيين ، والتي كانت مألوفة وتشمل أداؤهم أتاوات بصفة منتظمة ، وذلك رغم أن بريطانيا عينت في هذه الولايات العثمانية الستة ثمانية قناصل عسكريين .. ووضعهم تحت رئاسة قنصلها العام في أرزروم وسيواس ، وكلفت سفيرها لدى الدولة العثمانية هنري لايرد ، ثم لورد جوشن بإثارة مسألة تنفيذ الإصلاحات في هذه الولاية الأرمنية مع عبد الحميد الثاني ...

وإثر تولي السياسي البريطاني جلادستون زعيم حزب الأحرار المتحمس للمسألة الأرمنية لرئاسة الوزراء البريطانية في شهر أيار عام ١٨٨٠ ، وجهت الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة برلين الدولية « روسيا — بريطانيا — فرنسا — ألمانيا — النمسا — المجر — إيطاليا » ، وبمبادرته إلى الدولة العثمانية المذكرتين المشتركين المؤرختين في ١١ حزيران و٧ أيلول . وفيهما لاحظت هذه الدول تزايد الاعتداءات على الأرمن ، حتى وصلت الحالة إلى درجة الفوضى ، فطالبت هذه الدول بتنفيذ الإصلاحات دون تأخير ، غير أن تدخل هذه الدول كان شكلياً بحثاً وغير جدي ، ولم تقصد منه إلا حفظ ماء وجهها ، في حين أن الأرمن أخذوا هذه الإصلاحات جدياً وبدأوا يستعدون للمساهمة في تنفيذها بنشر التعليم بينهم ، الذي كان من مظاهره نشاط « الجمعية المتحدة » بفتح المدارس التي أسسها عام ١٨٦٤ المصلح والمثقف الأرمني العثماني المعروف مكرديتش

بشكطا شيليان عقب صدور دستور الكنيسة الأرمنية الوطنية الأرثوذكسية عام ١٨٦٣ . ولم ينفذ السلطان عبد الحميد الثاني شيئاً من هذه الإصلاحات لطبيعته الاستبدادية من جهة ولإيقانه من عدم تضامن الدول الأوروبية ضده في المسألة الأرمنية .. وعدم جديتها في التدخل بشأنها .. إذ لم يكن سراً أن بسمارك مستشار ألمانيا والذي رأس مؤتمر برلين الدولي رفض طلب جلادستون رئيس وزراء بريطانيا إثارة مسألة عدم تنفيذ الإصلاحات الأرمنية دولياً من جديد عام ١٨٨١ .. بل واقترح عليه تركها حتى لا تخلق مبدأ تستند إليه فرنسا في طلب تنفيذ إصلاحات مماثلة في إقليمي الألزاس واللورين الفرنسيين ..

وفعللاً استجاب جلادستون لهذا الاقتراح وأمر سفيره لدى الدولة العثمانية بعدم إثارة هذه المسألة ، وسحب قناصل بريطانيا العسكريين من الولايات الأرمنية العثمانية الستة ، وذلك لأن بريطانيا كانت قد بدأت تسترضي كل من الدول العثمانية وألمانيا لكي لا تعارضا تدخلها في مصر الذي بدأ في عام ١٨٨١ إثر قيام الثورة العربية الوطنية ..

وبناء على ذلك توقف التدخل الدولي في المسألة الأرمنية لدى الدولة العثمانية منذ أوائل عام ١٨٨٣ ، ولم يسفر إلا عن لفت نظر الرأي العام العالمي إلى وجود هذه المسألة .. بل إن بسمارك نصح السلطان عبد الحميد في خريف هذا العام بعدم الإسراع في تنفيذ الإصلاحات الأرمنية « حرصاً على هيئته » ، وفي العام الذي تلاه أطلق الصدر الأعظم كوتشوك سعيد باشا مقولته « إن أنجع وسيلة لإنهاء القضية الأرمنية هي القضاء على الشعب الأرمني » . وهكذا ، انفرد عبد الحميد الثاني بالمسألة الأرمنية وتفرغ لها .. فأخذ يحرض الأكراد ، وهم إحدى الأقليات التي كان يحتضنها لتنفيذ أغراضه ، على زيادة اعتداءاتهم على الأرمن العثمانيين في ولاياتهم الستة .. بل ويحضر لهم المذابح المماثلة لتلك التي حصلت في إقليم زيتون الجبلي إثر ثورتهم به في عام ١٨٦١ وفي عام ١٨٦٢ .

وكان رد الأرمن العثمانيين على هذه الاعتداءات هو مقاومتهم لها بالقوة .. ثم ظهور حركة وطنية بينهم كان من طلائعها الزعميان الوطنيان الأرمنيان مكرديتش برتوغاليان ، وميناس شيراز عضوا الوفد الأرمني العثماني إلى مؤتمر برلين الدولي .. ثم ظهور اللجان أو الجمعيات الثورية الأرمنية التي كانت نواة الأحزاب الثورية الأرمنية .

وتأسست أول الجمعيات الثورية الأرمنية في وان عام ١٨٧٢ ، وأول الجمعيات العامة بمبادرة الأرمني العثماني حنا بروسلي بباريس عام ١٨٨٨ .

وحظيت بتأييد البطريرك الأرمني خريمان هايريك الذي كان قد نفى إلى اسكدار جزاء له على تقديم المطالب الأرمنية إلى مؤتمر برلين الدولي .. وكانت هذه الجمعيات تتكون من ثلاث مجموعات أو طبقات من الأعضاء .. الأولى هي طبقة الزعماء وترسم الخطط وتقومها وتصدر الأوامر .. والثانية من الشبان المثقفين وتنتشر الدعايات وتجند الأنصار وتجي الأموال .. والثالثة من عامة الشعب ويناط بها تنفيذ الأوامر ..

وأما الأحزاب الثورية الأرمنية فكانت حزب الأرمنجيان أي الحزب الأرمني الذي تأسس في وان بأرمنية العثمانية عام ١٨٨٥ — وحزب المنتشاق أي الناقوس أو المنبه الذي تأسس في جنيف بسويسرا عام ١٨٨٧ — ثم حزب الطاشناق أي الاتحاد الثوري الأرمني الذي تأسس عام ١٨٩٠ في تفليس بجورجيا ..

وتصاعدت المقاومة الأرمنية للاعتداءات العثمانية وازداد نشاط جمعياتها الثورية الأرمنية وتميز الدعاية والاعتقال والتأثر .. فخشي السلطان عبد الحميد الثاني أن يؤدي ذلك إلى استقلال أرمنية العثمانية ، وكان يؤكد أنه لن يتسامح مع الأرمن .

وقد روى صديقه المستشرق المجري المعروف « أرمينوس فانيري » أنه اعتمد ما أشار به عليه مشيراً بالسوء المعروفان « عزت العابد باشا ، والشيخ أبو الهدى الصيادي » أن التخلص من المشكلة الأرمنية أو « الحل النهائي » لها إنما يكون بالتخلص من الأرمن أنفسهم والقضاء عليهم .. أي إنه اعتزم تذيبهم ..

والحقيقة أن المذابج الأرمنية بدأت في عهد هذا السلطان منذ أواخر الحرب العثمانية الروسية ، وذلك لمعاقبة الأرمن العثمانيين على اشتراك إخوانهم الأرمن الروس في الحملة الروسية على الأناضول .. حيث جرت هذه المذابج في اقليم بايزيد والشفراء .. وبعد انتهاء الحرب سكنت المذابج مؤقتاً ولكن عبد الحميد الثاني أخذ يعد العدة لاستئنافها وتنظيمها .. فاستمر بتهجير القبائل الكردية من ولاية ديار بكر وهي إحدى الولايات العثمانية الست إلى باقي هذه الولايات ، وهي أرضروم ، وان ، بدليس ، خربوط ،

وسواس ، لتقليل نسبة الأرمن فيها وخاصة في ولايتي وان وبدليس ومنذ عام ١٨٨٩ بدأت المذابج الأرمنية في هذه الولايات الستة بتزايد اعتداءات الأكراد على الأرمن القاطنين فيها .. وخاصة في سنجق موش في ولاية بدليس .. حيث كان ينفذها الزعيم الكردي المعروف موسى بك ، وكان من ضحايا هذه الاعتداءات خشادور بصدرميجيان أهم شخصية من الأرمن العثمانيين بها .. والذي اغتيل في أرضروم ، وأخذ قنصل بريطانيا فيها ينبه بدون جدوى إلى تصاعد هذه الاعتداءات وبلغها درجة المذابج ..

وأخيراً وقعت في يومي ٢٠ — ٢١ حزيران عام ١٨٩٠ مذبحة للأرمن في أرضروم بتحريض واليها سامي باشا راح ضحيتها كثير منهم إذ هوجمت كنيستهم بحجة تفتيشها بحثاً عن أسلحة ، وكاد أن يقتل زعيمهم هاروتيون بصدرميجيان بها .

ولهذا طلب ممثلو الأرمن العثمانيين وهم أعضاء المجلس الملي للأرمن الأرثوذكس وجمعياتهم الثورية السرية من بطريرك الأرمن الأرثوذكس بالعاصمة القسطنطينية خورين عاشقيان تقديم شكوى للسلطان متضمنة التظلم مما حل بهم ، وطلب معاقبة المسؤولين عنه .. وقابل هذا البطريرك المعروف بالتخاذل ثرياً باشا كبير أمناء السلطان لتقديم الشكوى إليه .. ولكنه أقنعه بتغيير صيغتها تغييراً أفقدها معناها .. بل واستجاب هذا البطريرك لطلب الصدر الأعظم محمد كامل باشا أن يغير في أدعية وصلوات الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية بحذف أسماء بعض قديسيها مثل القديس ورتان الأول ماميكونيان بطل معركة أفرار السابق ذكره .. من رجال الحرب المجاهدين وكان هذا هو نفس الخط الذي اتبعته الحكومة العثمانية مع أئمة المساجد المسلمين .. إذ كانت تعليقاتها لهم تشدد على عدم تلاوة آيات القرآن الكريم التي تندد بالظالمين وتحث على محاربة الظلم والفساد ..

ولما لم تجد هذه الشكوى .. اعتزم الأرمن العثمانيون المقيمون في القسطنطينية تنظيم مظاهرة للمطالبة بما تضمنته .. وفي ٢٧ تموز ١٨٩٠ ، وأثناء إقامة البطريرك عاشقيان صلاة خاصة بمناسبة عيد الأضحى للدعاء للسلطان بكتدرائية « قوم قبو » الأرمنية ، اخترق شاب أرمني صفوف المصلين حتى وصل إليه .. ثم طلب منه ترك الصلاة وقيادة مظاهرة من الأرمن العثمانيين إلى سراي السلطان لتقديم الشكوى ومعاقبة المسؤولين عن المذابج .. وبخاصة الزعيم الكردي موسى بك .. ولما لم يستجب البطريرك له أطلق عليه

الرصاص فلم يصبه وفر البطريك وحاول الشاب قيادة المظاهرة ، ولكن رجال الشرطة قتلوه .

وكان هذا الحادث هو الأول من نوعه في العاصمة .. الذي لفت أنظار الدول الأوروبية والرأي العام العالمي إلى المطالب والمذابح الأرمنية ، واضطر السلطان لإجراء محاكمة صورية للزعيم الكردي المذكور انتهت ببراءته .

بعد ذلك استمرت المذابح الأرمنية في شرق الأناضول وشكل السلطان فرقاً خاصة غير نظامية عام ١٨٩١ ، لتنفيذها ، وأسمها « الفرق الحميدية » نسبة إليه .. وكان رد الأرمن العثمانيين على هذه المذابح بالانتفاضة في الولايات الست .. وبالاغتيال في العاصمة .. فادعت الدولة العثمانية أنها ضبطت مؤامرة أرمنية كبرى كانت تعد للقيام بثورة دبرتها اللجان الثورية الأرمنية المتمركزة في شرق الأناضول وذلك في ٥ كانون الثاني عام ١٨٩٣ ، وقبضت على ٥٤ من زعماء هذه المؤامرة المزعومة وقدمتهم للمحاكمة بأنقرة في ٨ أيار عام ١٨٩٣ .. وقد بدأتها سراً وأخفت أمرها ، ثم أجرتها علناً لكي تثبت العصيان على كافة الأرمن العثمانيين ، وانتهت هذه المحاكمة بعد ما يزيد على الشهر بالحكم بالإعدام على بعض المتهمين ، ثم عفت عنهم بناء على تدخل السفير الأمريكي وفي ٢٥ آذار عام ١٨٩٤ ، وهو عيد الفصح . وفي أثناء إقامة البطريك الأرمني الأرثوذكسي عاشقيان الصلاة بكنديراية « قوم قبو » الأرمنية في العاصمة وإلقاءه عظة تتفق مع منشوره الذي عممه على قسسه في أوائل ذلك الشهر فيما تضمنه من التنديد بالحركة الثورية الأرمنية وتأييد الحكومة العثمانية .. أطلق أحد المصلين الأرمن النار عليه ولكنه لم يصبه .. واضطر هذا البطريك بعدئذ إلى ترك منصبه في يوم ١٢ نيسان ١٨٩٤ ، وانتخب بديلاً عنه البطريك ماتيوس ازميرليان المتعاطف مع هذه الحركة بطريكاً للأرمن الأرثوذكس في القسطنطينية في ٨ كانون الثاني ١٨٩٥ .

وتحت يافطة سلطانية تقول : « صاصون بدون صاصونيين » .

وفي المدة من ١٥ آب إلى أيلول عام ١٨٩٤ وقعت مذبحة أرمنية كبرى في قضاء صاصون الجبلي الذي كان يحوي ١١٠ قرية يسكنها قرابة ٢١ ألف من الجبلين حوالي

٤٠ ٪ منهم من الأرمن والباقيون من الأكراد ... وكان سببها امتناع السكان جميعهم منذ شهر حزيران عن أداء الضرائب المطلوبة منهم لأنهم كانوا معفين منها .. فأخير حسن تحسين باشا والي بدليس السلطان عبد الحميد الثاني أن الأرمن أعلنوا العصيان في هذا القضاء فأمر باستعمال الشدة معهم . وأرسل قوات كبيرة بعضها نظامية وبعضها الآخر من فرق الحميدية غير النظامية بقيادة المشير زكي باشا قائد الفيلق الرابع إلى هذا القضاء فخرت ٢٤ قرية أرمنية ، وأحرقتها وقتلت كثيرين من الأرمن المقيمين فيها ، وقيل أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة قتيل ..

وأثارت هذه المذبحة ضجة كبرى بين شعوب الدول الأوروبية ونددت بها صحفها وردت عليها الحكومة العثمانية ببلاغ ذكرت فيه أن ما حدث هو إخماد فتنة أشعلها بعض العملاء ، ومنهم الثوريان الأرمنيان مهram داماديان وهامبرتسوم بوياجيان المنتميان إلى حزب الهنشاق .. وإن عدد الضحايا مبالغ فيه .. وسأيرتها الصحف العثمانية الخاضعة لرقابتها ، ولكن الأمر أسفر عن طلب الدول الأوروبية تشكيل لجنة لإجراء تحقيق في ظروف هذه المذبحة باشتراك مندوبين عن بريطانيا ، فرنسا ، وروسيا ، واضطرت الحكومة العثمانية إلى الاستجابة إلى هذا الطلب لتهدة الحال ..

وأجرت اللجنة تحقيقاً متحيزاً لتصل فيه إلى النتيجة التي وضعتها مقدماً وهي نفي الاتهام عن السلطات العثمانية في تدبير هذه المذبحة إذ سمعت فقط الشهود الذين اختارهم السلطة ، وأبعدت المراقبين الدوليين الثلاث عن إجراءات التحقيق .. وقدم هؤلاء المراقبون تقريراً منفصلاً ومناقضاً لتقرير لجنة التحقيق بتاريخ ٢٠ تموز عام ١٨٩٥ ، أثبتوا فيه مخالفات هذه اللجنة وتحيزها ..

ولما لم تنقطع المذابح الأرمنية .. قدمت بريطانيا وفرنسا وروسيا إلى الدولة العثمانية مذكرة مشتركة في ١١ أيار عام ١٨٩٥ تطلب فيها القيام بإجراءات محددة في الولايات الأرمنية العثمانية الستة تضمنت تعيين مفتش عام لها ووضع ضمانات لاختيار ولايتها لتنفيذ الإصلاحات فيها ، وإنشاء لجنة دائمة في العاصمة لمراقبة هذا التنفيذ وإعادة من هاجر من الأرمن العثمانيين بسبب المذابح إلى بلاده والعفو عنه وتعويضه وحل الفرق الحميدية .. فأخذ السلطان يسوف ويستعمل هذه الدول في الرد على مذكرتها المشتركة حتى يوقع بينها

ويواصل مذايحه ، وأخيراً رد في ٣ حزيران ١٨٩٥ بقبولها شكلاً لا تفصيلاً أي أنه رفضها ..

وفي ٣٠ أيلول ١٨٩٥ ، وهو عيد ارتفاع الصليب لدى الأرمن الأرثوذكس قاموا بمظاهرة في العاصمة القسطنطينية ... توجهت إلى الباب العالي لتقديم مطالبهم بشأن الإصلاحات ووقف المذابح .. ففرقت الشرطة العثمانية هذه المظاهرة ، بل ونظمت مذبحة كبرى للأرمن بالعاصمة استمرت طوال ذلك اليوم واليوم التالي .. راح ضحيتها قرابة الفين ، وياشر القتل والنهب فيها رجال الشرطة السريين المتنكرين في زي طلبة العلوم الدينية .. كما ألقوا القبض على كثيرين من الأرمن وتركوا الغوغاء يقتلونهم بعد القبض عليهم حتى في مراكز الشرطة دون دفاع عنهم .. ولهذا قدم سفراء الدول الأوروبية الكبرى في العاصمة مذكرة احتجاج مشتركة إلى الحكومة العثمانية على هذه المذبحة التي جرت تحت بصرتهم .. ولفتوا نظر هذه الحكومة إلى خطورة الموقف ، وطلبوا اتخاذ الإجراءات اللازمة والحازمة لإعادة الأمن .. واضطر السلطان في نفس اليوم إلى عزل ناظم باشا وزير الداخلية ، وإبعاد غالبية رجال الشرطة السرية من العاصمة .. ثم عزل في اليوم التالي أيضاً الصدر الأعظم سعيد باشا ..

ولم يكتف هؤلاء السفراء بذلك فقدّموا مذكرة احتجاج ثانية أصدر على أثرها السلطان خطأً سلطانياً بالإصلاحات .. ولكن هذا الخط كان مثل ما سبقه مجرد حبر على ورق ..

وتواصلت المذابح الأرمنية طوال عامي ١٨٩٥ و ١٨٩٦ في الولايات الأرمنية العثمانية الست في شرق الأناضول وخاصة في المدة من ١٣ تشرين الأول حتى ٣٠ تشرين الثاني عام ١٨٩٥ .. بل وشملت كل الأناضول إذ وقعت في طرايزون ، أرضروم ، مرعش ، قيصريه ، أورفا .. وغيرها .. فقد كان السلطان يواصل تنفيذ سياسته المرسومة عن عمد وإصرار وهي إبادة الأرمن من دولته ..

وقد بلغت المذابح أشدها في مدينة الرها يومي ٢٨ - ٢٩ كانون الأول عام ١٨٩٥ إذ بلغ عدد ضحاياها قرابة الثلاثة آلاف منهم كثير من النساء والأطفال أحرقوا

أحياء في كنيسها التاريخية .. وقد نظم الأرمن مقاومتهم لهذه المذابح بفضل لجانهم الثورية السرية واستطاعوا في بعض البلاد مثل وان وزيتون صدها وقاد دفاعهم بعض قادتهم من أمثال أوزانيان انترايك ، وكيفورك شاورش وغيرهما .. ولم تفعل الدول الأوروبية شيئاً لوقف هذه المذابح واضطر البطريرك الأرمني الأرثوذكسي للقسطنطينية أزميرليان إلى ترك منصبه في ٤ آب عام ١٨٩٦ .

وأعدت اللجان الثورية الأرمنية السرية خطة للقيام بهجوم مسلح على سراي السلطان عبد الحميد الثاني بالعاصمة القسطنطينية أثناء الاحتفالات في يوم ٣١ آب عام ١٨٩٦ بالذكرى العشرين لتولية العرش انتقاماً منه .. ولكن الحكومة الروسية القيصرية نما إليها خبر هذه الخطة إجمالاً ، فأبلغتها إلى الحكومة العثمانية .

ولهذا أعدت الحكومة العثمانية من جانبها خطة مضادة للمبادرة بالقيام بمذبحة كبرى للأرمن في العاصمة بعد ظهر يوم ٢٦ آب عام ١٨٩٦ ، وبلغ اللجان الثورية الأرمنية السرية اكتشاف خطتها ، وكذلك خطة الحكومة العثمانية التي فضحتها تنبيهها في يوم ٢٥ آب على موظفيها بأن اليوم التالي سيكون عطلة دون مرور معقول .. ووضع علامات على مساكن الأرمن الأرثوذكس في العاصمة للتعرف عليها .. فأعدت هذه اللجان خطة جديدة أخرى للاستيلاء بالقوة المسلحة على البنك العثماني في العاصمة والتهديد بنسفه للفت أنظار الدولة الأوروبية من جديد إلى مطالب الأرمن العثمانيين وما حل بهم ..

وفي يوم ٢٦ آب عام ١٨٩٦ في الساعة الواحدة ظهراً هاجمت فعلاً البنك العثماني في العاصمة قوة من الأرمن العثمانيين مكونة من أربعة وعشرين رجلاً مسلحاً من المنتمين إلى حزب الطاشناق الثوري الأرمني غالبيتهم من الحمالين بقيادة الثوري بابكين سيوني ، الذي قتل عند الهجوم فحل محله في القيادة الثوري أرمن كارو بصدرميجيان ، وتمكنوا من احتلال البنك واحتجزوا به رهائناً مائة وعشرين من موظفيه وهددوا بنسفه بالمفرقات إذا لم ينفذ السلطان عبد الحميد الثاني في خلال ثلاثة أيام وعوده للأرمن العثمانيين ولم يستجب إلى مطالبهم ولم يعرض المسألة الأرمنية على التحكيم الدولي ، وأرسلوا بهذا التهديد إلى السلطان مع مساعد مدير البنك الفرنسي جاستون أبونيو بعد أن هرب منه مديره

البريطاني السير ادجار فنست .. ورغم أن قوات الشرطة حاصرت البنك ، لكنها صدت عنه ، ولم تستطع استرداده بالقوة .. وتمكن سفراء الدولة الأوروبية من عقد تسوية بين الحكومة العثمانية وبين المهاجرين الأرمن ، تم بموجبها إخلائهم من البنك تحت حراسة تراجمة السفراء .. وتسفيرهم دون التعرض لهم إلى الخارج ووعدهم بتدخل الدول الأوروبية لحل المسألة الأرمنية .. فغادروا البنك في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ٢٧ آب عام ١٨٩٦ إلى يخب مدير البنك الذي نقلهم إلى السفينة الفرنسية الجيرونند ، التي أبحرت بهم إلى مرسيليا بفرنسا .. ويعتبر هذا الحادث هو أول حادث فداي وطني وسياسي ثوري من نوعه في العصر الحديث ، ولم يسبق له مثيل ، **وقد شد الانتباه** ، إلى جدية المطالب الأرمنية وأثبت جرأة الأرمن واستماتتهم في مطالبهم وجدارتهم بها .. وأصدرت الحكومة العثمانية في اليوم التالي بلاغاً رسمياً عن الحادث ، كشف عن سوء نيته لأنها اعترفت فيه بأنها كانت تعلم بتدبيره مقدماً .. ولما كانت لم تحاول منع وقوعه فإن ذلك قد دل على أنها حاولت استغلاله لكي يكون مبرراً مقبولاً لمذبحتها التي كانت دبرتها قبل وقوعه وحددت لها نفس اليوم ..

وقد وقعت هذه المذبحة في العاصمة فعلاً في الميعاد المحدد لها بعد وقوع حادث البنك العثماني بقليل بل وقبل وقوعه في بعض الأحياء ، الأمر الذي ينفي حدوثها بصفتها رداً شعبياً تلقائياً على هذا الحادث على نحو ما حاولت الحكومة العثمانية تصوير هذه المذبحة ..

وقد جرت وفقاً للحظة المرسومة لها وتركزت بصفة خاصة في حي « خاص كوي » وهو حي الأرمن القريب من حي أيوب . واستمرت ثلاثة أيام هي أيام ٢٦ — ٢٧ — ٢٨ آب عام ١٨٩٦ .. وأسفرت عن سقوط سبعة آلاف قتيل منهم كثير من النساء والأطفال . غير أنه حفظاً للمظاهر لم تمتد إلى كتدرائية « قوم قابو » الأرمنية الأرثوذكسية ، كما أنها للوقية بين الأرمن الأرثوذكس وبين الأرمن الكاثوليك لم تشمل هؤلاء الآخرين .. ولجأ كثير من الأرمن أثناء سير المذابح إلى المساجد ومنازل كبراء الأتراك العثمانيين فأغاثهم وآواهم بعض أئمة المساجد وخاصة في حي أيوب .. وقد حقق غرضه ، وهو لفت نظر الدول الأوروبية والرأي العام العالمي والدولة العثمانية ذاتها ، وحال الغازي

المشير فؤاد باشا الشركسي دون امتداد المذابح إلى البر الآسيوي من العاصمة (اسكدار) . ولما بدأ سفراء الدول الأوروبية يظهرون امتعاضهم من انتشارها صدر أمر من السلطان عبد الحميد الثاني بوقفها فتوقفت فجأة ...

وقدم سفراء الدول الأوروبية الستة الكبرى في العاصمة في يوم ٧ أيلول عام ١٨٩٦ ، مذكرة احتجاج شديدة على هذه المذابح ، وأشاروا إلى تدبيرها ، وطلبوا وقفها نهائياً ، وإعادة الأمن إلى نصابه ..

وقد بلغت حصيلة هذه المذابح التي تواصلت منذ في عام ١٨٩٤ حتى عام ١٨٩٦ قرابة مائة وخمسين ألف شهيد من الأرمن العثمانيين ، مات ثلثاهم قتلاً والثلث الباقي نتيجة للظروف القاسية التي لا يستها وهي التشريد والجوع ، والبرد ..

وهاجر مائة وألف أرمني عثماني من الدولة العثمانية إلى روسيا ودول البلقان ، وأوروبا ، وأمريكا ، وهبط عددهم إلى النصف في ولايات أرضروم ووان ، وبديس في شرق الأناضول .. ومجموعهم في كل الدولة العثمانية بنسبة العشر .. وأسدل الستار على هذه المذابح ببلاغ أصدرته الحكومة العثمانية يوم ١١ تشرين الثاني عام ١٨٩٦ .. وعدت فيه بأن تنفذ بكل دقة في ولاياتها الأرمنية الستة في شرق الأناضول ، بالنسبة لجميع الأرمن أحكام « الخط الشريف » و« خط كلخانة » و« الخط الهمايوني » و« الدستور العثماني » وأضافت إليها مرسومين مؤرخين في يومي ٢٢ كانون الأول عام ١٨٩٩ و ١١ تشرين الأول من العام نفسه بالعفو عن بعض الأرمن ، لكن كل ذلك كان وعوداً جوفاء ، حيث شددت رقابتها على الأرمن العثمانيين وأضافت اسم أرمنية إلى ألفاظ الحرية والثورة المحرم استعمالها في الصحف العثمانية ، وأوقفت العمل بدستور ملة الأرض الأرثوذكس .

ونقلت الحركات الثورية الأرمنية معظم نشاطها إلى خارج الدولة العثمانية ، وركزته على الدعاية والتعاون مع الحركات المعادية للسلطان عبد الحميد ، والتدريب على استعمال الأسلحة والقنابل لاغتياله بالذات ، وقد راح ضحية هذا التدريب الثوري ، الأرمني المعروف كريستابور ميكائيليان من مؤسسي حزب الطاشناق ورئيسه آنذاك ، حيث قتل بانفجار قنبلة في بلغاريا عام ١٩٠٥ ، ولم يبق في الدولة العثمانية إلا نشاط ثوري أرمني قليل منه إطلاق النار على بطريك الأرمن الجديد مفاكيا أورمانيان في ٦ حزيران ١٩٠٣ .

البريطاني السير ادجار فنست .. ورغم أن قوات الشرطة حاصرت البنك ، لكنها صددت عنه ، ولم تستطع استرداده بالقوة .. وتمكن سفراء الدولة الأوروبية من عقد تسوية بين الحكومة العثمانية وبين المهاجرين الأرمن ، تم بموجبها إخلائهم من البنك تحت حراسة تراجمة السفراء .. وتسفيرهم دون التعرض لهم إلى الخارج ووعدهم بتدخل الدول الأوروبية لحل المسألة الأرمنية .. فغادروا البنك في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ٢٧ آب عام ١٨٩٦ إلى تحت مدير البنك الذي نقلهم إلى السفينة الفرنسية الجيرونند ، التي أبحرت بهم إلى مرسيليا بفرنسا .. ويعتبر هذا الحادث هو أول حادث فدائي وطني وسياسي ثوري من نوعه في العصر الحديث ، ولم يسبق له مثيل ، وقد شد الانتباه ، إلى جدية المطالب الأرمنية وأثبت جرأة الأرمن واستماتتهم في مطالبهم وجدارتهم بها .. وأصدرت الحكومة العثمانية في اليوم التالي بلاغاً رسمياً عن الحادث ، كشف عن سوء نيته لأنها اعترفت فيه بأنها كانت تعلم بتدبيره مقدماً .. ولما كانت لم تحاول منع وقوعه فإن ذلك قد دل على أنها حاولت استغلاله لكي يكون مبرراً مقبولاً لمذبحتها التي كانت دبرتها قبل وقوعه وحددت لها نفس اليوم ..

وقد وقعت هذه المذبحة في العاصمة فعلاً في الميعاد المحدد لها بعد وقوع حادث البنك العثماني بقليل بل وقبل وقوعه في بعض الأحياء ، الأمر الذي ينفي حدوثها بصفتها ردّاً شعبياً تلقائياً على هذا الحادث على نحو ما حاولت الحكومة العثمانية تصوير هذه المذبحة ..

وقد جرت وفقاً للحظة المرسومة لها وتركزت بصفة خاصة في حي « خاص كوي » وهو حي الأرمن القريب من حي أيوب . واستمرت ثلاثة أيام هي أيام ٢٦ — ٢٧ — ٢٨ آب عام ١٨٩٦ .. وأسفرت عن سقوط سبعة آلاف قتيل منهم كثير من النساء والأطفال . غير أنه حفظاً للمظاهر لم تمتد إلى كتدرائية « قوم قابو » الأرمنية الأرثوذكسية ، كما أنها للوقية بين الأرمن الأرثوذكس وبين الأرمن الكاثوليك لم تشمل هؤلاء الآخرين .. ولجأ كثير من الأرمن أثناء سير المذابح إلى المساجد ومنازل كبراء الأتراك العثمانيين فأغاثهم وآواهم بعض أئمة المساجد وخاصة في حي أيوب .. وقد حقق غرضه ، وهو لفت نظر الدول الأوروبية والرأي العام العالمي والدولة العثمانية ذاتها ، وحال الغازي

المشير فؤاد باشا الشركسي دون امتداد المذابح إلى البر الآسيوي من العاصمة (اسكدار) . ولما بدأ سفراء الدول الأوروبية يظهرن امتعاضهم من انتشارها صدر أمر من السلطان عبد الحميد الثاني بوقفها فتوقفت فجأة ...

وقدم سفراء الدول الأوروبية الستة الكبرى في العاصمة في يوم ٧ أيلول عام ١٨٩٦ ، مذكرة احتجاج شديدة على هذه المذابح ، وأشاروا إلى تدبيرها ، وطلبوا وقفها نهائياً ، وإعادة الأمن إلى نصابه ..

وقد بلغت حصيلة هذه المذابح التي تواصلت منذ في عام ١٨٩٤ حتى عام ١٨٩٦ قرابة مائة وخمسين ألف شهيد من الأرمن العثمانيين ، مات ثلثاهم قتلاً والثلث الباقي نتيجة للظروف القاسية التي لا يستها وهي التشريد والجوع ، والبرد ..

وهاجر مائة وألف أرمني عثماني من الدولة العثمانية إلى روسيا ودول البلقان ، وأوروبا ، وأمريكا ، وهبط عددهم إلى النصف في ولايات أرضروم ووان ، وبديس في شرق الأناضول .. ومجموعهم في كل الدولة العثمانية بنسبة العشر .. وأسدل الستار على هذه المذابح ببلاغ أصدرته الحكومة العثمانية يوم ١١ تشرين الثاني عام ١٨٩٦ .. وعدت فيه بأن تنفذ بكل دقة في ولاياتها الأرمنية الستة في شرق الأناضول ، بالنسبة لجميع الأرمن أحكام « الخط الشريف » و« خط كلخانة » و« الخط الهمايوني » و« الدستور العثماني » وأضافت إليها مرسومين مؤرخين في يومي ٢٢ كانون الأول عام ١٨٩٩ و١١ تشرين الأول من العام نفسه بالعفو عن بعض الأرمن ، لكن كل ذلك كان وعوداً جوفاء ، حيث شددت رقابتها على الأرمن العثمانيين وأضافت اسم أرمنية إلى ألفاظ الحرية والثورة المحرم استعمالها في الصحف العثمانية ، وأوقفت العمل بدستور ملة الأرض الأرثوذكس .

ونقلت الحركات الثورية الأرمنية معظم نشاطها إلى خارج الدولة العثمانية ، وركزته على الدعاية والتعاون مع الحركات المعادية للسلطان عبد الحميد ، والتدريب على استعمال الأسلحة والقنابل لاغتياله بالذات ، وقد راح ضحية هذا التدريب الثوري ، الأرمني المعروف كريستابور ميكائيليان من مؤسسي حزب الطاشناق ورئيسه آنذاك ، حيث قتل بانفجار قنبلة في بلغاريا عام ١٩٠٥ ، ولم يبق في الدولة العثمانية إلا نشاط ثوري أرمني قليل منه إطلاق النار على بطريك الأرمن الجديد مغاكيا أورمانيان في ٦ حزيران ١٩٠٣ .

بعد ذلك جرت مذايح جديدة على نطاق واسع في توقات بشرق الأناضول يومي ١٩ و ٢٠ آذار ١٨٩٧ ، ثم في جبل صاصون في المدة من ١١ إلى ١٥ آب ١٩٠٣ ثم في المدة من ٢٥ نيسان إلى ٢٩ أيار ١٩٠٤ . ورد عليها الأرمن بمحاولة اغتيال عبد الحميد الثاني ذاته في العاصمة بجهاز متفجر لم يصبه وذاك في ٢١ تموز ١٩٠٥ .

الفصل الحادي عشر

انقلاب ١٩٠٨

نقلت المعارضة للحكم الاستبدادي نشاطها ، إلى خارج الدولة العثمانية منذ عام ١٨٩٧ ، حيث تبلورت في منطمتين هامتين ، هما :

— حركة تركيا الفتاة ، التي كانت امتداداً لحركة « لجنة الاتحاد والترقي » ، وقد تركز هدفها على التعصب للقومية التركية وتأكيد وجودها في الدولة العثمانية ، وتزعم هذه الحركة أحمد رضا .

— حركة الأحرار العثمانيين ، التي دعت إلى مساواة وتوحيد كافة قوميات الدولة العثمانية على أساس فيدرالي — ليبرالي ، وتزعمها الأمير صباح الدين ابن اخت السلطان عبد الحميد ذاته .

وكان للأرمن منظماتهم الثورية التي وجهت نشاطها ضد كل أشكال الاستبداد ،

ومن الطبيعي أن يكون تعاونها حسب منطق الأمور ، مع حركة الأحرار ، ولهذا شاركت بمؤتمر باريس الذي انعقد في الفترة من ٤ إلى ٩ شباط ١٩٠٢ ، والذي ضم حركة تركيا الفتاة ، والأحرار العثمانيين ، والمنظمات الأرمنية .

وبما أن المؤتمر لم يسفر عن توحيد جهود المعارضة ، دعا حزب الطاشناق إلى مؤتمر باريس الثاني من ٢٧ إلى ٢٩ كانون الأول ١٩٠٧ ، الذي ضم حركة تركيا الفتاة ومثلها أحمد رضا ، وحركة الأحرار العثمانيين ومثلها الأمير صباح الدين ، وحزب الطاشناق ممثلاً بنخشادور مالوميان ، وأصدر المؤتمر بياناً عن وسائل تنظيم المعارضة في الدولة العثمانية ، لكن اتفاق هذه الحركات كان ظاهرياً ، حيث بقيت حركة تركيا الفتاة في جهة ، وحركة الأحرار والطاشناق في جهة ثانية .

وفي العام ١٩٠٨ ، تمكن الاتحاديون من الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني ، وآلت السلطة إلى الضباط الممثلين للجناح المتطرف لحركة تركيا الفتاة ، حيث ظهر فيما بعد ، والمؤلف من الثالوث طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا ، وهم رئيس الوزراء ووزيري الحرب والبحرية .

في البداية ، رحب الأرمن بالانقلاب ، إذ ، خيل لهم أن الاضطهاد سيرفع عنهم ، وأنهم سيمنحون حرية ممارسة حياتهم الخاصة . إلا أنهم لم يدركوا أن هذا الانقلاب كان بمثابة صهوة الموت في الدولة العثمانية ، وأنه سيفضي إلى المزيد من المذابح ، فقد انحرف ثالوث « الباشاوات » السابق الذكر ، عن مبادئ « الثورة » ، وأقام حكماً ديكتاتورياً أشد استبداداً وإرهاباً من حكم عبد الحميد الثاني .

ففي نيسان ١٩٠٩ ، وقعت مذابح جديدة بحق الأرمن في إقليمي قليقية وأنطاكية وشملت ، أضنة ومرعش ومرسين وهجين واللاذقية ، وراح ضحيتها قرابة خمسة عشر ألف أرمنياً ، وذلك على الرغم من محاولة بريطانيا وألمانيا إيقافها بالقوة ، عبر إرسالهما سفناً حربية إلى الاسكندرون . وقد عرض على مجلس المبعوثين « النواب » العثماني آنذاك ، تقريران متناقضان عن هذه المذابح ، أحدهما من العضو التركي يوسف كمال ، والثاني من العضو الأرمني آغوب بابيكيان ، وقبل الأرمن على مضض تبرير الحكام العثمانيون الجدد

لهذه المذابح ، وتأكيداً لحسن نواياهم قبل الأرمن مساعي نائب القسطنطينية غريغور زوهراب ، وتصالحوها مع العثمانيين .

وقد سجل مطران أضنة « موشع » هذه المذابح في كتابه المعروف « صلوات المغرب على قليقية » وحكم العثمانيون على المؤلف غيايياً بالسجن خمسون عاماً ، كذلك أبعدها مطران الأرمن الكاثوليك بول تريزيان عن الدولة العثمانية عام ١٩١٣ لتنديده بهذه المجازر . في عام ١٩١٢ ، خسرت الدولة العثمانية آخر أملاكها في إفريقيا ، وذلك نتيجة احتلال إيطاليا لليبيا ، وبعد عام ، خسرت مقدونيا وتراقية ، نتيجة الحرب البلقانية التي أعلنتها بلغاريا واليونان والصرب على العثمانيين .

وفي هذه الحرب جندت الدولة العثمانية الأرمن في جيوشها لأول مرة ، وشكلت منهم وحدات خاصة ، وقد وجد الأرمن في هذه المسألة فرصة لإثبات حسن نواياهم وولائهم ، ومن ثم الوصول إلى حقوقهم ، ولاح لهم أن هذه الحقوق المتمثلة بتنفيذ إصلاحات معاهدة برلين ، باتت قريبة ، وذلك بعد أن تولى الفقيه الأرمني في القانون الدولي العام جبرائيل نورادونجيان وزارة الخارجية في وزارة أحمد مختار باشا . كذلك تعززت آمالهم بعد قيام الثورة الشعبية الفارسية في إيران ضد استبداد الشاه محمد علي القاجاري ، حيث شارك الأرمن المقيمين هناك بهذه الثورة ، وكان من أبرز زعمائها الأرمني سعيد أفرايم الذي عين قائداً لشرطة طهران بعد نجاح الثورة عام ١٩٠٩ .

لكن رغم كل ذلك ، تزايدت الاعتداءات على الأرمن في نيسان ١٩١٢ بولايي أرضروم وبديليس ، فقدم البطريرك زافين أغيايان ، بناء على قرار مجلس الملة ، مذكرتين إلى الحكومة العثمانية لفت فيهما نظرها إلى ما يحدث للأرمن ، ويحذرهما من العواقب ، وفي الوقت نفسه ، اتصل بوغوص نوبار باشا ، وبتكليف من جاثليق الأرمن في اتشميزاين كيفورك الخامس ، بزعماء الدول الأوروبية ، موضحاً وجوب تنفيذ الإصلاحات تحت رقابة روسية ودولية .

وبالفعل قامت روسيا بالاتصال مع الدول الأوروبية بهدف تدويل المسألة الأرمنية ، كما اتصل سفيرها جيزر بالقسطنطينية ، مع وزير الخارجية محمد سعيد حليم باشا ، ففضل

ومن الطبيعي أن يكون تعاونها حسب منطق الأمور ، مع حركة الأحرار ، ولهذا شاركت بمؤتمر باريس الذي انعقد في الفترة من ٤ إلى ٩ شباط ١٩٠٢ ، والذي ضم حركة تركيا الفتاة ، والأحرار العثمانيين ، والمنظمات الأرمنية .

وبما أن المؤتمر لم يسفر عن توحيد جهود المعارضة ، دعا حزب الطاشناق إلى مؤتمر باريس الثاني من ٢٧ إلى ٢٩ كانون الأول ١٩٠٧ ، الذي ضم حركة تركيا الفتاة ومثلها أحمد رضا ، وحركة الأحرار العثمانيين ومثلها الأمير صباح الدين ، وحزب الطاشناق ممثلاً بنحشادور مالوميان ، وأصدر المؤتمر بياناً عن وسائل تنظيم المعارضة في الدولة العثمانية ، لكن اتفاق هذه الحركات كان ظاهرياً ، حيث بقيت حركة تركيا الفتاة في جهة ، وحركة الأحرار والطاشناق في جهة ثانية .

وفي العام ١٩٠٨ ، تمكن الاتحاديون من الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني ، وآلت السلطة إلى الضباط الممثلين للجناح المتطرف لحركة تركيا الفتاة ، حيث ظهر فيما بعد ، والمؤلف من الثالوث طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا ، وهم رئيس الوزراء ووزيري الحرب والبحرية .

في البداية ، رحب الأرمن بالانقلاب ، إذ ، خيل لهم أن الاضطهاد سيرفع عنهم ، وأنهم سيمنحون حرية ممارسة حياتهم الخاصة . إلا أنهم لم يدركوا أن هذا الانقلاب كان بمثابة صهوة الموت في الدولة العثمانية ، وأنه سيفضي إلى المزيد من المذابح ، فقد انحرف ثالوث « الباشاوات » السابق الذكر ، عن مبادئ « الثورة » ، وأقام حكماً ديكتاتورياً أشد استبداداً وإرهاباً من حكم عبد الحميد الثاني .

ففي نيسان ١٩٠٩ ، وقعت مذابح جديدة بحق الأرمن في إقليمي قليقية وأنطاكية وشملت ، أضنة ومرعش ومرسين وهجين واللاذقية ، وراح ضحيتها قرابة خمسة عشر ألف أرمنياً ، وذلك على الرغم من محاولة بريطانيا وألمانيا إيقافها بالقوة ، عبر إرسالهما سفناً حربية إلى الاسكندرونة . وقد عرض على مجلس المبعوثين « النواب » العثماني آنذاك ، تقريران متناقضان عن هذه المذابح ، أحدهما من العضو التركي يوسف كمال ، والثاني من العضو الأرمني آغوب بابيكيان ، وقبل الأرمن على مضض تقرير الحكام العثمانيين الجدد

لهذه المذابح ، وتأكيداً لحسن نواياهم قبل الأرمن مساعي نائب القسطنطينية غريغور زوهراب ، وتصالحوها مع العثمانيين .

وقد سجل مطران أضنة « موشع » هذه المذابح في كتابه المعروف « صلوات المغرب على قليقية » وحكم العثمانيون على المؤلف غيائياً بالسجن خمسون عاماً ، كذلك أبعدها مطران الأرمن الكاثوليك بول تريزيان عن الدولة العثمانية عام ١٩١٣ لتنديده بهذه المجازر . في عام ١٩١٢ ، خسرت الدولة العثمانية آخر أملاكها في إفريقيا ، وذلك نتيجة احتلال إيطاليا لليبيا ، وبعد عام ، خسرت مقدونيا وتراقية ، نتيجة الحرب البلقانية التي أعلنتها بلغاريا واليونان والصرب على العثمانيين .

وفي هذه الحرب جندت الدولة العثمانية الأرمن في جيوشها لأول مرة ، وشكلت منهم وحدات خاصة ، وقد وجد الأرمن في هذه المسألة فرصة لإثبات حسن نواياهم وولائهم ، ومن ثم الوصول إلى حقوقهم ، ولاح لهم أن هذه الحقوق المتمثلة بتنفيذ إصلاحات معاهدة برلين ، باتت قريبة ، وذلك بعد أن تولى الفقيه الأرمني في القانون الدولي العام جبرائيل نورادونجيان وزارة الخارجية في وزارة أحمد مختار باشا . كذلك تعززت آمالهم بعد قيام الثورة الشعبية الفارسية في إيران ضد استبداد الشاه محمد علي القاجاري ، حيث شارك الأرمن المقيمين هناك بهذه الثورة ، وكان من أبرز زعمائها الأرمني سعيد أفرام الذي عين قائداً لشرطة طهران بعد نجاح الثورة عام ١٩٠٩ .

لكن رغم كل ذلك ، تزايدت الاعتداءات على الأرمن في نيسان ١٩١٢ بولايي أرضروم وبديليس ، فقدم البطريرك زافين أغيايان ، بناء على قرار مجلس الملة ، مذكرتين إلى الحكومة العثمانية لفت فيهما نظرها إلى ما يحدث للأرمن ، ويحذرهما من العواقب ، وفي الوقت نفسه ، اتصل بوغوص نوبار باشا ، وبتكليف من جاثليق الأرمن في اتشميزاين كيفورك الخامس ، بزعماء الدول الأوروبية ، موضحاً وجوب تنفيذ الإصلاحات تحت رقابة روسية ودولية .

وبالفعل قامت روسيا بالاتصال مع الدول الأوروبية بهدف تدويل المسألة الأرمنية ، كما اتصل سفيرها جيزر بالقسطنطينية ، مع وزير الخارجية محمد سعيد حليم باشا ، ففضل

أن يكون الحل عثمانيًا . لكن الاتصالات أدت إلى صدور تعليمات من الدول الستة الكبرى — بريطانيا ، فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، النمسا ، إيطاليا — ، إلى سفرائها في العاصمة العثمانية ، تقضي بوضع مشروع دولي محدد حول الإصلاحات .

وحين تم وضع هذا المشروع ، اعترض عليه سفير ألمانيا ، ثم قدمت الحكومة العثمانية مشروعاً مقابلاً له ، ولهذا انعقد مؤتمر « بني كوي » دون التوصل إلى اتفاق . غير أن روسيا واصلت مساعدتها وتمكن سفيرها من الاتفاق مع سفير ألمانيا « فانغهايم » ، على مشروع آخر يتضمن اعتبار الولايات الأرمنية العثمانية التي يقطنها الأرمن سبع ولايات هي « طرابزون ، أرضروم ، سيواس ، وان ، بدليس ، خربوط ، ديار بكر » . وتقسيمها إلى إقليمين ، يضم الأول الولايات الثلاثة الأولى ، والثاني ما تبقى ، وأن تعين الحكومة العثمانية لكل منها ، مفتشاً عاماً من إحدى الدول الأوروبية ، وأن تراقب الدول الستة تنفيذ الإصلاحات .

لكن الحكومة العثمانية لم توافق على هذا المشروع رغم إقراره من الأوروبيين ، فتم تعديله وأُبرم في ٨ شباط ١٩١٤ بين كل من الدولة العثمانية وروسيا ، وقد تضمن التعديل ، أن يكون عدد المسيحيين في هيئات بعض الولايات يتناسب وعددهم فيها لا النصف كما نص عليه المشروع السابق .

وبدأت الحكومة العثمانية بتنفيذ الاتفاق ، فعينت مفتشين عامين للاقليمين المذكورين ، هما « وستيك » من هولندا ، و« هوف » من الزوج ، كذلك وافقت على زيادة أعضاء مجلس النواب العثماني من الأرمن ، على أن يختارهم البطريرك .

لكن الحرب العالمية الأولى التي قامت في العام ١٩١٤ ، قلبت كل الحسابات ، ولم ترَ الإصلاحات التي تاق إليها الأرمن النور أبداً .

الفصل الثاني عشر

النّهضة الفكرية

بدأت النهضة الفكرية الأرمنية في مطلع القرن الثامن عشر ، وأول روادها هو رئيس الرهبان مخيطار السباسطي الذي أقام الاتصال الحقيقي بين الشعب الأرمني وبين الغرب .. وفكره في العصور الحديثة .. وقد ولد في عام ١٦٧٦ بسبطه أو سيواس بشرق الأناضول .. وترهبين عام ١٦٩٠ ، وأنهى دراسته العلوم الدينية في أرضروم ، حيث اتصل بالمرسلين اليسوعيين عام ١٦٩٩ ، ثم انتقل إلى العاصمة القسطنطينية عام ١٧٠٠ . وفيها شاع عنه إعجابه بالغرب بل وسعيه إلى توحيد الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية في الكنيسة الكاثوليكية في روما ، ورغب في السفر إلى هذه المدينة فلم يرق ذلك لا للسلطات العثمانية ولا لسلطات الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية ، فلجأ إلى السفارة الفرنسية ثم إلى دير الكبوشيين حيث أسس به في ٨ أيلول عام ١٧٠١ الرهبنة المخيطارية للأرمن الكاثوليك بهدف إيقاظ أرمنية من خلال إرسال الإرساليات إليها ومدها بالكتب الثقافية .. ثم انتقل

إلى شبه جزيرة المورة الاغريقية التي كانت تابعة لجمهورية البندقية عام ١٧٠٣ .. واعترف البابا بروما وهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية برهبانيته عام ١٧١٥ .. ثم انتقل في العام نفسه إلى البندقية ذاتها أي إلى إيطاليا إثر قيام الحرب بين الدولة العثمانية والبندقية في العام المذكور .

وأعطته سلطات البندقية جزيرة لعازار ليستقر فيها عام ١٧١٧ فأقام بها ديراً لرهبانيته واتخذ مركزاً لنشاطه العلمي حتى وفاته عام ١٧٤٩ .. وبعد وفاته واصل أتباعه الرهبان المخطاريون هذا النشاط فأسسوا فروعاً في فيينا بالنمسا حيث أقاموا ديراً آخر ، وفي باريس بفرنسا وغيرهما ..

وفي عام ١٨١٦ أنشأوا في مقرهم الرئيسي معهداً أو أكاديمية لدراسة اللغة الأرمنية والتاريخ الأرمني ..

وتضمن النشاط العلمي للرهبان المخطارين العمل على المحافظة على اللغة الأرمنية لكونها المعبرة عن أصالة وشخصية الشعب الأرمني .. إذ هي فرع قائم بذاته من مجموعة اللغات الآرية ولها حروفها الخاصة .. وخشية من ضياعها وضياح الشعب الأرمني بالتالي .. فقد بدأ أبناءه يتكلمون بجانبها اللغة التركية العثمانية ، ويكتبون هذه اللغة بحروف أرمنية ، وتضمن هذا النشاط أيضاً تعريف الشعب الأرمني بأدابه وفنونه القديمة وبتاريخه الطويل الحافل ، حتى يعرف أصالته وعراقه ماضيه .. فيصلح أحواله السيئة التي تردى إليها ..

ومن مظاهر هذا النشاط تأليف الأبائي مخطار السباسطي ذاته أجرومية أرمنية ، وقاموس اللغة الأرمنية القديمة للذين طبعا عام ١٧٢٧ ثم قاموس كبير للغة الأرمنية طبع بعد وفاته في المدة من عام ١٧٤٩ حتى عام ١٧٦٩ ، وألف الأب جوكاس أندججيان جغرافية لأرمنية الحديثة التي طبعت عام ١٨٠٦ ، وأخرى لأرمنية القديمة التي طبعت عام ١٨٢٨ ، وألف الأب مكرديش أفكاريان قاموس للغة الأرمنية الكبير .. ونشر عيون الأدب الأرمني القديم في عام ١٨٠٠ وحتى عام ١٨٢٤ بإشراف الأب كيوفر .. كما كان من أبرز الرهبان المخطارين في البندقية الأب حنا زوهراب ناشر أحسن نسخة للكتاب المقدس باللغة الأرمنية وفي القرن الثامن عشر أيضاً ظهرت نهضة فكرية أرمنية أخرى موازية للنهضة الفكرية الأرمنية التي بعثها الرهبان المخطاريون في الغرب ، وذلك في أرمنية

الشرقية التي كانت تحت الحكم الفارسي وفي اقليم ما وراء القوقاز .. وقد تزعمها المفكران الأرمنيان إسرائيل أورى ، ويوسف أمين اللذان اتصلا وغيرهما بالدولة الروسية القيصرية وكرسا نشاطهما الفكرية لإنهاض أرمنية وانتشالها من وهبتها ..

كما كان من رواد هذه النهضة المؤكدين على شخصية أرمنية شاعرها الأكبر صيات نوبا .. واسمه الحقيقي أرتين سعيديان الذي عاش في تفليس في بلاط ملك جورجيا هرقل الثاني البجراطي ، وألف أشعاره وأغانيه باللغات الأرمنية والكرجية والآذربيجانية ثم ترهب .. وقد قتل في الغارة الفارسية على تفليس عام ١٧٩٥ ، وقد امتدت هاتان النهضةان الفكرتان الأرمنيتان إلى أرمنية الغربية العثمانية وسائر الدولة العثمانية ..

وكان ممن تعرف على أرمنية والأرمن وكتب عنهم من فطاحل الفلاسفة الفرنسيين فولتير ، وروسو .. والألماني « كانت » في القرن الثامن عشر والشاعر البريطاني الكبير لورد بيرون ، الذي تعلم مبادئ اللغة الأرمنية ، وتحمس لتحرير الأرمن ..

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر دخلت النهضة الفكرية الأرمنية مرحلة جديدة إثر تصريح الحكومة العثمانية عام ١٧٩٠ بفتح المدارس غير الدينية ليتعلم فيها رعاياها المسيحيون ومنهم الأرمن ، فظهرت المدارس والمعاهد لتعليم البنين والبنات . وبدأ يتخرج منها الأرمن الذين يطمحون لاستكمال تعليمهم في جامعات أوروبا وروسيا ..

وتخرج من هذه المدارس والجامعات والمعاهد العالية جيل أرمني جديد مثقف بالثقافة الأوروبية كان له أكبر الأثر في مواصلة السير بالنهضة الأرمنية وتطويرها ومنهم الكاتب الكبير والوطني الغيور خشادور أبوفيان مؤسس الأدب الأرمني الحديث ومخرجه من وسطه الكنسي إلى العالم الخارجي .. إذ كتب باللغة الأرمنية المتداولة المعروفة « بالأشخاربار » ..

كما ألف قصة معبرة عن الآلام التي قاساها الشعب الأرمني .. تحت عنوان « جراح أرمنية » . ثم الكاتبان الكبيران الغيوران أيضاً ميكائيل نالبانديان مترجم عيون الأدب الروسي إلى اللغة الأرمنية .. وهاجوب ملك هاجوبيان الشهير برافي أكبر الروائيين الأرمن الذي وصف أيضاً هذه الآلام وآماله في مؤلفاته ومنها قصة « الوميض » ثم الكاتب

المسرحي جبرائيل صندوقيان أكبر الكتاب المسرحيين الأرمن مؤلف مسرحية « بيو » .. ثم الرسام الفنان هوفانس ايفازوفسكي الذي تخصص في رسم المناظر البحرية وحضر افتتاح قناة السويس بمصر عام ١٨٦٩ ، ورسم مناظره ومناظر الآثار المصرية القديمة وأولها الأهرام وأبي الهول ..

ومن هؤلاء الخريجين أيضاً الجائلين خريمان هايريك الذي رأس وفد الأرمن العثمانيين إلى مؤتمر برلين الدولي عام ١٨٧٨ ، ثم انتخب جاثليقاً لكل الأرمن الأرثوذكس من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٩٠٧ — وكان المدافع الأول عنهم إبان مذابحهم في الدولة العثمانية .. وبرز كذلك الشاعر بدروس طوريان ، والناقد الساخر هاجوب بارونيان ، والشاعر والموسيقيار العالمي سلامون سلامونيان الشهير بكوميداس رائد الموسيقى الأرمنية الحديثة .

ومن جيل مثقفي الأرمن العثمانيين في القرن التاسع عشر الذي يجدر ذكرهم أيضاً أرسين البجرايطوني مؤلف ملحمة هايك توقسازن الشعرية التي ظهرت عام ١٨٥٨ عن تاريخ الشعب الأرمني ، وملكه الأسطوري هايك .. ثم غفوند عاليشان مؤلف ملحمة « هايروني » عن مفآخر الشعب الأرمني وأمجاده الوطنية ..

كذلك تجدر الوقفة عند المفكر الأرمني يوسف أمين الذي سجل سيرته الشخصية باللغة الانكليزية وطبعت في لندن عام ١٧٩٢ ، وخلاصتها أنه ولد في مدينة همدان الإيرانية عام ١٧٢٦ ، ثم انتقل مع أسرته إلى بغداد عام ١٧٣٣ ومنها إلى الهند حيث ترقى وتعلم ، وبعد أن طاف في أوروبا الغربية دون أن يجد تعاطفاً مع أرمنية ، زار بلاده عام ١٧٦٠ وقابل في اتشيميازين الجاثليق هاغوب الخامس ، ثم راح يخالط الفلاحين والبسطاء ويتلو عليهم أمجاد أرمنية التاريخة ، فكانوا يدهشون ولا يصدقون أن هذا هو ماضي أسلافهم ، ونظروا إلى يوسف أمين على أنه « نبياً » أخبرهم بما لا يعرفونه ، وكانوا يتسابقون إلى تقبيل أقدامه . وبعد أن زار بطرس برغ عاصمة روسيا واجتمع إلى حكامها ، عاد إلى الهند حيث شارك المفكرين الأرمنيين شامير شاميريان وموسيس باجرميان في تأسيس أول مطبعة أرمنية بمدينة مدراس عام ١٧٧١ .

ويرتبط بالنهضة الفكرية الأرمنية بدء الطباعة والصحافة ، فقد طبع أول كتاب

باللغة الأرمنية عام ١٥١٢ في مدينة البندقية وهو عبارة عن تقويم كنسي ، وكانت اللغة الأرمنية هي خامس لغة تطبع بها الكتب بعد اللغات اللاتينية والاغريقية والعربية والعبرية منذ اختراع فن الطباعة ، وطبع الكتاب المقدس لأول مرة باللغة اللاتينية عام ١٤٥٣ ، إلا أنه لم يطبع باللغة الأرمنية إلا في عام ١٦٦١ بمدينة أمستردام ، وفي عام ١٥٩٥ ، أسس الأرمني العثماني أبكار التوقاتي أول مطبعة باللغة الأرمنية في مدينة البندقية ، ثم نقلت إلى إحدى الكنائس الأرمنية في القسطنطينية بعد سنتين ، ولم تؤسس مطبعة باللغة الأرمنية في أرمنية ذاتها إلا في عام ١٧٧٤ في اتشميآتزين .

أما أول صحيفة أرمنية فهي ازدرار ، وقد أسستها الجالية الأرمنية بمدينة مدارس الهندية عام ١٧٩٤ ، وأسس الرهبان المخيطاريون بالبندقية ثاني صحيفة أرمنية ، وتأسست ثالث صحيفة باسم « رقيب » عام ١٨١٢ بالقسطنطينية . بعد ذلك توالى ظهور الصحف الأرمنية ، وكانت أهمها « هايرونيك » التي أسسها الصحفي الأرمني اراييار اراياريان عام ١٨٨٥ . وكانت أهم المجلات الأرمنية العثمانية « نسر البسفرجان » و « نسر طارون » . وأسست أول صحيفة بالأملآك الروسية عام ١٨٤٦ ، وتلتها صحيفة « أارات » عام ١٨٥٠ ، وكانت أهم صحيفة أرمنية روسية هي صحيفة « ميشاك » أي الفلاح .

أخيراً ، أدت النهضة الأرمنية الفكرية إلى تنور الأرمن ، حيث هالهم فقدان وطنهم لاستقلاله واقتسامه بين الدولتين العثمانية والروسية القيصرية . الأمر الذي أدى إلى ظهور الروح الوطنية وتشكيل لجان وجمعيات وأحزاب سرية ثورية ، سيرد تفصيلها لاحقاً .

الفصل الثالث عشر

الانضمام إلى روسيا القيصرية

يعتبر انضمام أرمينية الشرقية إلى روسيا القيصرية في العام ١٨٢٨ ، محطة هامة ، في تاريخ الشعب الأرمني ، حيث نجا الأرمن في هذه الدولة ، من مذابح الإبادة التي تعرضت لها أرمينية الغربية ، على يد الدولة العثمانية .

ويرجع الاتصال بين الروس والأرمن إلى عام ٩٤٤ ، في عهد الأمير ايفور ، أمير الدولة الروسية الكيفية ، حيث شن الروس حملة بحرية ونهرية إلى اقليم ما وراء القوقاز ، وتوغلوا إلى داخل أرمينية الأولى واستولى على عاصمتها « بردعة » . إلا أنهم انسحبوا بعد بضعة سنوات ، واعتبرت هذه الحملة فاتحة القضاء على دولة الخزر عام ٩٦٥ ، في عهد الأمير سيفيا توسلاف .

ومن الاتصالات الأخرى ، يذكر ، استيطان تجار وأطباء وحرفيين من الأرمن في



خبز ... وماء ... وملح ... رمز الكرم الأرمني

إمارة كييف ، في القرن الحادي عشر ، وفي القرن الرابع عشر ، هاجر كثير من الأرمن إلى شبه جزيرة القرم حتى سميت « بأرمنية البحرية » ، وعرفت موسكو في القرن السادس عشر جالية أرمنية كبيرة ، نتيجة إرغام القيصر ايفان الرهيب ، التجار والحرفيين الأرمن على النزوح من بلدة فازان إلى العاصمة الروسية ، حيث خصص لهم في كاتدرائية « فاسيلي المبارك » جناحاً سمي بالجناح الأرمني ، وذلك في عام ١٥٥٥ .

وفي عام ١٥٦٩ ، وقعت أولى الحروب الروسية — العثمانية ، والتي دشت مرحلة من النزاع الشديد بين الطرفين ، بغية السيطرة على الأملاك الواقعة بينهما ، وضمها إقليم ما وراء القوقاز ، وعلى اعتبار أنه لم يكن للأرمن في ذلك الوقت ، لا دولة ولا ملك ، فقد تزعمهم جاثليقهم الأكبر الأرثوذكسي ، الذي تطلع إلى المساعدة والحماية من أوروبا بادئ الأمر ، ثم من روسيا القيصرية ، حيث وجه الجاثليق هاغوب الرابع جوغاسي ، رسالة إلى القيصر فيودور الثالث ، ثم إلى ملوك غرب أوروبا والبابا في روما ، بشأن استقلال أرمنية ، وذلك بناء على قرار مؤتمر أرمني سري عقد في اتشميازين عام ١٦٧٨ .

بعد ذلك ، استؤنفت الحروب العثمانية — الروسية التي امتدت حتى الحرب العالمية الأولى ، وبلغت ثلاثة عشر حرباً ، وفي موازاتها ، قامت عشرة حروب بين العثمانيين والفرس ، وثلاثة حروب بين الروس ، والفرس ، وستتوقف عند أهم الحروب التي انعكست نتائجها على الشعب الأرمني ، أرضاً ووجوداً وحقوقاً .

فقد أثارت الحملة التي قادها القيصر بطرس الأكبر عام ١٧٢٢ إلى إقليم القوقاز ، والتي كانت الحرب الروسية — الفارسية الأولى . أثارت حماساً كبيراً بين الأرمن والكرج ، حيث خيل لهم أن القيصر اقترب بمن السيطرة على الإقليم المذكور ، ومن ضمه إلى روسيا القيصرية . فأرسل له جاثليق الأرمن نرسييس من مقره في شوشه بإقليم قره باخ ، رسالة يحثه فيها على وضع الأرمن تحت حمايته لأنهم حسب ما ورد في الرسالة « أسرى بيد الذين يذبحونهم وينهبونهم ليل نهار » . وبالفعل تكونت كتائب من المتطوعين الأرمن والكرج ، لمساعدة قوات القيصر ، على أمل الاستقلال والتحرير ، وكان في مقدمة هؤلاء داود بك القره باخي الذي حصل على استقلال حقيقي لإقليم قره باخ من عام ١٧٢٢ إلى ١٧٣٠ ، وقد سجل بطولته في رواية عنه الكاتب الأرمني المعروف رافي في القرن التاسع

عشر . أما من جهته ، فقد بعث القيصر بطرس الأكبر ، الأرمني إيفان كره بتيان لاستنفار الأرمن المقيمين في منطقة عمليات حملته على الساحل الغربي لبحر قزوين ، وقد تمكن هذا المبعوث من جعل زعماء إقليم قره باخ ، يبرمون معاهدة تحالف ودفاع مشترك ضد الدولة العثمانية وذلك في ٣٠ آذار عام ١٧٢٤ .

وعلى هذا ، كادت أن تنشب حرب جديدة بين الدولة العثمانية وروسيا ، إلا أن « لوناك » سفير فرنسا في القسطنطينية ، أقنع الطرفين بتفادي الحرب ، وأبرم بينهما معاهدة ٢٤ تموز في العام نفسه ، نصت على اقتسام الأملاك الفارسية ، الأمر الذي أسفر عن ضم الدولة العثمانية لكل أرمنية بما فيها مدن يريفان واتشمياتزين وناختشيفان ، وبناء على هذه المعاهدة احتلت القوات العثمانية يريفان وناختشيفان تم تبريز ، وسيطرت على إقليم القوقاز فيما عدا ما اختصت روسيا منه .

لكن إيران تمكنت من النهوض على قدميها ، وأسفرت الحرب الثامنة التي شنتها على الدولة العثمانية عام ١٧٣٣ ، عن معاهدة اسطنبول الثالثة ، التي تضمنت اعتراف العثمانيين « بنادر شاه » شاه إيران ، مقابل عودة الحدود بينهما طبقاً لمعاهدة ذهاب المؤرخة في ٧ أيار ١٦٣٩ . كذلك أسفرت الحرب التاسعة التي انتهت بمعركة « اغفرد » الثانية قرب اتشمياتزين عام ١٧٤٥ ، عن معاهدة كردان التي بقيت بموجبها أرمنية الشرقية تحت الحكم الفارسي .

وفي العام ١٧٦٨ نشبت الحرب الروسية — العثمانية السابعة ، وانتهت بمعاهدة صلح قينارجة عام ١٧٧٤ ، والتي نصت على اعتراف من الدولة العثمانية بحماية المسيحيين بما فيهم الأرمن ، الأمر الذي حدا بهم إلى التطلع نحو روسيا ، وتعلق آمالهم عليها مجدداً في تحررهم من الحكم العثماني ، لا سيما وأن القوات الروسية نصبت نفسها حامية لشعوب رومانية وبلغارية وجورجيا ، بعد دخولها بلادهم ، ثم شجعت الأرمن على الهجرة إلى روسيا ذاتها ، ومن مظاهر ذلك ، التصريح للأرمني غريغور خالديران بتأسيس مطبعة أرمنية في « بطرس برغ » والتي طبعت أول قاموس أرمني — روسي عام ١٧٨٨ .

ومنذ أوائل ١٧٨٠ ، بدأ تقارب كبير بين زعماء الروس والأرمن ، وفي أواخر العام

نفسه ، أعلن المؤتمر الأرمني الذي انعقد في اتشمياتزين برئاسة الجاثليق يوكاس الأول ، ولاءه لقيصرة روسيا كاترينا الثانية ، والتمسوا منها ، إرسال جيش أسوة بجورجيا ، وفي العام ١٧٨٣ ، أعد المفكر الأرمني شامير شاميريان والقس يوسف ارغوطيانتنس ، مشروعاً بوضع أرمينية تحت حماية روسيا .

وفي عام ١٧٩٥ ، بدأت إيران الحرب الروسية — الفارسية الثانية ، التي أدت إلى اختراق الفرس لأرمينية الشرقية ، واستباحة تفليس عاصمة جورجيا مدة ستة أيام قتل خلالها ثلاثة آلاف من سكانها الكرج والأرمن ، وكان ضمن القتلى أشهر شعراء أرمينية صيات نوبا . وبعد سقوط تفليس ، استسلمت يريفان للفرس ، ثم استنجد ملك جورجيا هرقل الثاني بالقيصرة كاترينا ، فأرسلت لنجدته جيشاً كبيراً لم يتمكن من اتمام مهمته بسبب وفاة القيصرة ، لكن روسيا تمكنت في العام ١٨٠١ من ضم مملكة جورجيا سلمياً لها ، ونتيجة لذلك أعرب الأرمن من جديد عن رغبتهم بالحماية الروسية ، فأقر القيصر اسكندر الأول طلبهم ، وفي عام ١٨٠٤ انهزم الفرس أمام الروس الذين انضمت اليهم فرق متطوعين من الأرمن والكرج ، واستطاعت القوات الروسية الاستيلاء على عدد من المدن الأرمينية .

ونتيجة مشاركة الأرمن والكرج القوات الروسية في تصديها لحملة نابليون بونابرت الشهيرة على روسيا في العام ١٨١٢ ، والتي انتهت إلى هزيمته ، أصدر القيصر اسكندر الأول مرسوماً في عام ١٨١٣ ، يقضي بمنع الجنسية الروسية لكل الأرمن المقيمين بأملأك روسيا القيصرية . وقد ترتب على نتائج الحرب الروسية — الفرنسية ، ان إيران لم تستطع مواصلة حربها ضد روسيا ، خاصة بعد هزيمتها في معركة أصلا ن دوز لعام ١٨١٢ ، حيث سعت إلى الصلح ووسطت من أجله الجاثليق ايفريم الأول ، مما حقق معاهدة جلستان وهي بلدة باقليم ناخشيفان ، وبموجبها أقرت إيران ضم روسيا لكل الأقاليم التي فتحتها في شمال القوقاز وما وراءه وأجزاء من أرمينية الشرقية وهي أقاليم جمرى وأرساخ وقره باخ .

وفي عام ١٨٢٦ ، دارت الحرب الروسية — الفارسية الثالثة والأخيرة نتيجة نقض إيران لمعاهدة جلستان ، وقد أسفرت هذه الحرب ، عن استيلاء القوات الروسية على اتشميازين وسردار آباد وناخشيفان في النصف الأول من عام ١٨٢٧ ، ثم فرض الحصار

على يريفان في ٢٠ حزيران من نفس العام . وفي الأول من تشرين الأول لهذا العام ، تمكنت القوات الروسية بقيادة الجنرال بسكافتش من اقتحام يريفان ، وقد وجه القائد الروسي رسالة إلى القيصر نقولاً الأول ، ينبئه فيها عن هذا الفتح الهام بقوله :

« إن مدينة يريفان التاريخية الشهيرة التي تهون إراقة بحار الدماء للاستيلاء عليها ، سقطت بيد قواتنا » وكان جواب القيصر ان منحة لقب أمير يريفان .. أما الأرمن فقد اعتبروا هذا اليوم ، عيداً لهم ، إذ تحررت أكبر مدنها ، وبات جزء هام من بلادهم تحت حماية روسيا وهو ما اعتقدوه مقدمة لاعادة استقلالهم الوطني بعد ان فقدوه قرابة خمسة قرون ، بدأت بسقوط مملكة أرمينية الصغرى بقلقية عام ١٣٧٥ .

وبعد فتح يريفان واصلت القوات الروسية زحفها إلى داخل أراضي إيران نفسها ، فاستولت على عدة مدن ، ثم عقدت معاهدة تركانشاي ، التي تضمنت موافقة إيران على الشروط الروسية للصلح ومؤداها ، ضم روسيا لجورجيا وأذربيجان وأرمينية الشرقية بما فيها ناخشيفان ، وان يكون للأرمن المقيمين في أملاك إيران حق الهجرة إلى أراضيهم التي ضمت إلى الأملاك الروسية ، وبالفعل بلغ مجموع المهاجرين الأرمن آنذاك قرابة أربعين ألفاً .

وما أن انتهت الحرب بين إيران وروسيا ، حتى نشبت الحرب الروسية — العثمانية العاشرة في ٢٦ نيسان ١٨٢٨ ، والتي طرقت خلالها القوات الروسية أبواب القسطنطينية ، حين استولت على مدينة ادرنة القريبة منها ، عام ١٨٢٩ ، مما اضطر الحكومة العثمانية إلى طلب الهدنة ، ثم التوقيع على معاهدة صلح ادرنة التي اعترفت بموجبها بأحكام معاهدتي اقرمان وتركانشاي ، وخاصة ضم أرمينية الشرقية إلى أملاك الدولة الروسية .

ونتيجة لهذه الحرب هاجر العديد من الأرمن من أرمينية الغربية العثمانية إلى أرمينية الشرقية الروسية . غير ان السلطات العثمانية حاولت منع هجرة الأرمن لحاجتها إلى خبراتهم ، فكانت تمنع رعاياها العثمانيين من شراء أملاكهم ، وترسل من يقنعهم بعدم الهجرة مثل القس الأرمني بارطليموس الذي كان يلقي المقولة الشهيرة اينما ذهب وهي « لو نزل المسيح بنفسه من السماء ليوحي إلينا أن نبقي في أملاك الدولة العثمانية فإننا لن نتبع

نصيحته » . وقد بلغت جملة المهاجرين الأرمن خلال عام ونصف قرابة خمسة وثلاثين ألفاً .

أما حرب القرم التي دافعت خلالها كل من فرنسا وبريطانيا عن الدولة العثمانية فقد انتهت بإبرام معاهدة باريس الدولية عام ١٨٥٦ . وفي عام ١٨٧٧ ، دارت الحرب الثانية عشرة بين الطرفين ، وانتهت إلى معاهدة سان ستيفانو الدولية ، التي تضمنت تنازل الدولة العثمانية عن جزء من أرمينية الغربية ، ولما لم تقر بريطانيا هذه المعاهدة ، استبدلت بمعاهدة برلين الدولية المؤرخة في ١٣ تموز ١٨٧٨ التي وقعت عليها كل الدول الأوروبية الكبرى مع الدولة العثمانية .

الفصل الرابع عشر

فَتْحٌ .. أَمْ تَحْرِيرٌ .. أَمْ تَوْسُّعٌ

لم يعتبر الأرمن بادئ الأمر ، ضم الدولة الروسية الأرمينية الشرقية فتحاً ، بل اعتبروه تحريراً لهم من نير حكم الشاه الإيراني ، والسلطان العثماني ، ومظالم أتباعهما . لكن الواقع أن هذا الظلم لم يكن إلا توسعاً للإمبراطورية القيصريّة .. إذ وقعت شعوب ما وراء القوقاز تحت حكمها الاستبدادي .. ولهذا لم تتحقق آمال الأرمن في الاستقلال وفي إصلاح أحوالهم ، بل على العكس من ذلك .. فقد وضعت الدولة الروسية في ٢٣ آذار عام ١٨٣٦ لكنيستهم الوطنية « نظاماً » للحد من نفوذها بحجة تنظيم شؤونها ولعاملتهم بصفة أقلية دينية أي ملة لا أمة شأن ما كانت تعاملهم به الدولة العثمانية بنظام الملل ..

ثم نفت المطران نرسيس اشتراكسي بتهمة إستيلائه على أموال الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية في اتشمياترين .. كما فرضت الرقابة على نشاط زعماء الأرمن في أرمينية الشرقية وفي كل إقليم وراء القوقاز ..

كذلك لم يرق للسلطات الروسية القيصرية وجود مقاطعة بأملاتها فيما وراء القوقاز تحمل اسم المقاطعة الأرمنية .. مع أنها هي التي أقامت بها عقب ضم أرمنية الشرقية إليها .. وأسمتها بهذا الاسم في ذلك الحين .. فقررت بعد عدة تقسيمات إدارية لهذه الأملاك في عام ١٨٤٤ أن تستبدل بهذه المقاطعة الأرمنية مراكز يريفان — وناخشيغان — واسكندربول — ثم جمعت هذه المراكز في عام ١٨٥٩ في محافظة واحدة أسمتها محافظة « يريفان » لا بالمحافظة الأرمنية ..

وتعرض للاضطهاد المفكر الأديب الأرمني الكبير والتقدمي خشادور أبوفيان مؤسس الأدب الأرمني الحديث ، الذي تعلم في جامعة دوربورث الروسية وأكبر داعية للصدقة بين الشعبين الأرمني والروسي ..

ثم المفكر الأرمني الثوري ميكائيل نالبانديان الذي نفى إلى سيبيريا ..

وحاولت الدولة الروسية جاهدة دمج الأقليات دينياً وعنصرياً في الروس الأمر الذي استمر طوال عهد القيصر اسكندر الثالث ثم في عهد خلفه القيصر الأخير نقولا الثاني حتى أوائل القرن العشرين .. وبلغ أوجه في أرمنية بإقفال المدارس الأرمنية فيها . وفي كل إقليم ما وراء القوقاز ، والبالغ عددها أربعمئة مدرسة في المدة من عام ١٨٨٤ حتى عام ١٨٨٩ .. وقد صرح القيصر نقولا الثاني في شهر أيلول عام ١٨٩٥ ، أنه سئم المسألة الأرمنية ويرغب في دنفها ، ثم بادر الأمير غريغوري جولتزن حاكم القوقاز الروسي المعادي للأرمن إلى إغلاق المدارس التي زاد عددها عن خمسمئة مدرسة مرة أخرى في عام ١٨٩٧ كما أغلق جمعية نشر الكتب الأرمنية في تفليس عام ١٩٠١ ، واستمر تدخله في شؤون الكنيسة الوطنية الأرمنية إلى أن صدر المرسوم المؤرخ في ٢٥ كانون ثاني عام ١٩٠٣ ، بمصادرة أملاكها وكان رد الأرمن على هذه الإجراءات التعسفية هو العصيان المدني .. ثم المظاهرات ، ثم الاضطرابات في كل مكان .. ثم الاعتداء على موظفي الحكومة الذي شمل هذا الحاكم نفسه .. إضافة إلى ذلك قررت الأحزاب الثورية الأرمنية أن توجه نشاطها أيضاً ضد القيصرية الروسية فوق السلطنة العثمانية التي كانت تركز عليها من قبل ...

وتطورت الحركة الأرمنية من مجرد فكرة إلى جمعيات ثورية سرية بدأت محلية ثم صارت عامة .. ثم نشأت عنها الأحزاب الثورية الأرمنية .. وكان أول هذه الجمعيات

ظهوراً هي جمعية اتحاد الخلاص في وان بأرمنية الغربية العثمانية التي تأسست عام ١٨٧٢ ، ثم جمعية الصليب الأسود . وجمعية حماة الوطن اللتان تأسستا في وان وفي أرضروم بأرمنية الغربية العثمانية أيضاً في عام ١٨٧٨ ، وفي عام ١٨٨١ ، ثم الجمعية الحمراء التي أسسها الثوري الأرمني الروسي هاجوب بدريكوف في القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية عام ١٨٩٠ . وكانت أول جمعية ثورية سرية عامة هي تلك التي أسسها في باريس الثوري الأرمني العثماني حنا بروسلي عام ١٨٨٨ والتي حظيت بتأييد المطران الأرمني خريميان هايريك ..

وأما الأحزاب الثورية الأرمنية التي تلى ظهورها الجمعيات السرية الأرمنية التي ارتبطت بها فكان أولها ظهوراً في عام ١٨٨٥ (حزب الأرمنجان) أي حزب الأرمن ، وهو الحزب الأرمني الحر المحافظ وقد أسسه بعض المدرسين الشبان بمدرسة المعلمين في (وان) بأرمنية الغربية العثمانية التي أنشأها مكردتش برتوغاليان أحد رواد الحركة الوطنية الأرمنية في عام ١٨٧٨ .

وكان هذا الحزب وطنياً أرمنياً لا يعتنق أي مبدأ اشتراكي ، وهدفه التحرر الوطني لأرمنية بكل الوسائل دون استبعاد العنف والقوة رداً على مثلهما .. وكان أعضاؤه أساساً من الأرمن العثمانيين الأغنياء ، وبعد أن كان منتشرًا في إقليم البسفرجان انتشر بين كل الأرمن في الدولة العثمانية وفي إيران ، وفي إقليم ما وراء القوقاز ، وكافة الأملاك الروسية .. وكان لهذا الحزب صحيفة « أرمنية » التي ظهرت عام تأسيسه في مرسيليا بفرنسا ، وحررها برتوغاليان ذاته حتى وفاته عام ١٩٢١ ثم توقفت بعدها بسنتين .

ولكن أهم حزبين ثوريين أرمنيين كانا « حزب الهنشاق » ، وحزب « الطاشناق » الاشتراكيين اللذين أسسهما المثقفون الأرمن من أرمنية الشرقية الروسية ، ومن كافة الأملاك الروسية ، ثم انتشرا بين الأرمن في الدولة العثمانية ومهاجرينهم في الخارج ... وأولهما حزب « الهنشاق » ومعناه الناقوس ، وهو الحزب الاشتراكي الديمقراطي الأرمني ، وقد أسسه في عام ١٨٨٧ في جنيف بسويسرا ستة من الطلبة الأرمن الروس الماركسيين هم : الطالبة ماروفارتان بديان الذي تأسس بمبادرتها وزوادها أفيديس نزار بابيكيان ، وجبرائيل

كفيعان الشهير بشمادان ، وكيفورك غارداجيان ، وروين خانزاديان الشهير بخانزاد وم .
ومانوليان ..

وقد قبل هذا الحزب باعتباره حزباً اشتراكياً في مؤتمر الدولية الاشتراكية الثانية للأحزاب الاشتراكية المنعقد في باريس عام ١٨٨٩ ، وكان لهذا الحزب صحيفته المسماة « الهنشاق » التي حررها أفيديس نزار بيكيان ، وصدرت عند تأسيسه عام ١٨٨٧ ، في جنيف .. ثم انتقلت في العام نفسه إلى موبليه بفرنسا ثم في عام ١٨٩١ إلى أثينا في اليونان .. ثم في عام ١٨٩٤ إلى لندن ، ثم منها في ذات العام إلى باريس حتى عام ١٩١٤ . حين كفت عن الصدور ..

وفي عام ١٨٩٦ انفصل عنه جناح يميني صغير تزعمه الصحفي الأرمني العثماني ارييار أريبايان وغيره .. وسمي « حزب الهنشاق المصلح » كما أنه في عام ١٩٠٨ أسست بعض عناصر هذا الجناح وعناصر حزب الأرمنجان ، حزباً أرمنياً حراً محافظاً بعاصمة الدولة العثمانية هو « حزب الراجفار » ومعناه الحزب الدستوري الديمقراطي واسمه كاملاً ساسهمانا ترکان راجفار ..

وأما حزب الطاشناق أو « هاي هغابوخا كان طاشناقزوتيون » ومعناه حزب « الاتحاد الثوري الأرمني » فقد تأسس في عام ١٨٩٠ ، في تفليس عاصمة إقليم القوقاز الروسي والتي كانت تحوي أكبر تجمع بالأملاك الروسية بعد محادثات طويلة بدأت في عام ١٨٨٩ بين جماعات ثورية أرمنية تمثل اتجاهات مشابهة لحركة « النارودنك » الروسية أي الحركة الشعبية الروسية . واتجاهات وطنية أرمنية من حزب الأرمنجان .. وجماعة « مشاك » أي الفلاح .. وأخيراً بعض أعضاء حزب الهنشاق .. وكان حزب الطاشناق هو الحزب الاشتراكي الوطني الأرمني .. وقد اتحد مع حزب الهنشاق بعد تأسيسه عام ١٨٩٠ ، ولكنهما عادا وانفصلا عام ١٨٩١ .. وقد قبل حزب الطاشناق في مؤتمر الدولية الاشتراكية الثالثة للأحزاب الاشتراكية المنعقد في شتوتجارت عام ١٩٠٧ .. وذلك بصفته الحزب الاشتراكي العثماني الذي قيل أنه تحت التأسيس (فقد كان من زعمائه الأرمني خشادور مالوميان الذي كان يتعاون مع حزبي تركيا الفتاة والعثمانيين الأحرار في المنفى بأوروبا قبل الانقلاب العثماني لعام ١٩٠٨ ومن بعده) .. ثم قبل بعدئذ

ومنذ عام ١٩١٠ بمؤتمرها المنعقد في كوبنهاغن باعتباره أنه فعلاً وحسباً وصف به نفسه الحزب الاشتراكي العثماني .. هذا وقد كان مؤسسوه هم كريستابورميكايليان — حنالوريس مليكوف — وسيمون زافريان — وقسطنطين خاوسييان — وليغون ساركيسييان — وهم من الأرمن الروس .

وكان لهذا الحزب صحيفة هي « تروشاك » أي العلم أو اللواء التي صدرت أولاً عند تأسيسه في تفليس عام ١٨٩٠ .. ثم انتقلت إلى جنيف في عام ١٩١٤ ثم بعد توقفها أحد عشر عاماً إلى باريس عام ١٩٢٥ .. حتى كفت عن الصدور في عام ١٩٣٣ .

كما كانت له مجلة مشهورة هي مجلة « بروأرمينية » التي أصدرها في باريس الثوري الأرمني كريستابورميكايليان أحد مؤسسيه في المدة من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٠٤ وكان يكتب فيها كبار الساسة الفرنسيين الذين تعاون معهم أمثال جورج كليمنصو وأناثول فرانس ، وجان جوريس .. وكان من أبرز أعضاء هذا الحزب بالإضافة لمؤسسيه من الأرمن الروس هامو أوهانجانيان ، وهو فانس كاشازنوين ، وهاجوب كاتشاريان .. ومن الأرمن العثمانيين خشاتورمالوميان . وأرمن جاردو بصدرميجان ... كما أن هذا الحزب هو الذي شكل أول حكومة أرمنية عام ١٩١٨ ...

وكانت هذه الأحزاب الثلاث الرئيسية — الأرمنجان — الهنشاق — الطاشناق أرمنية وطنية تدافع عن المصالح الأرمنية في المقام الأول ... وكانت هذه الأحزاب والجمعيات الثورية السرية وراء غالبية الانتفاضات الأرمنية والاغتيالات التي جرى معظمها في الدولة العثمانية ووجهت إلى المتعاونين معها ، ثم إلى المتعاونين مع الحكومة القيصريّة ...

وكذلك مارست النشاط الثوري الأرمني جماعات من الشباب الأرمن المستقلين عن هذه الأحزاب والجمعيات السرية يحدوهم الحماس الوطني وكانت أشهرها جماعة الثوري سركيس جوجونيان التي كونها من مئة وخمس وعشرين من الشباب الأرمن .. من مختلف الفئات والطبقات .. وقد شنوا غارة من أرمنية الروسية على أرمنية العثمانية عام ١٨٩٠ ... ليستشهدوا في سبيل تحرير اخوتهم بها ... ولانعدام خبرتهم لقيت غارتهم فشلاً ذريعاً في جنوب قارس ، وقبض عليهم الجنود القوزاق الروس .. وحاكمتهم

السلطات الروسية القيصرية ، وعاقبت زعيمهم بالأشغال الشاقة مدة عشرين عاماً وأرسلته إلى جزيرة سخالين في الشرق الأقصى .. ثم أفرجت عنه في عام ١٩٠٦ .. ثم أعادت القبض عليه عام ١٩١٢ ، ومات في السجن في العام التالي وكانت غارته هي قمة الفداء والرومانسية في الحركة الثورية الوطنية الأرمنية وكتب عنها كثير من الأشعار والأغاني ...

ومنذ ظهورها انتشرت الاشتراكية العلمية أو الماركسية في اقليم ما وراء القوقاز الروسي بما فيه أرمنية الشرقية .. وكان من مظاهر ذلك ترجمة الثوري الأرمني كيفورك غارادجيان أحد مؤسسي حزب الهنشاق للبيان الشيوعي إلى اللغة الأرمنية لأول مرة في عام ١٨٨٧ ...

وفي عام ١٨٩٢ تأسس في تفليس « اتحاد العمال الأرمن الثوريين » وكان من مؤسسيه الثوري الأرمني أشوط خوماريان .. ومن أعماله أنه أصدر أول منشور باللغة الأرمنية يدعو إلى الاحتفال بعيد العمال في يوم أول أيار عام ١٨٩٤ ، ثم انضم أعضاؤه فيما بعد في عام ١٨٩٨ إلى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ... وفي هذه العام تأسست في تفليس كذلك أول حلقة ماركسية أرمنية في اقليم ما وراء القوقاز هي (تجمع العمال الأرمن الماركسيين) وكان من مؤسسيها الثوريون الأرمن (هايك بيلوسيان الشهير بأطاميان — وأرشاق ملك ملكيان الشهير بديدوشكا أي العم — وسادور كاخويان الشهير بالعامل ختشو — وكاركين كوزيكيان الشهير بيسالم ...

وفي عام ١٨٩٩ أسس الطالب الثوري الأرمني ستيان شاهوميان أول حلقة ماركسية بأرمنية الشرقية في بلدته جلال أوغلو والتي تسمى الآن ستيانكان نسبة إليه وتكريماً له ، وتحليداً لذكراه .. وتحوي الكهف الذي كانت تجتمع فيه حلقة هذه ، والذي أصبح متحفاً .. وقد صار هذا الثوري الأرمني فيما بعد تلميذاً للينين منذ عام ١٩٠٣ .. حينما قابله لأول مرة في المنفى في جينيف بسويسرا ... وأخيراً أسس الأرمن الماركسيون الثوريون في عام ١٩٠٢ في تفليس « اتحاد العمال الاشتراكيين الديمقراطيين الأرمن » . وأعلن هذا الاتحاد نفسه فرعاً لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي .. ثم اندمج عام ١٩٠٣ في لجنته باقليم ما وراء القوقاز ..

وما إن قامت الثورة الروسية الأولى عام ١٩٠٥ حتى امتدت إلى اقليم ما وراء القوقاز وخاصة إلى تفليس وباكو اللتين كانتا تحويان نسبة عالية من العمال الأرمن .. وغالبية زعمائهم من الأرمن أيضاً .. لكن السلطات الروسية عمدت إلى تخريب الثورة في هذا الاقليم باتباع الخطة التي اتبعتها من قبل الحكومة العثمانية إزاء الأرمن وهي تحريض الأكراد ضدهم واستثارة كل النزعات الدينية والعنصرية والمنافسات ، والخلافات بينهم وبين الأرمن .. واستجاب إلى هذا التحريض الزعيم الأذربيجاني أحمد أغايف بك الذي قام بالإعداد لمذابح أرمنية في كل اقليم ما وراء القوقاز .. وقد بدأت هذه المذابح في باكو يوم ١٩ شباط عام ١٩٠٥ بمهاجمة الأرمن واستمرت هذه الهجمات في اليومين التاليين دون أن يجدي في وقفها التجاء الأرمن إلى طلب الحماية من السلطات الروسية القيصرية إذ وقفت قواتها من الجيش والشرطة موقف المتفرج على الحياذ .. فاضطروا إلى تنظيم صفوفهم وامتشاق السلاح لحماية أنفسهم ، وهاجموا بقيادة الثوري الأرمني الطاشناق نيكول طومان مهاجمهم وتغلبوا عليهم .. ثم اغتالوا الأمير الكرجي تاكاشدزه حاكم باكو لأنه لم يدافع عنهم .. في يوم ٤ أيار عام ١٩٠٥ وفي نفس الوقت امتدت المذابح الأرمنية إلى باطوم وتفليس العاصمة ، واشترك فيه ضد الأرمن الأذربيجانيون أيضاً .. وتصدى لهم الأرمن في تفليس بقيادة الثوري الأرمني الطاشناق آرمن غارو بصدرميجيان ، وتغلبوا عليهم ..

وفي شهر حزيران عام ١٩٠٥ امتدت المذابح الأرمنية إلى اقليم يريفان الأرمني ذاته .. وتغلب عليهم أيضاً الأرمن بقيادة الثوريين خشادور وكانايان .. وفي شهر أيلول ١٩٠٥ امتدت هذه المذابح إلى باكو ثانية وإلى اليزافيتبول وشوشة وناخشيفان . بل إلى اقليم زنجور الأرمني فصدهم الأرمن .

وكان آخر حوادث هذه المقاومة وأشدّها جرأة في اقليم ما وراء القوقاز حادث السطو المسلح الذي دبره وقام به بعض أعضاء الحزب البلشفي بقيادة الثوري الأرمني سيمون تربتروسيان المعروف بكامو .. إذ هاجموا قافلة من الجنود القوزاق الروس كانت تنقل أموالاً حكومية جملتها ٣٤٠ ألف روبل .. واستولوا عليها .. وفروا دون أن يتركوا أثراً .. وقد قبض على كامو بعدئذ في ألمانيا ، وعذب ليعترف بأسماء شركائه .. فلم

يذكرهم وحكم عليه بالإعدام ، ثم أفرج عنه .. وتحمل اسمه الآن مدينة كامو في جمهورية أرمينية تمجيداً لنضاله ..

وقد خمدت ثورة ١٩٠٥ تدريجياً لعدم تنظيمها جيداً ، وأخذت السلطات الروسية القيصريّة تنكل بالمشاركين فيها ..

واعتبرت زعماء الأرمن من العصاة وخاصة من حزب الطاشناق لأنهم كانوا على رأس منظمي المقاومة الأرمينية للمذابح الأرمينية التي دبرتها ..

وبناء على ذلك بدأ انقسام حزب الطاشناق منذ عام ١٩٠٥ (وتكرس هذا الانقسام في عام ١٩٠٧) إلى جناحين .. جناح قديم أعلن عن ولائه للقيصرية الروسية لاعتقاده أنها ستخلص أرمينية من الحكم العثماني ، وجناح يساري جديد مكون من أول أقلية تراجع عن ولائه لها بعد ما اقترفته بحق الأرمن من مذابح .. وقد انضم هذا الجناح في ذات عام ١٩٠٧ إلى الحزب الاشتراكي الثوري الروسي ..

وإزاء هذا الانقسام تمكن الأمير فرنزوف داشكوف الحاكم الروسي العام الجديد لاقليم القوقاز الذي كان يعطف على الأرمن من إقناع السلطات الروسية القيصريّة برد أملاك الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية إليها في شهر آب عام ١٩٠٥ .. ولكنه لم يستطع أن يحول دون إلقاء القبض على ألفين من الأرمن ، وخاصة من جناحي حزب الطاشناق بتهمة تدبير مؤامرة ضد الدولة الروسية في شهر كانون أول ١٩٠٨ ، وقدم مائة وستة وأربعين منهم على رأسهم هامو أوهانجانيان من زعماء هذا الحزب إلى المحاكمة ف قضى في يوم ١٢ نيسان عام ١٩١٢ بمعاقبة اثنين وخمسين منهم بعقوبات مختلفة بلغ أقصاها السجن المؤبد .. ومع ذلك ظل هذا الحاكم الجديد يخاطب السلطات بشأن الأرمن قائلاً : أنهم أثبتوا في غالبيتهم ولاءهم للدولة القيصريّة الروسية كما أنهم سلاح في يدها ضد الدولة العثمانية ، حتى استطاع أن يقنعها بذلك ، فسعت إلى تنفيذ الإصلاحات وفق معاهدة برلين السابقة الذكر ، ثم وفق اتفاقية ٨ شباط لعام ١٩١٤ ، التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى .

وقد لقيت هذه الحرب حين اندلاعها ، المعارضة من العرب والأرمن في الدولة

العثمانية ، حيث استقال من حكومتها ، الوزير العربي سليمان البستاني ، والوزير الأرمني « أسكين » ، احتجاجاً على إعلانها ، كذلك لم يرتح لها الزعماء الأرمن العثمانيون عند مفاتحة السلطات العثمانية لهم في إعلانها خلال مؤتمر حزب الطاشناق المنعقد بأرضروم في شهر آب ١٩١٤ .

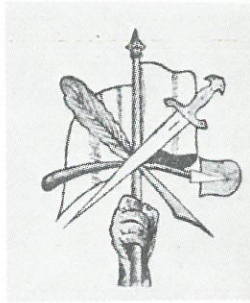
وبما أن الدولة العثمانية ، لم تخف أطماعها في أقاليم ما وراء القوقاز والقرم وآسيا الوسطى ، وهي الأطماع القائمة على نزعة قومية مزيفة ، وأوهام الثالوث أنور وطلعت وجمال باشا الساعي إلى المجد . أعلنت في ٣١ تشرين الأول لعام ١٩١٤ أن تلك الأقاليم هي هدف دخولها الحرب . ولما كانت جبهة القوقاز واحدة من جبهات الحرب العالمية الأولى ، وجبهة قتال رئيسية بالنسبة للدولة العثمانية ، فالحدث سيقصر عليها ، لأنها شهدت الحرب الثالثة عشرة والأخيرة بين هذه الدولة وروسيا القيصريّة ، ودارت على كل أراضي أرمينية ، فخربتها وشكلت مقدمة للمذابح الأرمينية الكبرى .

امتدت جبهة القوقاز على طول أربعمئة كيلومتر ، من البحر الأسود في الشمال ، إلى الجنوب الشرقي من جبل أرارات ، وكان القتال عليها قاسياً وشاقاً ، كون الأراضي جبلية ، وقد حشدت فيها الدولة العثمانية جيشها الثالث المؤلف من مائة ألف جندي ، بقيادة حسن عزت باشا ، ووضع لها أنور باشا وزير الحرب خطة طموحة للهجوم والتوسع ، ولم تشمل هذه القوات جنوداً مقاتلين من الأرمن ، إلا في البداية ، إذ سرعان ما نزع سلاحهم وعهد إليهم بالخدمة في كتائب العمل . أما روسيا فقد حشدت عدداً مماثلاً ، وضمت كتائب المتطوعين من الأرمن الروس ، التي كان على رأسها القادة ، انترانيك أوزانيان ، درو كانايان ، أرمن بصدرجيجان ، أفشاريان ، هوسيب أرغوتيان ، وبقيت هذه الكتائب تشارك في الحرب ، حتى حلتها القيادة الروسية العامة في ١٦ أيار ١٩١٦ ، خشية استفحال أمرها بعد أن نالت شهرة قتالية واسعة .

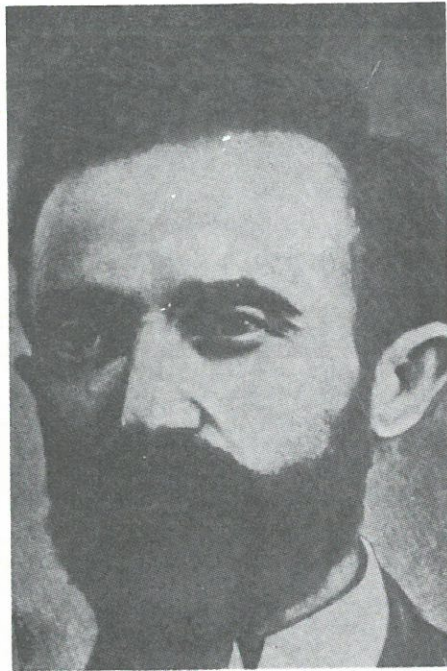
ونتيجة لتقدم القوات الروسية وتفوقها ، اضطر أنور باشا وزير الحرب إلى تولي قيادة القوات العثمانية على جبهة القوقاز في ٢١ كانون الأول ١٩١٤ ، وبعد هجمات متبادلة بين الطرفين ، عاد أنور باشا إلى عاصمته في ٧ كانون الثاني ١٩١٥ ، بعد أن كاد يقع في الأسر ، ولم ينقذه منه إلا بعض المجندين الأرمن . وبهذه العودة ، حلت الهزيمة بالقوات

العثمانية ، وتركت شعوراً بالغاً بالإحباط ورفعت معنويات الروس وحلفائهم من الأرمن ، حيث أبعدوا الخطر عن إقليم القوقاز .

وفي عام ١٩١٦ ، شنت القوات الروسية ، هجوماً واسعاً في وسط جبهة القوقاز ، فاستولت على مساحات واسعة من الأناضول ، شملت العديد من المدن العثمانية ، حتى بدا الانتصار النهائي على الدولة العثمانية وشيكاً ، لكنه لم يحصل ، فقد هزمت القوات الروسية على الجبهة الشرقية — الأوروبية من جهة ، وقامت في روسيا الثورة الأولى ، وهي ثورة شباط لعام ١٩١٧ ، التي أدت إلى خلع القيصر ، وقيام حكومة مؤقتة ، وبذلك توقفت العمليات الحربية الروسية ، حتى قيام ثورة أكتوبر في نفس العام ، التي أسفرت عن عزل الحكومة المؤقتة ، وتشكيل حكومة جديدة ، أصدرت مرسوماً للسلام ، مهد للهدنة فالصلح ، الأمر الذي جاء بمثابة إنقاذ مؤقت للدولة العثمانية من هزيمة تامة على كل جبهات القتال .

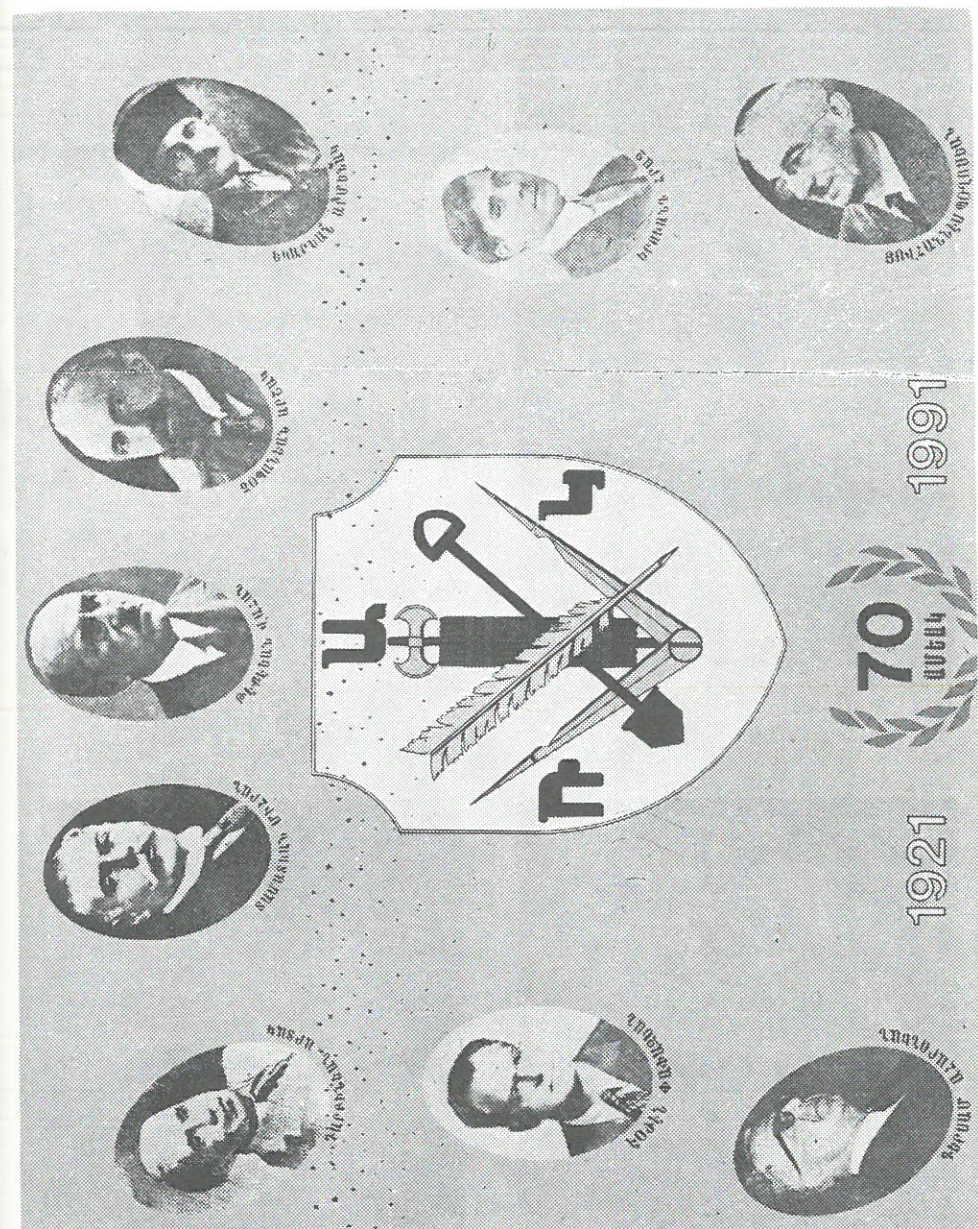


مؤسسو حزب الطائفة وشعار الحزب





مؤسسو حزب الهنشاق وشعار الحزب



مؤسسو حزب الرامغافار وشعار الحزب

الفصل الخامس عشر

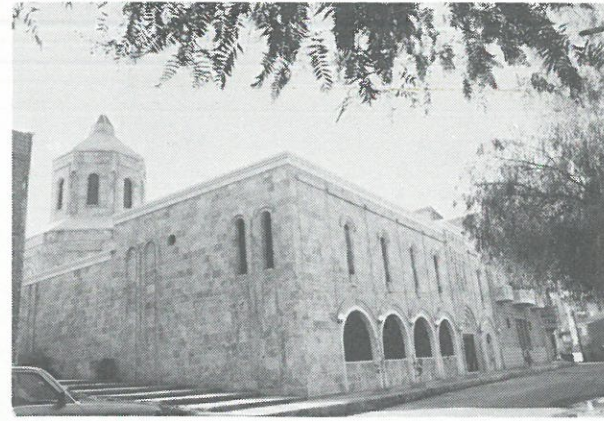
المذابح الكبرى

وصفت المذابح الأرمنية الكبرى في الدولة العثمانية بعيد وقوعها بأنها « أسود صفحة في تاريخ القرن العشرين » ..

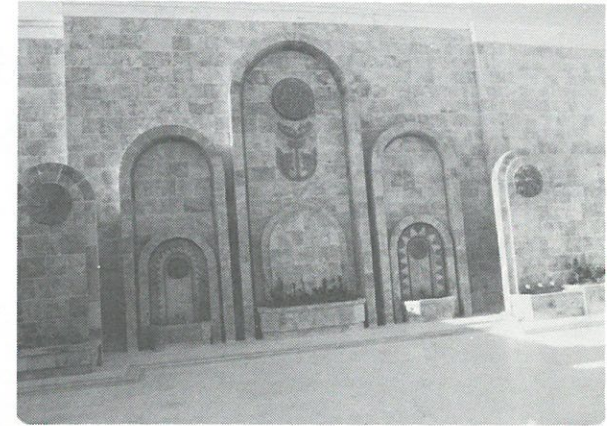
ورغم مرور عشرات السنين على هذه المذابح ، لا تزال وقائعها حية في ذاكرة الشعب الأرمني .. لأنه لا يعقل أن ينسى وحشيتها ونتائجها التي أدت إلى إبادة مليون ونصف المليون من أبنائه ... وهو ثلث مجموع عدده القليل آنذاك .

وجرت هذه المذابح في عام ١٩١٥ ، في الدولة العثمانية ، أثناء الحرب العالمية الأولى على أوسع نطاق ، واستبشعها كل من كتب عليها ، وشجبها الجميع بما تستحقه من شجب ، فيما عدا مدبريها وشركائهم طبعاً ..

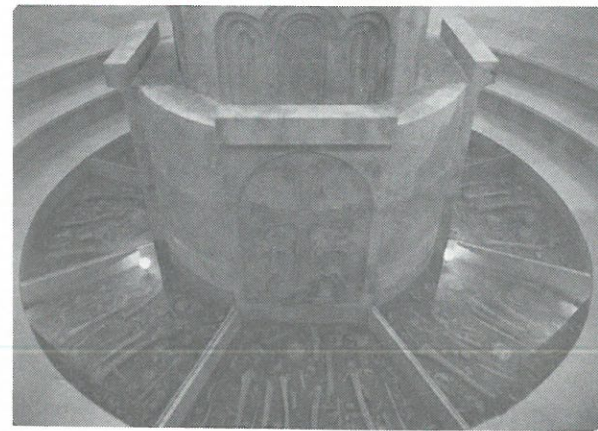
لكن هذه المذابح حقيقة مرة ، تجمعت فيها أركان جنائية دولية خطيرة ، لم يكن القانون الدولي العام قد ألفها عندئذ ، ولا أسماها بعد ، ثم ألفها قبيل الحرب العالمية الثانية ، وفي خلاها ، وأسمائها باسم جديد ، هو « الجينوسيد » أي جناية الإبادة الجماعية غير



كنيسة الشهداء في دير الزور



جدار الأخوة العربية — الأرمنية



عظام الشهداء

الإنسانية لجنس أو لشعب ، الذي صار مصطلحاً قانونياً .. وقد صاغ هذا المصطلح الفقيه الأمريكي روفائيل لمكين .. في أربعينيات القرن الحالي .. واعتبر المذابح الأرمنية .. أول « جينوسيد » في التاريخ الحديث ، لأنها فاقت كثيراً « البوجروم » وهو ما كانت تسمى به المذابح غير الشاملة المدبرة ضد الأقليات التي كانت تجري في القرن التاسع عشر .. ويدخل في عدادها المذابح الأرمنية في الدولة العثمانية في عهد سلطانها عبد الحميد الثاني ، وخاصة في المدة من عام ١٨٩٤ حتى عام ١٨٩٦ . وقد أدانت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بموجب قرارها الصادر في يوم ٩ كانون الأول عام ١٩٤٨ « الجينوسيد » بعد تعريفه بما تقدم ، واعتبرته جريمة دولية ..

ومن المؤلم حقاً ، وصف هذا « الجينوسيد » الذي نحن بصددده .. كذلك من الصعب متابعة أحداثه التي ما هي إلا سلسلة جرائم مدبرة متشابهة ، لأنها جرت أساساً في أقاليم نائية من الدولة العثمانية في زمن الحرب ، وأحيطت بالسرية والكتان ، بعيداً عن رقابة الضمير العالمي ، فلم يتسرب من أخبارها إلا قليل القليل ، ولعل ما خفي منها كان أسوأها ، وخاصة أنها أجهزت أحياناً على مجتمعات بأسرها ، فلم يبقَ منها من يروي أخبارها ..

وقد أقر هذه السياسة كبار حكام الأقاليم العثمانية ، ثم السلطان العثماني ذاته ، لأنها تخدم أغراضهم ، بل أنهم تلقفوها وجعلوها سياسة عامة للدولة العثمانية ، ووسعوا قاعدتها حتى حولوها من اعتداءات إلى « جينوسيد » . ورغم تعاون الأرمن العثمانيين مع الحركات المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني .. خارج الدولة العثمانية ، وترحيب هؤلاء الأرمن بالانقلاب العثماني الذي أطاح به .. وتعاونهم مع الحكام الجدد للدولة العثمانية من حزب الاتحاد والترقي ..

رغم ذلك ، فإن الحكام الجدد عادوا إلى الشك في إخلاص الأرمن ، خاصة بعد أن أبدوا معارضتهم للحرب العالمية الأولى ، الأمر الذي أدى إلى اتهامهم بالخيانة .

وفضلاً عن ذلك .. فإن سياسة الحكام الجدد للدولة العثمانية قامت على عدم الثقة بكل الشعوب غير التركية التي تقطن هذه الدولة ، وذلك لتعصيم لتركيتهم والنظرية الطورانية ، وسياسة التريك .. وحصر حكم الدولة في الأتراك وحدهم . والذي كان من

أهم مظاهره قرار مؤتمر حزبهم — وهو حزب الاتحاد والترقي المنعقد في سالونيك عام ١٩١٠ — القاضي بحظر الأحزاب السياسية غير التركية ، والذي كان مقصوداً به في المقام الأول العرب والأرمن ، كما أن هذا المؤتمر اتخذ قراراً سرياً بوجوب إبادة الأرمن في الدولة العثمانية ، وكان هذا القرار هو أول خطوة في الطريق إلى المذابح الأرمنية الكبرى . التي وقعت أولها في بلدة أرمنية الإيرانية في أول زمن احتلال القوات العثمانية لها ، والذي دام منذ ٢ كانون ثاني حتى ٢٤ أيار عام ١٩١٥ ، ونظمها وقارفها جودت بك الحاكم العسكري لولاية « وان » الأرمنية العثمانية ، لدى مشاركته في الحملة العثمانية على شمال غرب إيران التي أدت إلى هذا الاحتلال .. وقد راح ضحيتها زهاء الألف ، رجلاً ، ونساء ، وأطفالاً ..

وتكمن الأسباب الحقيقية للمذابح الأرمنية في أن زمرة حكام الدولة العثمانية من حزب الاتحاد والترقي ، وعلى رأسهم الثالث أنور باشا ، وجمال باشا ، وطلعت باشا ، وجدوا الفرصة مواتية للقضاء على المسألة الأرمنية بالقضاء على الأرمن العثمانيين أنفسهم .. ولتبرير تنفيذ هذه السياسة ، اتهم هؤلاء الحكام ، الأرمن ، بأنهم خانوا الدولة العثمانية ، وعصوها ، وثاروا عليها . وقد جاء هذا الاتهام في القرار الذي اتخذ في أوائل شهر شباط عام ١٩١٥ في الاجتماع السري لكبار المسؤولين العثمانيين برئاسة طلعت باشا ، وبحضور أنور باشا ، وبهاء الدين شاكرك ، وأحمد آغا ، وغيرهم .. وقد استند هذا القرار الذي صدر بالإجماع إلى ذلك الاتهام فيما انتهى إليه من وجوب إبادة الأرمن في الدولة العثمانية ، كما استند إلى ذات الاتهام أيضاً مرسوم الحكومة العثمانية الصادر في ٨ نيسان عام ١٩١٥ بشأن ترحيل الأرمن من بلادهم ، والذي ترجم إلى العربية نقلاً عن كتاب القصارى في نكبات النصرى للقس إسحق أرملة ، على الشكل التالي :

(بما أن الأرمن يأتون أموراً تخالف السنن ، ويغتنمون كل الفرص لإزعاج الحكومة ، ويخزنون أسلحة وقنابل ومواد متفجرة ، ليسعروا نيران الثورة داخل البلاد . وبما أنهم يفتكون بالمسلمين ويعضدون روسيا .. فاستدراكاً لمشاغبتهم .. تقرر أن يساقوا جميعاً إلى ولايتي الموصل وسورية ، ولواء دير الزور ، على أن تكون أعراضهم وأنفسهم وأموالهم في

أمان من اعتداء المعتدين ، وتسلبت المجرمين ، وقد أصدرنا الأوامر بإسكانهم في تلك البلاد ، ريثما تضع الحرب أوزارها) .

لكن هذه المزاعم كانت غير صحيحة ، لأن السلاح كان محرماً على الأرمن .. كذلك لم يقتنع الضمير العالمي سواء في دول الحلفاء ، أو في الدول المحايدة وقد حاول هنري مونشواو السفير الأمريكي في القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية عبثاً التدخل بصفة رسمية لوقف المذابح ومنع ترحيل الأرمن العثمانيين من العاصمة .. ولكنه لم يحتج على القيام بها . وكان ذلك بحجة أنها لا تمس المصالح الأمريكية .

كما أثير أمر هذه المذابح في البرلمان الألماني ، وفي الصحف الألمانية ، واستنكرها المستشرقان الألمانيان العارفان بأرمينية ، ماركوات ، ولبسيوس ، وسألت صحيفة ألمانيا ، طلعت باشا وزير الداخلية العثماني سؤالاً كان يطرح نفسه على الجميع ، وهو أنه لو فرض أن الاتهامات الموجهة إلى بعض الأرمن العثمانيين صحيحة ، فهل تبرر إبادة الأرمن العثمانيين بأكملهم .. فرد بقوله « إنه يستحيل التمييز بين البريء والمذنب من الأرمن ، لأن من يكون بريئاً اليوم يحتل أن يصير مذنباً غداً » . وهذا تبرير لا يقبله ، ولا تقره إلا سياسة صاحبه المبنية على التعصب التي يعتنقها ، وينفذها ، خاصة وأنه وقد صرح أيضاً أن الدولة العثمانية لا تتسع لكي يعيش فيها الأتراك والأرمن معاً ، وأن الأرمن استنزفوا أموال الترك ، أي أنه يحسداهم على نجاحاتهم الاقتصادية ، بل وقد بلغت حماقته وصفاقته درجة أن طالب السفير الأمريكي لدى الدولة العثمانية بأن تدفع شركات التأمين الأمريكية للحكومة العثمانية — بصفتها وارثة لرعاياها الأرمن الذين أبادتهم — المبالغ التي كانوا قد آمنوا بها على حياتهم لدى هذه الشركات ..

وبدأت الحكومة العثمانية تكشر عن أنيابها للأرمن العثمانيين عقب رفضهم في اجتماع أرضروم المنعقد في شهر آب عام ١٩١٤ إثارة الأرمن الروس ضد روسيا ، فألفت في الشهر التالي عقدي عمل المفتشين العامين الأجانبين النرويجي والهولندي لإقليمي شرق الأناضول ، اللذين عقدتهما معهما في يوم ٢٣ أيار عام ١٩١٤ ، تطبيقاً لاتفاقية الإصلاحات الأرمنية التي أبرمتها مع روسيا في يوم ٨ شباط عام ١٩١٤ .. واستدعت

أولهما بعد أيام من استلامه عمله في « وان » وأما الثاني فلم يكن قد استلمه بعد ، وأعلنت عن تأجيل تنفيذ هذه الاتفاقية .. ثم وضعت خطة تنفيذ مرسوم الترحيل كما يلي :

أولاً : القبض على زعماء الأرمن وكبار مفكرهم في القسطنطينية ، وإبعادهم عنها في يوم ٢٤ نيسان عام ١٩١٥ — حتى يصير الشعب الأرمني جسداً بلا رأس ، وبالفعل تم القبض على مائتين وأربع وخمسين منهم .. ثم زادوا بعدئذٍ إلى قرابة الستائة ، ورحلوا ، وأعدم دون محاكمة غالبهم بعدئذٍ — .

ثانياً : نزع السلاح من الأرمن جميعاً ، وإرهابهم ، حتى يصيروا عاجزين عن مقاومة عملية ترحيلهم التي قصد بها إخلاء بلادهم منهم ، وإبادتهم نهائياً .. فهي لم تقرر أن يتم هذا الترحيل بصفة إنسانية ، ولا أن يكون نقلهم نقلاً موقتاً بانتهاء الحرب العالمية الأولى على نحو ما تضمنه مرسومها المذكور .

ثالثاً : يتم إجراء الترحيل ذاته بالقوة والوحشية ، حتى يعرضهم للقتل وللموت جوعاً وتعباً حال البدء فيه ، اعتماداً على عصابات المجرمين وينفذ في المدة من ٨ نيسان حتى ٦ تشرين ثاني ، طبقاً لجدول زمني يتم بموجبه إخلاء قليقية في شهري نيسان وأيار عام ١٩١٥ ، وبعدئذٍ ولايات أرضروم ، وطرابزون ، ووان ، وبدليس ، وخربوط ، وسيواس ، في شرق الأناضول في شهري حزيران وتموز عام ، ثم أقاليم غرب الأناضول ، وولايي الرها ثم مدينة أدرنة في شهر تشرين أول ، ثم مدينتي إزمير والقسطنطينية في شهر تشرين ثاني .

وأكدت وحشية معاملة الأرمن لدى ترحيلهم ، والغرض الحقيقي منه .. ما صرح به بعض الموظفين العثمانيين عندئذٍ ، ثم التعليقات السرية التي أصدرها طلعت باشا وزير الداخلية العثمانية تنفيذاً لمرسوم ترحيلهم المشار إليه ، والتي عثر على بعض منها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ومنها تعليقاته المؤرخة في يوم ٩ أيلول عام ١٩١٥ لوالي حلب المتضمنة : أن الحكومة العثمانية قررت إلغاء حق الأرمن في الحياة ، وفي العمل ، والقضاء عليهم بتهجيرهم دون مراعاة أي اعتبار ، ثم تعليقاته المؤرخة في يوم ١٥ أيلول عام ١٩١٥ إلى والي حلب أيضاً ، المتضمنة تأكيد تعليقاته السابقة ، وأن على موظفي الحكومة تنفيذها دون شفقة حتى بالنساء والأطفال ، وإلا تعرضوا للعزل ..

واستولت الحكومة العثمانية على أملاك الأرمن العثمانيين بموجب القانون الذي أصدرته في يوم ١٦ أيار عام ١٩١٥ المتضمن أنها صارت بعد ترحيلهم من الممتلكات ولا مالك لها .. ثم ألغت كل التزاماتها نحوهم ، فعدلت الفرمان المؤرخ في ٣٠ آذار عام ١٨٦٣ بنظام ملة الأرمن الأرثوذكس .. بالمرسوم المؤرخ في ١١ آب عام ١٩١٥ الذي ألغى المجلس الملي بحجة أن أعضائه المنتخبين والقسس ، قد انضموا إلى الأحزاب الثورية الأرمنية ، أو وقعوا تحت نفوذها ، كما قرر هذا المرسوم الأخير قطع كل العلاقات بين جاثليق الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية المقيم بمقره باتشمياتزين في أرمينيا الروسية ، وهو رئيسها الأعلى ، وبين بطريك الأرمن الأرثوذكس العثمانيين في القسطنطينية ، ونقل مقر هذا الأخير ، وكان عندئذ زافين أغيايان إلى القدس ، ثم نفيه إلى بغداد ..

كذلك ألغت الحكومة العثمانية معاهدتي باريس وبرلين الدوليتين المبرمتين يومي ٣٠ آذار عام ١٨٥٦ و ١٣ تموز عام ١٨٧٨ ، الأمر الذي يعني إلغاء كل ما له صلة بالإصلاحات ..

أما المذابح الأرمنية ذاتها فإن وصفها قد اعتمد على شهود عيان من الأرمن الفارين ، ومن رعايا الدول المحايدة مثل سويسرا ، وأمريكا .. ومن رعايا ألمانيا ، حليفة الدولة العثمانية ، ومن رعايا الدولة العثمانية ذاتها .. وفيما يلي عرض لهذه المذابح :

— ففي منطقة « زيتون » بولاية مرعش باقليم قليقية الأرمني العثماني الذي يسكنه كثير من الأرمن ، والواقع في جنوب الأناضول ، وحسب رواية القس الأمريكي (ديكران أندريسيان) راعي كنيسة الأرمن البروتستانت في زيتون وهي رقم « ١٢٢ » في مجموعة برايس ، كانت الحالة متوترة في المنطقة عند نشوب الحرب بسبب عدم إقبال الأرمن على التجنيد ، وقرار بعضهم منه إلى الجبال وقتالهم مطارديهم من الجنود فضربت السلطات العثمانية أهاليهم للإرشاد عنهم ، ثم حشدت خمسة آلاف جندي عثماني ، وأرسلتهم إلى زيتون للقبض على الفارين ... وتوسط القس الأرمني شرجيان ، والراهب الأرمني اسحق .. وغيرهما لتسليم الفارين إلى السلطات العثمانية لتجنب تدمير بلدة زيتون ، والتفكيك بأهلها ، حتى جمعهم في الدير وأخبروا السلطات بذلك ، فهاجم جنودها الدير

يوم ٧ نيسان عام ١٩١٥ بقيادة الضابط العثماني خورشيد ، ولكنهم لقوا مقاومة شديدة ، وقتل منهم قرابة المائة ، ولهذا أحرقوا الدير بمن فيه .

وبعدئذ ومنذ اليوم التالي ورغم عدم اشتراك أهل زيتون في هذا القتال أبعدت السلطات العثمانية من البلدة إلى المنفى خمسين أسرة أرمينية ثم ستين أسرة أخرى . ثم حي إثر حي .. ثم الباقين من الأرمن دفعة واحدة .

وكانت جملة الأرمن المنفيين ثمانية آلاف أرمني .. وحطمت السلطات العثمانية كنائسهم ، وأزالت نقوشها ، وغيرت اسم البلدة إلى « السليمانية » ولم يبق في زيتون أحد من الأرمن .. إلا القس راوي هذه الشهادة والذي غادرها بعدئذ ..

وتكمل هذه الرواية ، رواية شاهد آخر من بلدة بوزانتي في هذا الاقليم ، لم يذكر اسمه ، وهي رقم ١٢٤ في مجموعة برايس .. وجاء فيها : إن آخر قافلة من الأرمن غادرت زيتون يوم ١٣ أيار عام ١٩١٥ ، وأن الأرمن المبعدين أرغموا على ترك ممتلكاتهم بمساحتهم ، وأنه حل محلهم فيها أتراك من تراقية ، وأن الأرمن المبعدين رحلوا إلى بلدة قره بندار الموحشة بولاية قونية سيراً على الأقدام ، وأن حالتهم كانت سيئة جداً ، وكانوا حفاة عراة .. جوعاً .. يستجدون الخبز ، وتفتك بهم الأمراض ..

كما يكمل هذه الرواية رواية شاهد أجنبي ، لم يذكر اسمه أيضاً مقيم في قونية ، ومؤرخة في ١٧ تموز عام ١٩١٥ وهي رقم « ١٢٥ » في مجموعة برايس : إن السلطات العثمانية أسكنت الأرمن المبعدين في اسطبلات الجمال ، بعد أن خلت منها بسبب نقل المعدات الحربية ، وكانت تعطى لكل منهم مائة وخمسون درهماً من الدقيق يومياً ثم أنقصته إلى مائة ، ثم لم تعطهم شيئاً بعد أربعة أسابيع ، وتركهم يبحثون عن أعمال للاقتيات منها .. فلم يجدوا ، وكانوا يبحثون عن الجذور والأعشاب لأكلها ..

وفي مدينة أضنة باقليم قليقية الأرمني العثماني أيضاً ، وحسب روايتي شاهدين أجنيين مقيمين في بلدة بوزانتي ، لم يذكر اسميهما ، وهما رقم ١٢٣ ورقم ١٢٩ في مجموعة برايس ، كانت السلطات العثمانية في الأربعة أشهر الأولى من عام ١٩١٥ ، وخاصة في شهر نيسان ، تشنق من أن لآخر في ميادين أضنة بعض الأرمن من بلدة دورت يول

الأرمنية الواقعة على خليج الاسكندرية على البحر المتوسط بتهمة أنهم كانوا يتبادلون الإشارات مع أساطيل الحلفاء البريطانيين والفرنسيين ، التي كانت تمخر في هذا البحر ، لكن هذه التهمة كانت باطلة لأن الحلفاء أنزلوا قواتهم في خليج الدردنيل للوصول إلى القسطنطينة القريبة منه .

وفي مدينة وان (وهي من الولايات الأرمنية العثمانية الستة في شرق الأناضول) التي كانت تحوي ١٨٥ ألف من الأرمن ، وهم الغالبية المطلقة لسكان الولاية البالغ عددهم ٣٥٠ ألفاً ، وحسب رواية الأنسة جريس كنان الأمريكية المقيمة في هذه المدينة ، وهي رقم ١٥ في مجموعة برايس ، فإن عدد سكان هذه المدينة كان خمسين ألفاً وثلاثة أضعافهم من الأرمن .. وكانوا يشعرون بقوتهم ، وكانت حياتهم مزدهرة وكانوا يفخرون بمدينتهم التي أسموها مدينة (الكروم) ومدينة (الحدائق) . وكانت تنشط بينهم الأحزاب الأرمنية ، ويتزعمهم نائبهم في البرلمان العثماني أرشاك فراميان ، وزميله نيكو غوز أشخان ، وآرام مانوكيان ، وكانت في المدينة إرسالية أمريكية ، ومعسكرات للقوات المسلحة العثمانية ، وكان حاكمها العسكري جودت بك (مقترف المذابح الأرمنية في بلدة أرمية الإيرانية) صهراً لأنور باشا ، وقد بدأت الأحداث فيها بطلب هذا الحاكم من الأرمن ثلاثة آلاف شاب لتجنيدهم ، ثم حصول مصادمات بين الترك والأرمن في منطقة شازاخ التابعة لها ... ثم ما وقع في يوم ١٦ نيسان عام ١٩١٥ ، وهو اغتيال الزعيم أشخان الذي بعثه الوالي للمصالحة بين المتصادمين ، ثم بقبض الوالي على النائب أرشاك فراميان ، وإرساله إلى العاصمة ، ثم بفشل وساطة الطبيب الأمريكي أوشر لدى الوالي لتخفيض عدد المطلوب تجنيدهم إلى اربعمائة شاب ، ثم بمحاولة جرت في يوم ٢٠ نيسان عام ١٩١٥ خارج المدينة من جنود من الأتراك لاغتصاب بعض النسوة الأرمنيات وقتلهم أرمنين حاولا منعهم من ذلك .. ونتيجة ما سبق بدأت القوات المسلحة العثمانية تطلق النار على الأرمن طوال ذلك اليوم .. وقد تجمع الأرمن بقيادة آرام مانوكيان في حي واحد ، وهو حيهم المسمى « بالحلي المسور » وأحكموا تحصينه وظلوا يقاومون بأسلحتهم القليلة البالغة ثلاثمئة بندقية ، وبالذخائر التي كانوا يصنعونها محلياً هجمات القوات المسلحة العثمانية عليهم ، والتي كانت تستعمل المدفعية ، وصدها كلها .. بل واستطاعوا في وقت ما الاستيلاء على

أحد المعسكرين العثمانيين . وصمدوا حتى دخلت القوات الروسية ، وقوات المتطوعين الأرمن الملحق بها ، بقيادة الجنرال الروسي نقولايف التي أرسلت لنجدتهم ، مدينة وان في يوم ١٩ أيار عام ١٩١٥ ، وانسحبت منها القوات والإدارة العثمانية ، وبقي فيها بعض الأتراك الذين لجأوا إلى الإرسالية الأمريكية ، وأقام الروس إدارة جديدة ، وعينوا آرام مانوكيان حاكماً للأقاليم التي احتلوها ، ثم ترك الأرمن العثمانيون سكان مدينة « وان » مدينتهم في المدة من ٣٠ تموز حتى ٣ آب عام ١٩١٥ حين أخلتها القوات الروسية ، واستولت عليها القوات العثمانية حتى يوم ١٧ آب ١٩١٥ حيث استردتها القوات الروسية .

وفي هذه المدة قتلت القوات العثمانية كل من عجز عن تركها من الأرمن العثمانيين ، وأحرقت منازلهم .. وتركز الشاهدة الأنسة جريس كنان على مسألة هامة تنقض رواية الحكومة العثمانية المتضمنة أن إجراءاتها ضد الأرمن وتذيعهم لهم .. كانت رداً على ثورتهم في « وان » إذ تؤكد أن الأرمن العثمانيين لم يبدأوا ثورة في هذه المدينة ، بل أنهم دافعوا فيها عن أنفسهم ، وتحصنوا بحجهم فيها عندما هاجمتهم القوات المسلحة العثمانية ..

وكان عدد القتلى في ولايات مرعش ، وأضنة ، ووأن الأرمنية العثمانية غير كبير ، لأن ترحيل الأرمن العثمانيين من الولاياتين الأولى والثانية تم قبل أن تحتمر وتتلور تماماً فكرة قتلهم في الطريق .. فمات من مات منهم في القتال ، أو ذهب ضحية الجوع والتعب ، والمرض ..

ولأن الأرمن العثمانيين في الولاية الثالثة ، قاوموا القوات المسلحة العثمانية بنجاح ، ثم هاجروا في غالبيتهم منها مع القوات الروسية إلى أرمينية الشرقية الروسية ، عندما غادرتها وانسحبت منها ..

أما في الولايات الأرمنية العثمانية الأخرى التي سيرد ذكرها فيما بعد فقد بوشر القتل على نطاق واسع انتقاماً مما حدث في ولاية « وان » وهو نجاح الأرمن في المقاومة .

ففي مدينة بدليس ، وموش ، وقراهما ، ومنطقة جبل صاسون في ولاية بدليس التي كانت تحوي ١٨٠ ألفاً من الأرمن .. وقعت المذابح باعتبارها الانتقام المباشر لجودت بك الحاكم العسكري لوان .. بعد انهزامه فيها وهربه إلى ولاية بدليس .. ففي أواخر أيار عام

١٩١٥ غادر جودت بك وان منهزماً نحو الجنوب الغربي على رأس قوة عثمانية مسلحة قوامها ثمانية آلاف جندي أسميت لما قارفته « طواير القصابين أو الجزازين » ودخل بلدة سعرت جنوبي مدينة بدليس ، وقتل غالبية سكانها من الأرمن والمسيحيين عموماً ، وعلى رأسهم مطرانها الأرمني يغيشية ومطرانها الكلداني المؤرخ المعروف أدي شير اللذين أحرقهما .. ثم توجه إلى مدينة بدليس وحاصرها في يوم ٢٥ حزيران ١٩١٥ ، واقتاد كل الرجال ، وانتقى منهم الحرفيين المهرة ، وأرسلهم للخدمة في الجبهة ، وقتل باقيهم ودفنهم في قبور جماعية أمرهم بحفرها قبل قتلهم .

ثم انتقى بعض النساء والأطفال منهم ووزعهم على جنوده ، وألقى بمن لا ينفع منهم في نهر دجلة ، بعد ترحيلهم نحوه جنوباً .. فماتوا غرقاً ، وبذلك أجهز على خمسة عشر ألف أرمني في بدليس وحدها ..

وقبل هذه المذبحة كانت بعض القبائل الجبلية قد تقدمت بأمر السلطات العثمانية من موطنها في ولاية ديار بكر نحو الشمال الشرقي إلى موش ومنطقة جبل صاسون ، وقضت في طريقها على الأرمن الساكنين في قضائي سليقان ، (ميفارقين) . وشرميك ، والذين كان عددهم أصلاً ١٥ ألفاً ، ثم تضاعف بمن لجأ إليهم من قضاء موش ، ثم حاصرت هذه القبائل جبل صاسون ، في حين حاصرت قوة عثمانية مسلحة مدينة موش ..

ولم تستطع هذه القبائل ولا تلك القوة العثمانية الاستيلاء على جبل صاسون ولا على مدينة موش — حتى انضمت إليها قوة عثمانية كبيرة قوامها عشرة آلاف جندي بقيادة كاظم قره بكير بك ، قدمت من ولاية أرضروم في الشمال . وفي يوم ١٠ تموز عام ١٩١٥ هاجمت القوات العثمانية المشتركة مدينة موش وضربتها بالمدافع ، واستمر الأرمن المدافعون عنها بقيادة قائدهم جوتايان في المقاومة بداخلها ، في الكنائس ، والمنازل ، لمدة أربعة أيام حتى قتلوا جميعاً .. ثم جمع المهاجمون النساء ، والأطفال ، ووضعوهم في عيش خشبية وأحرقوهم .. وهكذا فعلوا أيضاً بسكان القرى التابعة لمدينة موش ، ثم تفرغت كل القوات العثمانية ، والقبائل لجبل ، صاسون ، وهاجمته وضربته بالمدافع في أواخر شهر تموز ١٩١٥ ، ودافع عنه الأرمن دفاعاً مستميتاً بقيادة قائدهم جوريون وغيره .. حتى قتلوا جميعاً ، وانتحرت نساؤهم حتى لا تقعن في الأسر ..

وفي مدينة أرضروم ومنطقتها بولاية أرضروم ، التي كانت تضم ٢١٥ ألف من الأرمن من مجموع سكانها البالغ عددهم ٦٣٠ ألفاً ، والواقعة شمالي ولاية بدليس ، وحسب رواية المبشر الأمريكي القس روبرت ستابلتون المقيم في أرضروم ، وهي رقم ٥٣ في مجموعة برايس ، فإنه في يوم ١٩ أيار عام ١٩١٥ وقعت مذبحة في بلدة خنوص الواقعة بين مدينتي أرضروم وموش للأرمن راح ضحيتها كثير منهم ، ضمنهم بعض تلاميذ مدرسة هذا الشاهد الذين كانوا في رحلة مدرسية في هذه البلدة .

وفي شهر حزيران عام ١٩١٥ صدر الأمر لقرابة ١٥ ألف أرمني من سكان مائة قرية في ولاية أرضروم بالرحيل عنها في خلال ساعتين تحت الحراسة إلى أرزنخان غرباً .. ولكن لم يصل إليها منهم إلا قليل القليل .. إذ قتلهم وسلب أموالهم حراسهم .. وقد حوكم أحد هؤلاء ، فقال : إنه أمر بما فعله ، وقدم أمراً مكتوباً يؤيد قوله .. ثم وصلت إلى الوالي تحسين بك الأوامر بوجوب قتل الأرمن كلهم فأذعن لها .. وأصدر في يوم ٩ حزيران عام ١٩١٥ أمراً بوجوب مغادرة كل الأرمن مدينة أرضروم ، فغادرتها في يوم ١٦ حزيران ١٩١٥ الدفعة الأولى منهم والمكونة من خمسين أسرة إلى ديار بكر جنوباً .. ولكنها أيدت بين كفي وبالو في الطريق إليها .. ولم يصل منها إلى خربوط إلا رجل واحد وأربعون امرأة .. وفي يوم ١٩ حزيران عام ١٩١٥ غادرت أرضروم دفعة ثانية مكونة من خمسمائة أسرة إلى أذربيجان ، ثم إلى سيواس غرباً ، وفي الطريق إلى كمش قتل كل الرجال ، وقد ذكرت شهادات أخرى أن ذلك تم بإلقائهم من الرنى العالية المعروفة ببوغاز كمش المطلة على نهر الفرات الأعلى إلى مجرى هذا النهر كما تم اختطاف النسوة وأرسلن إلى الموصل ، والركة ، وحلب ، وعين تاب ..

وفي يوم ٢٨ حزيران ١٩١٥ غادرت أرضروم دفعة ثالثة ضمنها مطرانها الأرمني الأرثوذكسي ، فلم يعرف مصيرها ، وقيل إن المطران المذكور قتل في أذربيجان ، ولم يبق في مدينة أرضروم من الأرمن إلى القليل من الكاثوليك الذين صدر أمر بترحيلهم إلى الموصل .. ولم يعلموا بما بيت لهم ، وهو إغراقهم في نهر دجلة عند نقلهم في تشرين الثاني عام ١٩١٥ ، وبقيت بأرضروم عشرون أسرة من الحرفيين المهرة للحاجة إليهم ، ولكنهم

رحلوا أيضاً إلى أذربيجان في أوائل شباط عام ١٩١٦ ، لما اقترب الروس من أرضروم التي استولوا عليها فعلاً في يوم ١٦ شباط ١٩١٦ .. لكنهم قتلوا في الطريق ..

وحسب رواية الكاتب والصحفي الأرمني الروسي ب . كونونيانتز الذي زار أرضروم بعد احتلال القوات الروسية لها في اليوم المذكور — وهي رقم ٥٥ بمجموعة برايس — فقد عقد في يوم ١٨ نيسان ١٩١٥ بمدينة أرضروم اجتماع كبير بناء على تعليمات الحكومة العثمانية جرى فيه التحريض على الفتك بالأرمن لكونهم المسؤولين عن الهزائم التي لحقت بالقوات العثمانية ، وأنه اغتيل فيها بعض زعمائهم ، ومنهم أخو نائب أرضروم أرمن غارو بصدرجيان .. لإلتحاق هذا النائب بالقوات المسلحة ، وقيادته مساعداً كتيبة من المتطوعين الأرمن الروس الملحقين بها .. وكذلك كان من ضحايا المذابح في هذه الولاية « أنانيا هازاربيديان » مطران بانيورت الأرمني .. الذي شنت دون محاكمة ..

وفي ولاية معمورة العزيز ، أو خربوط ، التي كانت تضم ١٦٨ ألفاً من الأرمن من مجموع سكانها البالغ عددهم ٤٥٠ ألفاً ، والواقعة جنوب غربي ولاية أرضروم ، فإنه حسب رواية ممرضة دائمة كانت في بعثة الصليب الأحمر الألماني في خربوط وهي رقم ٦٤ في مجموعة برايس ، فإنه في شهر أيار عام ١٩١٥ .. أمر الوالي العثماني بالقبض على الشبان الأرمن اللائقين للتجنيد ، والبالغ مجموعهم أربعمئة ، وطلب من أعيان الأرمن وقسهم أن يسلموا أسلحتهم لضمان حمايته لهم ، فجمعوها وسلموها إليه .. فصوروها وأرسل صورها إلى العاصمة القسطنطينية مدعياً أنها الدليل على اعتزام الأرمن القيام بثورة ، وذلك لكي يحصل على أمر من الحكومة بمعاقتهم .. ولما وصل إليه الأمر جمع الشبان الأرمن المقبوض عليهم وأرسلهم إلى خارج المدينة ، حيث قتلوا .. ثم أمر بجمع من تبقى من الأرمن بها وترحيلهم في خلال ساعات .. وحسب الرواية المكملية .. وهي رواية أجنبي لم يذكر اسمه مقيم في خربوط . وهي رقم ٦٦ في مجموعة برايس ، فإن هؤلاء بلغ عددهم ثلاثة آلاف غالبيتهم من النساء والأطفال ، وقد غادروا خربوط سيراً على الأقدام نحو الجنوب الغربي إلى ملطية ، الرها (أورفا) ثم إلى حلب في يوم أول حزيران عام ١٩١٥ ، وكانت تحرسهم قوة قوامها سبعين شرطياً .. وظلوا سائرين معرضين لقتلهم ولسلبهم وخطفهم من القبائل ومن حراسهم .. حتى وصلوا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى ملطية

حيث انضمت اليهم دفعة من الأرمن المرحلين من سيواس ، وتوقفت بولاية سيواس .. فبلغ عددهم ١٨ ألفاً .. وظلوا معرضين لما سبق أن تعرضوا له فضلاً عن الجوع والعري والمرض ... وكان المرضى منهم يتركون في الطريق أو يحرقون .. حتى وصل منهم في اليوم السابعين إلى حلب مائة وخمسون امرأة وطفل فقط .. ضمنهم خمسة وثلاثون من القافلة الأولى .. وكان من هؤلاء الضحايا مطران خربوط الأرمني يساك درخورنيان الذي قتل غداً بعد ترحيله عنها ..

وفي ولاية طرايزون والتي كانت تضم أقلية من الأرمن عددها ٥٣ ألفاً ...

فإنه حسب رواية شاهد أجنبي — لم يذكر اسمه — مقيم في طرايزون ، وهي رقم ٧٢ في مجموعة برايس .. أُلصقت في ٢٦ حزيران عام ١٩١٥ في الشوارع إعلانات عن وجوب ترحيل كل الأرمن من طرايزون .. وفي يوم أول تموز ١٩١٥ .. بدأ القبض عليهم من منازلهم البالغة جملتها ألف ، وأرسلوا جنوباً إلى داخل الأناضول براً .. كما أن بعضهم حمل في قوارب صغيرة لإرسالهم غرباً إلى ميناء صمسون بحراً .. فغرقت بها هذه القوارب .. ولعل هذا ما كان مقصوداً .. وفي قرية طوز القرية من طرايزون .. قتل بعض الأرمن غداً ، ومنهم بوغوص ماريمان من أعيانها ووالده وخمسة وأربعون من الرجال والنساء بعد اغتصابهم .. وحسب رواية شاهد أجنبي من بلدة كيرسون المجاورة ، والتي تكمل الرواية السابقة وهي رقم ٧٥ في مجموعة برايس .. فإن الأرمن جمعوا من هذه القرية .. وأرسل ثلاثمائة وخمسون من الرجال في قافلة إلى داخل الأناضول .. ولكنهم قتلوا جميعاً غداً في اليوم التالي .. أما النساء فقد حبسن ثم طردن من القرية ، وأما الأطفال فقد وزعوا على الأسر التركية ، وأن الأرمن من سكان بلدة شاين قره حصار القرية أيضاً لما علموا بما حدث في قرية طوز تنهوا لما يبيت لهم ، فغادروا قريتهم ، ومارسوا خارجها حرب عصابات ضد السلطات العثمانية ..

وفي مدينة سيواس ، التي كانت تضم ١٩٥ ألفاً من الأرمن .. من مجموع سكانها البالغ ٥٠٧ آلاف ، والواقعة غرب ولاية أرضروم . وحسب رواية شاهد أجنبي مقيم في سيواس ، وهي رقم ٧٧ في مجموعة برايس ، فإنه عندما غادرها في يوم ١٣ تموز ١٩١٥ كان قد زج في السجون قرابة ألف وخمسمائة من الأرمن ، وقتل بعضهم ، ولكن لم تحدث

مذبحة عامة في هذه المدينة ، إنما رحل عنها ثلثا سكانها من الأرمن ، وأنهم تعرضوا في طريقهم إلى المنفى لخطر الموت جوعاً ..

وحسب رواية الأرمني مراد السيواسي ، من قرية جاودون في هذه الولاية .. وهي رقم ٨١ بمجموعة برايس .. فإنه تم القبض على كل المعتقلين بتهمة باطلة .. هي : أنهم دسوا السم في الخبز الذي يخزونه للقوات المسلحة العثمانية .. كما أنه حسب رواية أخرى لهذا الشاهد .. وهي رقم ٨٢ في مجموعة برايس .. فإن كل أسرة شاهينيان الأرمنية قتلت .. وهي تقاوم السلطات العثمانية عند محاولتها القبض عليها في سيواس .. وأن هذه السلطات دبرت اغتيال « أوضاباشيان » المطران الأرمني الأرثوذكسي لهذه المدينة في أواخر شهر كانون ثاني عام ١٩١٥ .. أي قبيل بدء المذابح .. وفي ولاية ديار بكر . التي كانت تضم ١٠٥ آلاف من الأرمن .. و٦٠ ألفاً من السريان ، والكلدانين ، من مجموع سكانها البالغ عددهم ٢٩٦ ألف ، والواقعة جنوبي ولاية بدليس ، فإنه حسب رواية الكاتب العربي « فايز أسعد الغصين » في كتابه « أرمنية الشهيدة » والذي كان معتقلاً بديار بكر ، ثم أطلق سراحه ، فإن الوالي رشيد بك ، أمر بالقبض على أعيان الأرمن بها وسجنهم ، لأن عامتهم كانوا لا يقبلون على الخدمة العسكرية ، ويهربون منها ، ويكونون العصابات .

وأن عدد المقبوض عليهم بلغ سبعمائة ضمنهم بعض القسس ، ومنهم « هوماندرياس » المطران الأرمني الكاثوليكي ، « ومكردتش » نائب المطران الأرمني الأرثوذكسي .. وقد فرحوا لما أخبرهم الوالي أنه صدر أمر بترحيلهم إلى الموصل عبر نهر دجلة إذ لم يعلموا بما بيت لهم ، وهو إغراقهم به .. عند نقلهم في قوارب صغيرة على دفعات .. كان آخرها في شهر تشرين ثاني عام ١٩١٥ .. ويؤكد هذا الكاتب أن ترحيل الأرمن عموماً ، كان بقصد تقتيلهم في الطريق ، وأن القبائل كانت تقوم بذلك بتحريض من السلطات العثمانية ، وأن أمواهم كانت تسلب ، وأن نساءهم كن يغتصبن حتى موتهن .. كما كن تخطفن وتباع الواحدة منهن (بنعجة واحدة) .. وتجبرن مقابل إطلاق سراحهن على الزواج من الأتراك ، أو الأكراد ، بعد إسلامهن ، وتخليهن عن أطفالهن .. ويؤكد هذا الكاتب بصفته مسلماً .. أن الإسلام بريء من هذه الجرائم التي

كانت ترتكب بتحريض من حاكم الدولة العثمانية .. خلافاً لتعاليم الإسلام ، وأنه لهذا ألف كتابه لشجب هذه الجرائم وإدانتها ..

وفي ولاية « ديار بكر » شملت المذابح السريان والكلدان .. لاتهم الدولة العثمانية لهم أيضاً بخيانتها .. وقد ألف القس السرياني الكاثوليكي « اسحق أرملة » العثماني الجنسية ، الذي كان مقياً في ماردين .. من أعمال هذه الولاية ، عن هذه المذابح كتابه « القصارى في نكبات النصارى » المطبوع باللغة العربية في بيروت عام ١٩٢٠ ، وفيه أفاض في وصفها في مدينتي ماردين ، وديار بكر . وفي مدينة الرها ، أو أورفا بولايتها وهي ليست من الولايات الأرمنية العثمانية الستة بشرق الأناضول .. وكذلك في مدينتي دير الزور ، ورأس العين . وأبان أنها شملت رجال الدين المسيحيين من جميع طوائفهم ، وفي مقدمتهم الأرمن .. باعتقالهم وسجنهم ، وقتلهم وتخريب كنائسهم .. وكان من ضحاياها المطران الأرمني الكاثوليكي « أغناطيوس مالويان » من ماردين .. كما أنه في مدينة الرها ، وحسب رواية الأرمني توماس مكردتشيان ، وهي برقم ١٣٤ في مجموعة برايس .. جرت المذابح على ثلاث دفعات في المدة من ١٩ آب حتى أول تشرين أول عام ١٩١٥ .. وراح ضحيتها كل الأرمن فيها ، والذين بلغ عددهم قرابة ٢٨ ألفاً .. إذ رفضوا الانصياع لأوامر ترحيلهم ، وتحصنوا بحجهم ، فهاجمتهم القوات العثمانية بقيادة فخري باشا .. وضربتهم بالمدافع ...

وشملت المذابح ، الأرمن بولاية حلب العربية ، التي كان يوجد كثير منهم فيها ، في قضائي أنطاكية ، والاسكندرونة .. ولكنهم قاوموا أمر ترحيلهم منها الذي أعلن في يوم ١٣ تموز عام ١٩١٥ ، واعتصموا بجبل موسى القريب من ساحل البحر المتوسط .. وقاوموا بقيادة المجاهد عيسى يعقوبيان كل هجمات القوات العثمانية ، وأرسلوا في طلب النجدة من الحلفاء ، فأتى إليهم أسطول فرنسي في يوم ٢ أيلول عام ١٩١٥ ، أي في اليوم الخامس والثلاثين من بدء الحصار ، ونقل منهم ٤٢٠٠ فرد ضمنهم ٩١٥ رجلاً فقط إلى بورسعيد في مصر ، حيث وضعوا في معسكر للاجئين ..

وجرى ترحيل الأرمن من ولاية أدرنة بأوروبا ، ومن ولاية أنقرة ، وسنجق قيصريّة التابع لها في وسط الأناضول دون أن تسجل اعتداءات عليهم أثناء ترحيلهم ، ولعل ذلك

راجع إلى أنهم رحلوا بالسكة الحديدية الممتدة داخل هذه الولايات ، ولعدم وجود من يعترض طريقهم بها ..

ولكن هذا لم يعن نجاتهم ، لأنهم تعرضوا للاعتداءات بعد وصولهم إلى شرق الأناضول ، شأن غيرهم إذ ساروا على أقدامهم إلى وجهاتهم النهائية .. وكذلك لم يعن الوصول إليها بالنسبة للجميع النجاة ، لأنهم وضعوا في معسكرات للاعتقال في العراق .. كان أهمها في دير الزور ، ومسكنة ، وقتلهم حراسهم جوعاً وضرباً بالرصاص .. وفي العاصمة القسطنطينية التي كان يسكنها مائة وخمسون ألف أرمني ، شنق عشرون منهم علناً بتهمة الخيانة ، في يوم أول حزيران عام ١٩١٥ ولكن لم تجر مذابح لهم لوقوعها تحت نظر العالم ، ولقيام الأرمن بها بأعمال هامة للدولة العثمانية ، لا يمكن أن يحل غيرهم محلهم فيها ..

ولهذا اقتصر الأمر فيها على تسجيل كل الأرمن المقيمين بها ، ومراقبتهم ، ومنعهم من التراسل مع الخارج ، والسفر إليه ثم القبض على زعمائهم ، وإبعادهم عنها — منذ يوم ٢٤ نيسان عام ١٩١٥ — ليلقوا حتفهم غيلة خارجها .. وكان من هؤلاء الزعيم الطاشناق خشادور مالوميان ، حليف حزبي تركيا الفتاة ، والعثمانيين الأحرار ، الذي شاركهما في النضال خارج الدولة العثمانية لإسقاط السلطان عبد الحميد الثاني ، ثم قام بالدعاية خارجها أيضاً لإنتقال عام ١٩٠٨ بعد إسقاطه ، وكذلك صديق حكام الدولة العثمانية الجدد من حزب تركيا الفتاة ، وجماعة الاتحاد والترقي ، وكذلك فيلسوفهم « ديكران كليكيان » ، ثم النائب ونقيب المحامين العثمانيين « كريكورزو هراب » الذي صالحهم مع الأرمن إثر مذابح عام ١٩٠٩ ، والنائب « أرشاك فراميان » والنائب « هوفانس فارتكيس » ثم الشاعران أطوم بارجانيان المعروف (بسيامانطو) ، ودانيال فاروجان ، اللذان كتبوا عن نضال الشعب الأرمني ، ثم المجاهد « هاميرتسوم بوياجيان » من أبطال الدفاع عن جبل صاسون في عام ١٨٩٤ وغيرهم .. ولم يصب الأرمن في إزمير ضرر ، لأن غالبية سكانها من الإغريق الذين حموهم .. ولكن دمر وأحرق الحي الأرمني بها في عام ١٩٢٢ إثر استرداد الأتراك لها من الإغريق .

وهاجر باقي الأرمن العثمانيين الذين لم يتأثروا بصفة مباشرة بالمذابح الأرمنية إلى

أرمنية الروسية ، وإلى سورية ولبنان اللتين انفصلتا عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، وإلى سائر بلاد العالم ، ولم يستطع غالبهم العودة إلى بلادهم أرمنية الغربية العثمانية بعد هذه الحرب .. مفضلين على ذلك أسوأ الظروف التي مروا بها في البداية ، فخلت منها تقريباً أرمنية الغربية العثمانية .. وذلك لعدم تكفير السلطات العثمانية ، ومن بعدها السلطات التركية عن هذه المذابح ، بل وعدم ترحيبها بعودتهم وتمسكها بالإجراءات القانونية التي اتخذتها بحقهم ، وخاصة بشأن أملاكهم ، والتي سبق ذكرها في ولاياتهم السابقة في شرق الأناضول .. وفي إقليم قليقية على وجه الخصوص ، بل ولفتك الدهماء ببعض من عادوا فعلاً إلى هذه الولايات وذلك الإقليم ..

ومن الأعمال غير الإنسانية التي قارفتها السلطات العثمانية ضد الأرمن ، إلحاق أطفالهم بملاجئ الأيتام ، وتغيير أسمائهم ، ومحاولة طمس ماضيهم ، لكي ينشأوا أتراكاً .. وقد اقتضى الأمر بعد عقد هدنة مودروس وخروج الدولة العثمانية من الحرب في عام ١٩١٨ ، واحتلال الحلفاء لبعض أطرافها أن يكونوا لجاناً ، وخاصة في العاصمة القسطنطينية لفرز الأرمن من أطفال هذه الملاجئ ..

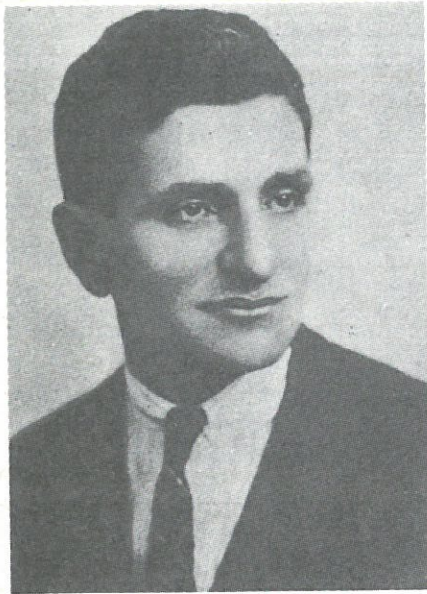
وتقع مسؤولية المذابح الأرمنية لعام ١٩١٥ أولاً على مرتكبيها حكام الدولة العثمانية ، وأولهم طلعت باشا وزير داخليتها ، ثم رئيس وزرائها وزميله أنور باشا ، وجمال باشا ، ثم على شركائهم حكام ألمانيا وممثلهم في الدولة العثمانية ، وعلى رأسهم السفير الألماني فانجنهايم ، والجنرال الألماني ليمان فون ساندروز مفتش عام الجيش العثماني ، الذي كان بوسعهم منع هؤلاء من مقارفة هذه المذابح ، ولكنهم لم يفعلوا ، ويبدو أنهم كانوا يحرضون على مقارفتها ويعلمونهم كيف يقارفونها .

فقد كان الموظفون العثمانيون يرددون أنهم إنما قاموا بالمذابح « لأن هذه هي تعليمات الألمان » . وبعد الانتهاء من الحرب العالمية الأولى ، اعترف الداماد فريد باشا رئيس وزراء الدولة العثمانية في خطابه يوم ١٧ حزيران عام ١٩١٩ أمام المجلس الأعلى للحلفاء ، المنعقد أثناء مؤتمر الصلح في باريس (أن العالم المتمدن قد أثرت فيه هذه المذابح التي ارتكبتها الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأن كل ما يسعى إليه هو تخفيف وقعها على الضمير

العالمي (أي أن الدولة العثمانية تعترف بمقارفتها للمذابح الأرمنية لسنة ١٩١٥ ، ولا تجد لها تبريراً ، وإنما تلتبس معاملتها بالرفقة عند مجازاتها عنها ..

وجرت في الدولة العثمانية محاكمة غيايية لزعمائها الثلاث السابقين (طلعت باشا — أنور باشا — جمال باشا) الذين ارتكبوا هذه الجرائم غير الإنسانية ، وزجوا بدولتهم في الحرب ، مما أدى إلى هزيمتها وتمزقها وذلك في العاصمة القسطنطينية منذ يوم ٢٦ تشرين الثاني عام ١٩١٨ وانتهت في ٥ تموز ١٩١٩ ، بالحكم عليهم بالإعدام ، ولكنهم كانوا قد هربوا إلى ألمانيا ، إثر توقيع الدولة العثمانية لهدنة مودروس مع الحلفاء في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ ، كما أن هذه المحاكمة كانت صورية لم يقصد بها إلا اكتساب عطف الحلفاء ، ولهذا أصدرت الجمعيات الثورية السرية الأرمنية حكمها بإعدامهم وشركائهم ، وكلفت فدائيتها بتنفيذ هذا الحكم .. فنفذ أولاً بقتل طلعت باشا في برلين يوم ٥ آذار عام ١٩٢١ ، حيث اغتاله الفدائي صوغومون تهلريان ، ومن بعده تم قتل محمد سعيد حليم رئيس الوزراء العثماني ، حيث اغتاله الفدائي أرشاميز شيراكيان في روما يوم ٦ كانون الأول عام ١٩٢١ . وبعدهما قتل جمال باشا في تفليس يوم ٢١ تموز ١٩٢٢ ، وقد اغتاله الفدائيان بدروس تربوغوصيان وارداشيس كيفوركيان ، وكذلك قتل بهاء الدين شاكركر ، الذي اغتاله الفدائيان آرام بارجيان وأرشافير شيراكيان في برلين يوم ٧ نيسان ١٩٢٢ ، وأما أنور باشا ، فقد قتل في بلدة بلجوان قرب دوشنيه عاصمة جمهورية طادجيكستان الاشتراكية السوفيتية الحالية بآسيا الوسطى في يوم ٤ آب عام ١٩٢٢ ، على يد غريغور صاروخانيان ، وهاجوب ملكوميان .. وكان هذا هو القصص الموافق العادل من هؤلاء لارتكابهم في الحرب العالمية الأولى المذابح الأرمنية لعام ١٩١٥ ، بل ومذابح زعماء الثورة العربية الذين أعدمهم شنقاً جمال باشا .. حال قيادته الجيش العثماني الرابع في الشام ، وولايته له في عام ١٩١٦ . ولقد أقرت ذلك محكمة جنابات برلين الألمانية .. فقضت ببراءة أول هؤلاء الفدائيين ، بعدما وزنت الأدلة التي قدمها إليها عن دوافعه لاغتياله طلعت باشا جلاد الأرمن ، وخاصة شهادة الجنرال الألماني ليمان فون ساندروز مفتش عام الجيش العثماني سابقاً ، والمستشرق الألماني لبيوس الذي أدان المذابح الأرمنية إبان وقوعها .

ويجدر بالتسجيل أن كلاً من العرب والأرمن ، وجد في الآخر صديقاً طبيعياً ، نتيجة للمحن والمذابح التي تعرضوا لها في الدولة العثمانية ، وصارت مصالحهم المشتركة تقتضي تخلصهم من حكمها . ودامت هذه الصداقة المتبادلة حتى بعد زوال هذه الدولة ، وقد تجلت قبله في تخليص العرب لكثيرين من الأرمن من مصيرهم المحتوم أثناء ترحيلهم خلال مذابح عام ١٩١٥ ، وإخفائهم لهم ، وفي مشاركة القوات الأرمنية ، والقوات العربية لقوات الحلفاء في مقاتلة القوات العثمانية في جبهة الشام ، كما تجلت بعد زوال هذه الدولة في حسن معاملة العرب للأرمن الذين ساهموا في تطوير وتقديم البلاد العربية ، إلى جانب أبنائها العرب وتعاونهم معهم في ذلك ، وخاصة أنهم اعتبروا في غالب الأحوال من مواطنيها دون حاجة لكسب جنسياتها ، باعتبار أن الجميع العرب ، والأرمن ، كانوا يرزحون تحت الاحتلال العثماني ، وهنا نورد ما كتبه الأدباء الأرمن عن موقف العرب المشرف ، حيث أجمعوا على القول « إن المروءة تقتضي بأن نسجل للعرب عامة وللسوريين خاصة ، ما أظهره من شجاعة وعطف أيام محتتنا ، فقد آووا في بيوتهم الكثير من اليتامى والمشردين ، وأقدم العرب السوريون على هذا العمل الإنساني بدافع من ضمائرهم رغم فداحة المسؤولية التي عرضوا أنفسهم إليها .



ميساك تورلاكيان قتل سفاح أرمن باكو
«جيفانشاهير ييهوت خان» عام ١٩٢١



بدروس دير بوغوصيان وستيبان زاغيكيان
... قتلا جمال باشا في تفليس



يتيمات أرمنيات في بور سعيد عام ١٩١٦



صوغمون تهلريان قاتل طلعت باشا

— رجال الدين —



— سياسيون —



قائمة من الشهداء البررة

— كتاب وشعراء —



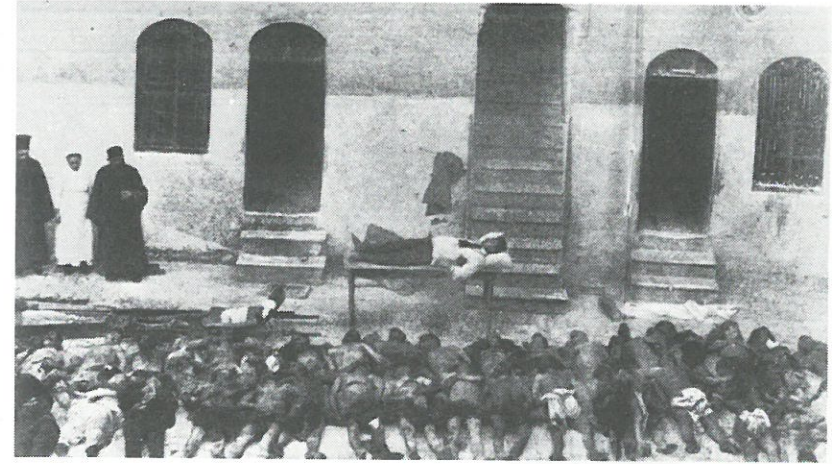
الفصل السادس عشر

الاستقلال والمعاصرة

ساءت الأحوال في الدولة القيصريّة نتيجة ظلم القياصرة ، والبؤس والدمار الذي خلفته الحرب العالمية الأولى ، فازداد السخط الشعبي ، ونمت الحركات الثورية ، بشكل لم يسبق له مثيل ، مما أدى في نهاية المطاف إلى قيام ثورتي شباط ، ثم أكتوبر عام ١٩١٧ ، لتدكا الدولة القيصريّة ، وترسخا سلطة الشعب .

وقد شهد إقليم القوقاز ، إثر نجاح الثورة الأولى ، مظاهرات شعبية مؤيدة لها ، وخاصة في مدينة باكو التي كانت تضم أكبر تجمع عمالي برئاسة ستيان شاهوميان ، كما تزعم انسطاس ميكويان عمال بلدة اتشمياتزين ، وعينت الحكومة المؤقتة التي قامت نتيجة ثورة شباط ، لجنة خاصة لهذا الإقليم من خمسة أعضاء بينهم ، ميكائيل بابازيان ، كما عينت مفوضية عامة لإدارة الأراضي الأرمنية العثمانية التي كانت القوات الروسية قد احتلتها إبان الحرب العالمية ، واحتل منصب نائب المفوضية ، السياسي الطاشناقي هاغوب زافريان .

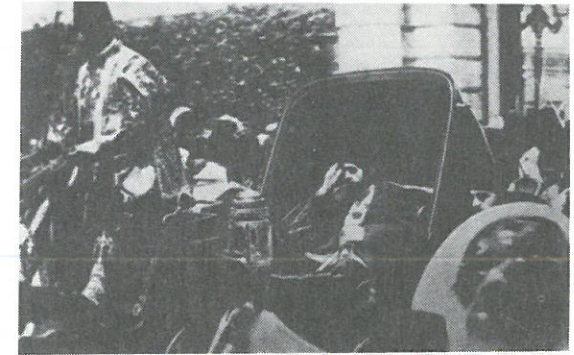
لكن قصور هذه الحكومة المؤقتة وعجزها عن تلبية المطالب الشعبية ، وعدم إجراءاتها



قتل جماعي



تجويد حتى الموت



السلطان الأحمر

أي تعديل على الجهاز الإداري القيصري في إقليم القوقاز ، ثم عدم قدرتها على حل المسألة القومية . كل ذلك ، أدى إلى بروز نزاع كبير بين مختلف الأحزاب السياسية ، حيث أعلن البلاشفة بزعامة شاهوميان ، أنهم ضد هذه الحكومة ، بينما أعلن كل من حزب الطاشناق في أرمينية ، والمنشفي في جورجيا والمساواة في أذربيجان عدم تأييدهم للثورة .

وفي أيار ١٩١٧ ، انعقد في يريفان أول مؤتمر للأرمن الغربيين من الأحزاب التقليدية وانتخب لجنة تنفيذية برئاسة فاهان بابازريان ، اهتمت بإعادة المهاجرين إلى أرمينية العثمانية ، كذلك انعقد المؤتمر الأرمني الوطني الأول في مدينة تفليس من ١١ إلى ٢٥ تشرين أول ، وشارك فيه ١٨٨ مندوباً من حزبي الطاشناق والرمغافار ، وانتخب لجنة تنفيذية من ١٥ عضواً برئاسة أفيديس أهارونيان ، ومن أعضائها آرام مانوكيان وميكائيل بابازريان . لكن المؤتمر لم يصل إلى قرارات محددة ، فرد عليه البلاشفة بمؤتمر عقد في تفليس أيضاً وانتخب لجنة اقليمية من أعضائها شاهوميان الذي ترأس أول حكومة محلية في القوقاز سيطرت على جزء منه وأعلنت ولائها للحكومة السوفييتية الجديدة التي قامت برئاسة لينين بعد ثورة أكتوبر .

أما الأحزاب الأخرى ، فقد تمكنت من السيطرة على باقي إقليم القوقاز وشكلت حكومة في ١٥ تشرين الثاني من أحد عشر وزيراً بينهم ثلاثة من الأرمن هم ، هامو أوهانجانيان ، غازار ترغازاريان ، خشادور كارشيكيان .

وهنا ، نعود إلى ثورة أكتوبر ، حيث كان من أول أعمال حكومتها على الصعيد الخارجي ، هو إصدار مرسوم السلام المؤرخ في ٨ تشرين الثاني ، وهو المرسوم الذي أدى إلى ما يلي :

— الاتفاق في ٥ كانون الأول ، على وقف القتال والعمليات الحربية على جبهات الحرب العالمية الأولى .

— في ١٥ منه ، وقعت الهدنة بين الحكومة السوفييتية والدول المتحاربة .

— في ١٨ منه ، عقدت هدنة خاصة بجبهة القوقاز ، هي هدنة أرزنجان .

— في ٢٢ منه ، بدأت مفاوضات الصلح ، وانتهت في ٣ آذار ١٩١٨ بتوقيع معاهدة

« برست ليتوفسك » ، بين الحكومة السوفييتية من جهة ، وألمانيا والنمسا والدولة العثمانية من جهة .

إلا أن هذه المعاهدة ، لم تقم على المبادئ التي أقرها مرسوم السلام الآنف الذكر ، بل تضمنت تنازلات كبيرة من جانب الحكومة السوفييتية التي اضطرت إلى إقرارها ، كي تلتقط أنفاسها في الداخل . وقد تضمنت المادة الرابعة من المعاهدة ، التزام الحكومة السوفييتية الفوري بإخلاء مناطق شرق الأناضول العثمانية — وأرمينية الغربية منها — والالتزام برد أقاليم قارس ، أولطي ، قاغزمان ، ارتفين ، اردهان ، باطوم ، وهي جزء من أرمينية الشرقية وجورجيا إلى الدولة العثمانية التي كانت قد تنازلت عنها لروسيا القيصرية .

وحال إبرام المعاهدة ، انتهزت القوات العثمانية تفوقها عدداً وعدة على القوات الأرمنية والكرجية المواجهة لها في جبهة القوقاز ، وشنت هجوماً انتهى في مرحلته الأولى بتاريخ ١٩ نيسان ١٩١٨ ، إلى استرداد أرمينية الغربية ، ومساحات أخرى من القوقاز .

وفي ٢٢ نيسان ، أعلنت حكومة القوقاز ، انفصالها رسمياً عن الدولة الروسية ، وأنها باتت دولة مستقلة تحت اسم « جمهورية ما وراء القوقاز الديمقراطية الفيدرالية » . وقد قررت هذه الحكومة وقف الحرب ضد الدولة العثمانية ، والعودة إلى مفاوضات الصلح . لكن رئيس الحكومة الكرجي ، أمر الجنرال الأرمني توماس نزار بيبكيان القائد العام للقوات الأرمنية ، والقائد الروسي ديف ، قائد حامية قارس ، بتسليمها إلى القوات العثمانية دون قتال ، وهذا ما حصل بالفعل رغم استعداد القوات الأرمنية للقتال ، وقد أثار التخلي عن فارس ضجة كبرى في صفوف الأرمن الطاشناق في حكومة جمهورية ما وراء القوقاز ، وعرضوا أن يتولى رئاسة الحكومة الأرمني الطاشناق هوفانس كاشازنوني بدلاً من رئيسها الكرجي ، إلا أن الكرج تغلبوا عليهم ، وأعيد تشكيل الحكومة من ١٣ وزيراً ، بينهم أربعة أرمن هم هوفانس كاشازنوني ، اسكندر خادسيان ، اقيديس اسحقيان ، ارمياسيس إززنكيان ، وكلهم من حزب الطاشناق ما عدا آخرهم فكان اشتراكياً ديمقراطياً .

ونتيجة استحكام الخلاف في صفوف هذه الحكومة ، أعلنت في ٢٦ أيار ١٩١٨ ، حل نفسها ، وبالتالي حل جمهورية ما وراء القوقاز ، الأمر الذي ساء الأرمن لأنه

جردهم من شركائهم ، فقرروا من خلال مجلسهم الوطني الذي كان يمثلهم في برلمان تلك الجمهورية ، وجوب إعلان استقلال أرمينية وذلك بتاريخ ٢٨ أيار ١٩١٨ . لكن قيام جمهورية أرمينية المستقلة لم يعلن إلا في ٣٠ أيار ١٩١٨ ، عبر بيان أصدره المجلس الوطني ، والذي أعلن فيه توليه السلطة العليا في أرمينية ، وتعيين حكومة مؤقتة تسير شؤونها . وفي ٩ حزيران شكلت الحكومة برئاسة الأرمني الطاشناق هوفانس كاشازنوني ، التي اعتبرت أول حكومة للدولة الأرمينية المستقلة في التاريخ الحديث ، وهي الحكومة التي أكدت فيما بعد أن يوم ٢٨ أيار ، هو عيد استقلال أرمينية .

وفي هذه الأثناء ، واصلت القوات العثمانية على نحو ما كان متوقفاً ، الزحف إلى قلب أرمينية لاحتلالها والنفوذ منها إلى أذربيجان وإيران ، وقد وقعت عدة معارك بين هذه القوات والقوات الأرمينية التي حققت انتصارات باسلة ، وخاصة في معركة سردار آباد ، التي باتت محط اعتزاز الشعب الأرمني ، ورمز نضاله من أجل البقاء في العصر الحديث ، فأقام في عام ١٩٦٨ نصباً تذكاريّاً صممه المهندس د . إسرائيليان ، تخليداً لها .

وقد انتهت تلك المعارك التي قادها كل من الجنرال توماس نزار بيسكيان ، والجنرال موسس سلكيان ، والعقيد دانييل ييروميان ، والجنرال درو كانيان ، والجنرال أنترانيك أوزانيان انتهت إلى إبرام معاهدة صلح باطوم بين حكومة جمهورية أرمينية الطاشناقية وألمانيا والدولة العثمانية في ٤ حزيران ١٩١٨ ، وقد استجابت الحكومة الأرمينية في هذه المعاهدة إلى مطالب الدولة العثمانية التي أيدتها ألمانيا . ولئن كسبت جزءاً لها على الانتصارات الأخيرة لقواتها تنازلاً عثمانياً طفيفاً وهو أن تضم إلى أراضيها حوالي ٦٠٠ كم^٢ على مقربة من جبل أراكاس ، لكنها فقدت مدينة إسكندربول ، وصارت مساحة أرمينية قرابة ١٠ آلاف كم^٢ وأطلق عليها اسم جمهورية يريفان الأرمينية ، كما قبلت أن تمر القوات العثمانية في أراضيها ، وأن يقتصر جيشها على ١٠ آلاف جندي .

بعد ذلك زحفت القوات العثمانية باتجاه « باكو » عبر جمهورية يريفان ، لكن القوات البريطانية على جبهة العراق ، حاولت وقف هذا الزحف ، فتمكنت من احتلال العاصمة الأذربيجانية بقوة قوامها حوالي ألفي جندي ، دون قتال نتيجة وجود حكومة الزعيم الأرمني رستم زوريان الطاشناقية التي حلت محل الحكومة السوفييتية المحلية في ٣١

تموز ، والتي كان يرأسها شاهوميان . لكن القوة البريطانية سرعان ما انسحبت من باكو ، وهكذا تمكنت هذه القوات العثمانية من دخول باكو في ١٥ أيلول ، واستولت عليها ونفذت فيها مذبحاً للأرمن راح ضحيتها خمسة عشر ألف منهم . وما يجدر ذكره أنه لدى انسحاب القوات البريطانية من « باكو » ، أمرت بإرسال زعمائها وحكومتها وعلى رأسهم شاهوميان إلى ميناء كرسانوفودسك ، ومن هناك اقتيدوا إلى داخل صحراء قره قوم وقتلوا غدرًا على يد حكومة ما وراء بحر قزوين المعادية لثورة أكتوبر ، وقد خلد الأرمن ذكرى شهيدهم شاهوميان بنصب تذكاري في يريفان يعتبر واحداً من معالمها الهامة .

أما الحكومة الأرمينية التي كان قد شكلها كاشازنوني في حزيران ، فقد عقدت في الأول من آب ، برلمانها الأول المسمى « الخرهوت » والذي تألف من ٤٠ نائباً . ولجأت إلى روسيا السوفييتية والحكومة العثمانية في آن واحد ، وأرسلت لهما وفوداً ، لإقناعهما بأنه من صالحهما أن تكون أرمينية قوية ومستقلة . وباشر هذه المهمة على التوالي كل من هاغوب زافاريان ، وهامو أوهانجيان ، واسكندر خادسيان ، ولكن دون جدوى . كذلك لم تستطع حكومة أرمينية الالتجاء إلى دول الحلفاء لضمان استقلالها ، رغم إطلاق زعمائها وأولهم كليمنصو رئيس وزراء فرنسا ، ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، ثم الرئيس الأمريكي ولسن ، تصريحات متعاطفة مع أرمينية ووجوب استقلالها ، وذلك لعدم وجود اتصال مباشر بينها وبين هذه الدول .

وعقب سقوط باكو ومنطقتها ، بيد القوات العثمانية ، أصبح كل إقليم ما وراء القوقاز تقريباً في قبضة ألمانيا والدولة العثمانية . لكن هذه السيطرة لم تدم طويلاً ، لأن الهزيمة حلت بهذه الدولة على يد الحلفاء ، بعد الضربة القاضية التي أنزلتها بها القوات البريطانية والفرنسية على جبهة الشام ، بقيادة الجنرال اللنبي ، وكانت تضم قوات الثورة العربية ، وقوات من المتطوعين الأرمن ، الذين أجلوا بوجه خاص عن إقليم قليقية ، وقد نال هؤلاء المتطوعون الثناء لبسالته في معركة عرعر قرب حيفا ، والتي دارت في ٢١ أيلول .

وإثر هذه الهزيمة ، اضطرت الدولة العثمانية إلى التوقيع على هدنة مودروس مع دول الحلفاء في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ ، كذلك اضطرت ألمانيا إثر هزيمتها في غرب أوروبا إلى التوقيع على هدنة كومبين ، وقد تضمنت الهدنتان ، وجوب انسحاب الدولتين من

إقليم ما وراء القوقاز ، وفيما سحبت ألمانيا قواتها من جورجيا دون أية مشاكل ، راحت الدولة العثمانية ، تنفذ سياسة المراوغة حيناً ، وإثارة القلاقل طوراً ، والتفاوض حيناً آخر ، وذلك بهدف تحقيق أكبر قدر من المكاسب على الأرض .

وقد استمرت هذه السياسة ، دون أن تلقى مقاومة من دول الحلفاء ، وفي مرحلة ساءت فيها الأحوال المادية لإرمينية ، لأنها وجدت نفسها شبه معزولة عن العالم ، إضافة إلى إستيعابها قرابة نصف مليون لاجئ انضموا إلى سكانها البالغ عددهم ثلاثة أرباع المليون نسمة ، فوق مساحة صغيرة من الأراضي التي حولتها الحروب خراباً . ولذلك استغاثت بكل دول العالم على لسان حاكم يريفان آرام مانوكيان ، فأعانتها هذه الدول وعصبة الأمم بكل ما احتاجته من مساعدات إنسانية عن طريق الاتحاد الخيري الأرمني العام .

بعد ذلك استطاعت جمهورية يريفان أن تضم بعض الأراضي من أرمينية الشرقية ، فحملت من جديد اسم جمهورية أرمينية ، ولكنها لم تتمكن من ضم أي جزء من أراضي أرمينية الغربية ، ورغم ذلك ، أعلن نائب رئيس وزراءها اسكندر خادسيان بيان قيام جمهورية أرمينية الموحدة المتضمن ضم أرمينية الغربية ، وذلك تنفيذاً لقرار مؤتمر الأرمن الغربيين الثاني ، الذي انعقد في يريفان من ٦ إلى ١٣ شباط ، وكذلك تنفيذاً لقرار البرلمان الصادر في ٢٧ نيسان ، إلا أن هذه القرارات بقيت نظرية ولم تر طريقها إلى التنفيذ . وفي شهر حزيران أسفرت الانتخابات العامة عن فوز ساحق لحزب الطاشناق فاحتفظ بالسلطة ، وشكل حكومة برئاسة اسكندر خارستان في شهر آب ، ثم خلفتها حكومة جديدة في أيار ١٩٢٠ برئاسة هامو اوهانجانيان .

أما على الصعيد الخارجي ، فقد سعت أرمينية للحصول على تأييد رسمي من دول الحلفاء للاعتراف باستقلالها وضمها الأراضي الغربية بعد فصلها عن الدولة العثمانية ، وذلك بالاعتماد على المبدأ الثاني عشر من مبادئ الرئيس الأمريكي ولسن الخاص بحق تقرير المصير .

وحين افتتح مؤتمر باريس في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٩ للصلح وبحث شروط المعاهدات مع الدول الأعداء وهي ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية وبلغاريا ، كان واضحاً منذ

البداية أن هذا المؤتمر ، لن يتبع إلا قرارات المجلس الأعلى للحلفاء ، بعيداً عن روسيا التي خرجت من صفها نتيجة إبرامها معاهدة « برست ليتوفسك » .

وإلى هذا المؤتمر ، أرسلت أرمينية ، وفداً برئاسة أفيديس أهارونيان لعرض المطالب الأرمينية على الحلفاء والتداول معهم . ووصل الوفد إلى باريس في الرابع من شباط ، إلا أن المشاركين بالمؤتمر لم يقبلوا جلوس الوفد الأرمني معهم ، بذريعة أن أرمينية لم تكن من الدول التي أعلنت الحرب على دول الأعداء أو قطعت علاقاتها معها ، رغم أنهم قبلوا مشاركة دول لم تنطبق عليها هذه الشروط مثل بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وبلاد الحجاز .

كذلك ، وصل إلى باريس وفد أرمني آخر برئاسة بوغوص نوبار باشا ممثلاً للأرمن العثمانيين والمغتربين ، باسم الوفد الوطني الأرمني ، وقد ظهر تباين بين آراء الوفدين ، إذ كان بوغوص باشا محافظاً وغير حزبي ، ويطالب بإقامة دولة أرمينية كبرى ، ولا يعترف بتمثيل جمهورية يريفان التي يسيطر عليها حزب الطاشناق لجميع الأرمن ، ولكن وفد هذه الجمهورية كان يمتاز بأنه يمثل دولة قائمة ولها كيانه . ورغم الخلاف في الآراء ، استصوب الوفدان عدم إعلانه ، وآثرا الاتفاق على مطلب تأسيس دولة أرمينية كبرى ، والتقدم إلى مؤتمر باريس بوفد متكامل انضم إليه فيما بعد الفقيه والوزير الأرمني العثماني السابق ، جبرائيل نورادونجيان ، بصفة مستشار قانوني ، والأستاذ بكلية « روبرت » الأمريكية بالقسطنطينية درهاغوبيان بصفة خبير .

وفي الثاني عشر من شباط تقدم الوفدان بمذكرة مشتركة ، تضمنت الاعتراف بدولة أرمينية ، وأن تضم أقاليم ناخشيفان وصورمالو ولوري وأخالكاكي ، وجنوب غرب ولاية اليزافتبول أي اقليمي زنجزور وقره باخ وولاية وأقاليم قارس وأولطي وقاغزمان وأردهان ، والولايات الأرمينية العثمانية الستة بشرق الأناضول وهي وان وبدلس ودياربكر وخربوط وسيواس وأرضروم ، وكذلك ولاية طرايزون وسناجق منطقة قليقية الأربع وهي مرعش وخوزان وجبل بركات وأضنة .

وقد أوردت المذكرة الحجج والبراهين التي استندت إليها هذه المطالب ، وقوامها أن الأراضي المذكورة ، هي بلاد الأرمن التي سكنوها منذ قديم الزمان وشكلوا غالبية سكانها ،

وأن حملات الإبادة التي تعرضوا لها لا تنال من حقهم ، ويجب سماع صوت كل الأرمن الأحياء منهم والأموات كما ورد في المذكرة التي تضمنت في ختامها المطالبة بوضع أرمينية تحت وصاية الحلفاء أو عصبة الأمم لمدة لا تقل عن عشرين عاماً .

وفي ٢٦ شباط شرح رئيسا الوفدين أهارونيان وبوغوص باشا مضمون المذكرة لمجلس الحلفاء ، كما قابلا بخصوصها الرئيس الأمريكي ولسن فأكد تأييده لهما . وفي مظاهرة لتأييد هذه المطالب ومناقشة مستقبل أرمينية ، عقد بوغوص باشا في باريس في المدة من ٢٤ شباط إلى ٢٢ نيسان ، المؤتمر الوطني الأرمني الذي اكتسب طابعاً دولياً ، حيث شارك فيه ، ٣٨ عضواً من أقطاب الأرمن ومفكرهم في كل أنحاء العالم ، ومن المشاركين : ارفند اغاثونيان عن الأرمن الأمريكيين ، وبطريك القسطنطينية السابق يفيشه طوريان ، والوزيران العثمانيان السابقان ، جبرائيل نوار دونجيان وغريغور ستيبانيان ، والسفير الإيراني السابق لدى بريطانيا هوفانس خان مسيحيان ، والأدباء أرشاك تشوبانيان ، وليفون شانط ، وفاهيان تيكيان ، وحضره بصفة مراقبين ، افيديس أهارونيان ، وهامو أوهانجانيان . وقد طالب هذا المؤتمر بأن يسند الحلفاء إلى أمريكا الانتداب على أرمينية لإدارتها ، كما تقدم إلى مؤتمر باريس بمذكرة إضافية تضمنت التعويضات التي يجب دفعها لأرمينية تعويضاً عن خسائرها .

أما الرد الرسمي للحكومة العثمانية ، فقد جاء بمذكرة تقدمت بها إلى ممثلي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في القسطنطينية ، معارضة هذه المطالب ، بحجة أن الأرمن لم يكونوا سوى أقلية نسبتها ٢٠٪ في الأراضي العثمانية ، كما وصفت المذابح الكبرى لعام ١٩١٥ والتي راح ضحيتها مليون ونصف المليون شهيد بأنها مجرد حوادث يؤسف لها . واقترحت لتسوية هذه المطالب حلين ، هما ، أما ترك الأراضي المطالب بها تحت سيادة الدولة العثمانية مع تقرير حق اللاجئين الأرمن بالعودة إليها ، وأما توسيع حدود أرمينية القائمة وقتئذ إلى الحد اللازم لاستيعاب اللاجئين الأرمن الموجودين بإقليم القوقاز وسورية بعد إحصاء عددهم من قبل لجنة دولية .

لكن سرعان ما تصلب موقف الحكومة العثمانية بشأن المطالب الأرمينية ، حيث سمح مؤتمر باريس لرئيس هذه الحكومة ، بالحديث أمامه دون غيره من مندوبي دول

الأعداء الأخرى ، فألقى خطاباً متشدداً ، وأتبعه بمذكرة لم يشر فيها إلى أي تنازل اقليمي أو عودة اللاجئين الأرمن إلى أراضي الدولة العثمانية .

وفي ٢٩ حزيران ، انتهت المرحلة الأولى من مفاوضات مؤتمر باريس بتوقيع دول الحلفاء على معاهدة فرساي للصلح مع ألمانيا ، دون توقيع معاهدة مماثلة مع الدولة العثمانية ، وكانت العقبة التي حالت وإبرام هذه المعاهدة ، هي عدم الاتفاق على مستقبل أرمينية بين دول الحلفاء الكبرى ، وعدم قبول واحدة منها الندب لإدارتها لما يرتب ذلك من التزامات مادية وسياسية ، فقد اتصلت بريطانيا من الانتداب منذ بداية المؤتمر ، وعرضته على إيطاليا فرفضته بدورها .

وأخيراً ، وفي ١٤ أيار ، قرر أعضاء المجلس الأعلى للحلفاء وضمنهم الرئيس الأمريكي ولسن أن يعهد بالانتداب إلى أمريكا ، شريطة موافقة مجلس الشيوخ ، وبناء عليه ، أوقف مجلس الحلفاء توقيع معاهدة الصلح مع الدولة العثمانية حتى تقرير مسألة الانتداب ، وحين تبين أن القرار الأمريكي قد يتأخر ، تم إبرام معاهدة « سان جرمان » مع النمسا في ١٠ أيلول ، ومعاهدة « نوييلي » مع بلغاريا في ٢٧ تشرين الثاني .

بعد ذلك ، عاد مجلس الحلفاء إلى الاهتمام بمسألة الصلح مع الدولة العثمانية ، فاعترف رسمياً بجمهوريات ما وراء القوقاز الثلاثة ، أرمينية ، أذربيجان ، جورجيا ، في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٠ ، وأقرت أمريكا هذا الاعتراف بالنسبة لأرمينية ، في ٢٣ نيسان ، ثم عرضت مسألة الانتداب على عصبة الأمم في ١٢ آذار ، بمناسبة إقرار تأسيس أرمينية وانضمامها لعضويتها ، لكن عصبة الأمم رفضت الندب لعدم توافر إمكاناته لديها ، فعرض على أمريكا ثانية ، وأعلن الرئيس ولسن قبوله في ٢٤ أيار ، بعد أن تلقى تقريرين عن أحوال أرمينية أعدهما الجنرال جيمس هاربود وبعثة شارل كرلين ووليم كننج ، لكن مجلس الشيوخ رفض قبول الندب في أول حزيران ، إيثاراً لسياسة العزلة ، وتمشياً مع قراره القاضي بعدم التصديق على معاهدة فرساي والاكتفاء باعتبار الحرب بين أمريكا وألمانيا منتهية .

ولدى استئناف مفاوضات الصلح مع الدولة العثمانية ، تم إعداد معاهدة « سيفر » التي وقعها ممثلو الحلفاء ومن بينهم افيديس أهارونيان نيابة عن جمهورية أرمينية التي اعتبروها

أخيراً منهم ، كما وقعها ممثل الدولة العثمانية وذلك في ٢٠ آب . وقد تضمنت هذه المعاهدة تنازل العثمانيين عن كل البلاد العربية التي كانوا يحكمونها في آسيا ، كما نصت المادة ٨٨ من هذه المعاهدة على اعتراف الدولة العثمانية رسمياً بأن أرمينية دولة حرة مستقلة ، كذلك نصت المادة ٩٠ على أن أرمينية ودول الحلفاء والدولة العثمانية عينت الرئيس الأمريكي ولسن محكماً لرسم الحدود بين أرمينية والدولة العثمانية في ولايات وان وبدليس وطرايزيون وأرضروم ، وتركت المادة ٩٢ لجمهورية أرمينية رسم حدودها مع جمهوريتي أذربيجان وجورجيا . كما أنه في نفس يوم توقيع المعاهدة المذكورة ، عقدت جمهورية أرمينية مع جمهورية روسيا ، اتفاقية تفليس التي تضمنت وعد الأخيرة بالاعتراف بها رسمياً ووقف القتال بين قواتهما الذي كان بسبب دخول القوات الروسية إلى إقليم قره باخ وزنجور وناخشيغان ، وبمعاهدة « سيفر » واتفاقية « تفليس » بلغت جمهورية أرمينية ذروة النجاح السياسي .

وفي ٢٢ تشرين الأول ١٩٢٠ ، أتم الرئيس الأمريكي مهمته ، وأصدر قراره الذي أعطى بموجبه أرمينية مساحة من الأرض في شمال شرق الأناضول تبلغ مائة ألف كم^٢ ، شملت معظم الولايات الثلاثة ، وان ، بدليس ، وأرضروم ، وذلك استناداً إلى أن أغلبية مطلقة من الأرمن كانت تسكنها قبل الحرب العالمية الأولى ، كما شملت هذه المساحة ، جزءاً من ولاية طرايزون ، كي تطل أرمينية على البحر الأسود . غير أن هذا القرار لم ينفذ لأن الأراضي المذكورة لم تكن تحت سيطرة دول الحلفاء ولا تحت سيطرة الدولة العثمانية ، بل كانت خاضعة لسيطرة الحركة الوطنية التركية الكمالية بزعامة مصطفى كمال باشا ، وهي الحركة التي تمكنت فيما بعد من القضاء على السلطنة العثمانية ، وأقامت الدولة التركية الحديثة ، وأبرمت في ٢٤ تموز ١٩٢٣ مع دول الحلفاء معاهدة « لوزان » التي حلت محل معاهدة « سيفر » ، والتي أقرت بالتنازل عن البلاد العربية ، ولم تتضمن أية مادة أو إشارة إلى أرمينية .

غير أن دول الحلفاء شجعت أرمينية الطاشناقية ، معنوياً وليس مادياً ، على مهاجمة أملاك حكومة تركيا الوطنية في الشرق ، لتأخذ منها بالقوة ، الأراضي الأرمينية الخاضعة لسيطرتها ، فشن الأرمن حرب عصابات على طول هذه الحدود . لكن القوات التركية

المتفوقة عدة وعدداً ، قامت في ٢٨ أيلول بهجوم عام على أراضي جمهورية أرمينية ، فاحتلت عدة مناطق وأقامت بها مذابح جديدة ، مما اضطر الحكومة الأرمينية إلى طلب عقد الصلح ، وإثر استقالة هذه الحكومة ، شكل سيمون فراطسيان حكومة في جديدة في ٢٣ تشرين الثاني ، وبدأت مفاوضات الصلح في ٢٩ منه وتم إبرامه وكذلك إبرام معاهدة اسكندربول وهي المعاهدة التي لم تنشر ولم يصدق عليها . وبعد استفتاء أجرته السلطات التركية استناداً إلى المعاهدة المذكورة ، وهو استفتاء تحكمت به وفق إرادتها أصبحت الحدود الأرمينية التركية تقريباً على ما هي عليه حالياً .

وفي ٢٩ تشرين ثاني عام ١٩٢٠ تمكن الحزب الشيوعي الأرمني من إسقاط الحكومة الطاشناقية ، واستولى على السلطة في جمهورية أرمينية ، وأعلنها جمهورية اشتراكية سوفيتية ، وقد اعتبر هذا اليوم عيداً للاستقلال الوطني .. وكان أول رئيس للحكومة السوفيتية هو سر كيس كاسيان .

وفي ٤ كانون أول عام ١٩٢٠ أُنذرت الحكومة الروسية السوفيتية الحكومة التركية الوطنية بوقف زحف قواتها على أرمينية ، وفي ذات اليوم دخل الجيش الأحمر السوفيتي الحادي عشر إلى يريفان عاصمتها ، لتقديم المساعدة إلى حكومتها الجديدة ، ولحماية أرمينية من الزحف التركي عليها .. وذلك بناء على طلبها ، إذ كانت الحرب التركية الأرمينية لم تزال ناشبة عند قيام هذه الحكومة الجديدة ، وكانت القوات التركية الوطنية تسيطر على بعض أراضي جمهورية أرمينية رغم إبرام ممثلي حكومة أرمينية الطاشناقية بعد سقوطها ، مع ممثلي الحكومة التركية الوطنية ، معاهدة للصلح في يوم ٢ كانون أول عام ١٩٢٠ ، في اسكندربول ..

وفي ١٨ شباط عام ١٩٢١ قام الطاشناقيون بانقلاب مضاد واستولوا مؤقتاً على العاصمة يريفان ، وأقاموا بها حكومة طاشناقية جديدة برئاسة سيمون فراطسيان ، حاولت عبثاً الحصول على مساعدة دول الحلفاء بواسطة مندوبيها أفيديس أهارونيان ، وبوغوص نوبار باشا . إلى مؤتمر هذه الدول المنعقد في لندن في المدة من ٢١ شباط إلى ١٢ آذار عام ١٩٢١ .. ولكن قوات حكومة أرمينية السوفيتية بمساعدة قوات الجيش الأحمر السوفيتي الحادي عشري عشر ، تمكنت من قمع حركتهم ، واستردت منهم العاصمة يريفان في ٢

نيسان عام ١٩٢١ ، حيث نصبت حكومة أرمنية سوفيتية جديدة برئاسة اسكندر مياسينكيان .. فصارت جمهوريات ما وراء القوقاز الثلاثة .. أذربيجان ، جورجيا ، أرمنية ، كلها جمهوريات اشتراكية سوفيتية .. وفر الطاشناقيون إلى منطقة زنجزور الجبلية في جنوب شرق أرمنية ، حيث حاولوا إقامة جمهورية لرهايستان .. غير أنه تم القضاء عليها في تموز عام ١٩٢١ ، فهربت فلولهم إلى إيران ..

وفي هذه الأثناء تفاوضت الحكومة الروسية السوفيتية مع الحكومة التركية الوطنية الكمالية ، وأبرمت معها في موسكو يوم ١٦ آذار عام ١٩٢١ معاهدة للصدقة والتعاون تضمنت تعديل الحدود التي رسمتها معاهدتا باطوم ، واسكندربول .. وكان أهم ما تناولته إعطاء اقليم باطوم إلى جورجيا ، وإعطاء اقليم اسكندربول إلى أرمنية ، أي أن التعديل كان لصالح جورجيا وأرمنية ، كما تضمنت اعتراف تركيا الوطنية بإقامة السلطة السوفيتية في اقليم ناخشيفان ، وسيادة أذربيجان عليه .. وبناء على ذلك انسحبت القوات التركية الوطنية من باطوم في ١٨ آذار عام ١٩٢١ . ثم من اسكندربول في ٢٢ نيسان عام ١٩٢١ .

وبعدئذ أقرت ما تضمنته معاهدة موسكو مضمون معاهدة قارس ، ودعمت جمهورية أرمنية الاشتراكية السوفيتية علاقاتها مع جمهوريتي أذربيجان وجورجيا الاشتراكيتين السوفيتيتين .. بأن عقدت معهما في تفليس في ١٢ آذار عام ١٩٢٢ معاهدة ، تكون منها « اتحاد ما وراء القوقاز » الذي تحول في ١٣ كانون أول إلى « جمهورية ما وراء القوقاز الاشتراكية الفدرالية السوفيتية » . وفي ٣٠ كانون أول عقدت هذه الجمهورية والجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الثلاثة الأخرى القائمة عندئذ ، وهي جمهورية روسيا الاشتراكية الفدرالية السوفيتية ، وجمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفيتية ، وجمهورية روسيا البيضاء ، الاشتراكية السوفيتية معاهدة ، تم بموجبها تأسيس الاتحاد السوفيتي أي « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » الذي ضمها على قدم المساواة بينها .. وفي ٥ كانون أول عام ١٩٣٦ ، وعند العمل بالدستور السوفيتي الثالث ، حلت جمهورية ما وراء القوقاز الاشتراكية السوفيتية إلى الجمهوريات الثلاث المكونة لها ، وهي : جورجيا ، أذربيجان ، وأرمنية . ودخلت هذه الجمهوريات الثلاث رأساً بصفتها

جمهوريات اشتراكية سوفيتية اتحادية في قوام الاتحاد السوفيتي .. ولم يزل هذا هو وضعها الآن حتى بعد العمل منذ يوم ١٧ تشرين أول عام ١٩٧٧ بالدستور السوفيتي الرابع الحالي ..

وتحسنت علاقات جمهورية أرمنيا الاشتراكية السوفيتية مع تركيا وفق معاهدة قارس ومع إيران وفق معاهدة موسكو التي أبرمت في ٢١ شباط ١٩٢١ ، والتي بموجبها تخلت روسيا السوفيتية عن كل أطماع وامتيازات روسيا القيصرية في إيران .

وفي ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٢ ، أبرمت تركيا مع إيران اتفاقية تنازلت بموجبها الأخيرة عن لسان من الأرض يحوي جبل أرارات الصغير ، فصار هو وجبل أرارات الكبير ، وهما رمز أرمنية كائنين ضمن الأراضي التركية ، كما وصلت الحدود التركية شرقاً إلى حدود جمهورية ناخشيفان ذات الحكم الذاتي .

وبذلك أصبحت أرمنية قاصرة على أراضيها الحالية ، حسب تحديدها بمعاهدة قارس المبرمة مع تركيا في ١٣ تشرين الأول ١٩٢١ ، وبموجب معاهدة موسكو المبرمة في ٢٦ شباط ١٩٢١ مع إيران ، وبموجب معاهدة دخولها في اتحاد ما وراء القوقاز المؤرخة في ١٢ آذار ١٩٢٢ المبرمة في تفليس مع جورجيا وأذربيجان . وتبلغ مساحة هذه الأراضي قرابة ٣٠ ألف كم فقط .

ثم أبرم الاتحاد السوفيتي باعتباره ممثلاً لأرمنية معاهدة باريس لعدم الاعتداء مع تركيا في ١٧ كانون الأول ١٩٢٥ ، وقد انتهت هذه المعاهدة في عام ١٩٤٥ .

ومنذ عام ١٩٢١ لم تقع حروب أو اضطرابات ، أو منازعات اقليمية تعطل التطور السلمي لجمهورية أرمنية الاشتراكية السوفيتية طوال عشرين عاماً حتى يوم ٢٢ حزيران عام ١٩٤١ ، حين هاجمت ألمانيا الفاشية الاتحاد السوفيتي .

ولم تصل القوات الألمانية إلى حدود أرمنية الاشتراكية السوفيتية في هجومها المذكور ، ولا في هجومها عليه الذي عاودته في صيف عام ١٩٤٢ ، ورغم أنها في هجومها الثاني تغلغت في اقليم القوقاز .. غير أنها لم تستطع عبور سلسلة جبال القوقاز الكبرى إلى ما وراءها .. وقد اشترك الأرمن بكل حماس في هذه الحرب الوطنية الكبرى

دفاعاً عن وطنهم حتى نهايتها المظفرة في ٨ أيار عام ١٩٤٥ .. ولم تجد ألمانيا الفاشية من يؤيدها من الأرمن ، سواء في الاتحاد السوفيتي ، أو في بلدان أوروبا التي احتلتها . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أثار الاتحاد السوفيتي مسألة مراجعة معاهدتي موسكو وقارس بين جمهوريات روسيا وأرمينية وجورجيا وأذربيجان الاشتراكية السوفيتية ، وبين تركيا ، خاصة فيما يتعلق بأقاليم قارس ، وأولطى ، وقاغزمان ، وصورمالو ، وأردهان ، وأرتفين الأرمينية والكرجية التي كانت من أملاك روسيا القيصرية قبل الحرب العالمية الأولى .. وكان بدء إثارة الاتحاد السوفيتي لهذه المسألة في مؤتمر القمة في بوتسدام بألمانيا المنعقد في المدة من ١٧ تموز عام ١٩٤٥ إلى ٢ آب عام ١٩٤٥ بين ستالين وترومان ، وتشرشل ..

وقد طالب الاتحاد السوفيتي بهذه الأقاليم ، وأيد هذه المطالبة كيفورك السادس جاثليق الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية باتشميانزين ، والأرمن في كل مكان .. حتى المقيمين منهم في أمريكا ، وشتت للدعاية هذه المطالبة حملة في الصحف السوفيتية وخاصة الأرمينية والكرجية .. كما شنت حملة مضادة لها في الصحف التركية ..

وأخيراً سويت هذه المسألة بالذاكرة السوفيتية لتركيا المؤرخة في ٣٠ أيار عام ١٩٥٣ التي ذكر فيها الاتحاد السوفيتي أن جمهوريتي أرمينية وجورجيا قد فضلنا التخلي عن مطالبهما الإقليمية هذه ، حفاظاً على إقامة علاقات حسن الجوار مع تركيا .. كما أنه تمت في يوم ٣٠ تموز عام ١٩٥٣ تسوية مطالبة تركيا بإعطائها نصيب من مياه سد أغدير الذي بنته جمهورية أرمينية الاشتراكية السوفيتية على نهر الرس على حدودها مع تركيا في عام ١٩٢٧ ، لري بعض أراضيها وبعض الأراضي التركية ..

وأما التطور الداخلي لجمهورية أرمينية الاشتراكية السوفيتية فقد شمل جميع المجالات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ..

ففي المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، تم القضاء على التخلف المتمثل في الفقر والجهل ، وإصلاح التخريب الذي أحدثته الحروب المستمرة ، والنهوض بهذه البلاد وتصنيعها ، وتطويرها .. وذلك بإقامة العديد من المصانع على أحدث طراز وزيادة رقعة الأراضي الزراعية ، وتوسيع شبكة ريها ، وتحسين وسائل الزراعة بضم مجهودات الفلاحين

الفردية ، وباستعمال الآلات الحديثة ، وكل ذلك حتى يزيد الإنتاج الصناعي الزراعي ، ويرتفع المستوى المادي للشعب ، وفي نفس الوقت بتثقيفه وتعليمه لكي يتمكن من تسيير الأجهزة الحديثة لهذا الإنتاج ، ويرتفع مستواه الفكري أيضاً فيستطيع أن يلحق بالشعوب المتقدمة ويسايرها ويسهم في الإنتاج الفكري العلمي والأدبي العالمي ، ويفيد منه ..

وقد بدأ تطوير الزراعة بتأمين الأراضي وجعلها ملكاً للدولة ، وتوزيع الزراعة منها على الفلاحين لزراعتها ، حيث تم توزيع مليون ونصف هكتار في خلال ثلاثة أعوام .. وأمدت الحكومة الفلاحين بالقروض والخبرات والأدوات والأسمدة .. ومنذ عام ١٩٣٠ بدأ تنظيم المزارع الجماعية التعاونية الكبيرة ، والمزارع الحكومية لتنظيم الإنتاج الزراعي ، ولاستعمال الآلات والوسائل الحديثة فيه ...

كما جرى تطوير الإنتاج الزراعي بإقامة السدود على الأنهار ، ومنها سد أغدير على نهر الرس في عام ١٩٢٧ ، وشق القنوات للاستعانة بمياه الأنهار ، ومياه بحيرة سيفان العذبة في ري الأراضي الزراعية وإصلاح الأراضي البور القابلة للزراعة ، حتى أصبحت جميعها مستصلحة واستثمرت وهي تمثل ١٤٪ من مساحة الجمهورية ، بزيادة هذا الإنتاج وتحسين نوعيته باستعمال الأساليب العلمية الحديثة ..

وتم إنتاج أصناف جديدة محسنة من المحاصيل الزراعية ، وتخصصت في زراعة القطن ، والفواكه ، والكروم ، والخضر ، والدخان ، وفي تربية الماشية والدواجن ، ودود القز ، وفي صناعة كل ما يصنع من هذه المحاصيل الزراعية والحيوانية مثل الأقمشة القطنية والحريية ، والصوفية ، وغزلها ، والخمور ، والأطعمة المحفوظة ، ومنتجات الجلود ، وظهر فيها ريف جديد يقيم فلاحوه في بيوت عصرية ، ويستعملون ما يزيد على ١٥٠ ألف محراث آلي ، وألفي آلة للحصاد ، وخمسة عشر ألف سيارة نقل .. وتضم أرمينية اليوم أكثر من ألف قناة للري ..

وبدأ تطوير الصناعة في أرمينية منذ عام ١٩٢١ ، وقد وصل مستوى الإنتاج الصناعي فهناك عام ١٩٢٨ إلى مستواه قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم وصل عام ١٩٤٠ إلى تسعة أضعاف ذلك ، وخلال الحرب العالمية الثانية أنشئت صناعات جديدة في أرمينية

ولبعدها عن جبهة القتال ، فصارت منذ ذلك الحين بلاداً صناعية تقدمت إلى الأمام حتى زاد في عام ١٩٧٥ مستوى إنتاجها الصناعي ٢٥٠ ضعفاً عما كان عليه عام ١٩١٣ .

وتخصصت في صناعات المعادن الخفيفة ، والصناعات الكيماوية ، والصناعات الكهربائية ، والصناعات الدقيقة ، لأن صناعة المعادن الخفيفة تعتمد على المواد الأولية ، مثل النحاس ، والألمنيوم ، والذهب ، والفضة ، والتي يجري البحث والتنقيب عنها بكل نشاط في مناجمها ، وأهم مصانع هذه الصناعة مجمع رازدان الكبير .. كذلك تعتمد الصناعات الكيماوية على المعادن النادرة والطاقة الكهربائية المتوفرة ، ومن هذه الصناعات .. المطاط الصناعي .. والحرير الصناعي .. وصناعة توليد الكهرباء ، وأهمها مجموعة توليدها الستة التي افتتحت على نهر رزدان الذي ينبع من بحيرة سيفان معتمدة على مساقط مياهه ويبلغ إنتاجها ٨٠٠ ألف كيلووات / ساعة ، ثم محطة توليد الطاقة الذرية الجديدة البالغ إنتاجها مثل ذلك .. كما يجري توليد واستخدام الطاقة الشمسية ، لأن أرمينية هي بلاد الشمس الساطعة ، والسماء الصافية ..

أما الصناعات الدقيقة ومنها صناعة الساعات فتعتمد على مهارة الأرمن أنفسهم ، وكذلك تنتشر في أرمينية الصناعات الثقيلة كصناعة السيارات والأجهزة الكهربائية والالكترونية ، والصناعات الخفيفة أيضاً ، مثل صناعة الأقمشة والسجاد (ومنه أصناف تقليدية مشهورة مثل الكازاك) ، ومن أكبر مراكز هذه الصناعات الدقيقة ، والثقيلة ، والخفيفة (يريفان) العاصمة .. وتصدر الآن أرمينية منتجاتها إلى سائر الاتحاد السوفيتي .. وكذلك إلى بلدان كثيرة في العالم حاملة عبارة « صنع في أرمينية » ..

وتضم البلاد حالياً أكثر من ٧٠٠ مؤسسة صناعية ..

ومن المشروعات التي نفذت وتنفذ فيها توسيع وتجديد المدن ، وبناء مدن جديدة ، مع المحافظة على الطابع الأرميني الخاص الذي تستعمل فيه الأحجار الملونة التي تستخرج من الجبال ، مثل الطوف ، والبازلت ، والجرانيت .. وقد جمعت وجددت العاصمة « يريفان » طبقاً لخطة وضعها المهندس الأرميني اسكندر طمانيان نائب رئيس أكاديمية الفنون الروسية السوفيتية عام ١٩٢٤ .. حتى صارت واجهتها على العالم ، وضمت مطاراً

دولياً حديثاً .. كذلك فتح خط المترو الممتد تحت الأرض فيها في ٢٩ تشرين ثاني عام ١٩٨٠ .. ومن المدن الجديدة التي بنيت (أبوفيان — شارنتس) المنسوبتان للكاتبين الأرمنيين المعروفين أبوفيان وشارنتس ولوسفان أي مدينة النور ، في شمال يريفان .

وفي مجالات التعليم والثقافة ، والعلم ، والأدب ، والفن ، والموسيقى ، تمكنت جمهورية أرمينية الاشتراكية من نحو الأمية في عام ١٩٣٩ .

وأنشئت فيها جامعات ومدارس جديدة ذات برامج حديثة ، وغني عن البيان أن التعليم فيها وفي جميع مراحل مجاني وإلزامي طوال مدة عشر سنوات دراسية ، وقد تأسست في أرمينية في ١٧ كانون أول ١٩٢٠ جامعة يريفان الشعبية التي أعيدت تسميتها بجامعة الدولة في عام ١٩٢١ ، وهي أول مؤسسة عالية غير دينية .. وقد بلغت مستوى عال جداً الآن . وتضم خمس عشرة كلية مختلف التخصصات التي تمثل العلوم الطبيعية ، والاجتماعية ، والأدبية ، والطب ، بالإضافة إلى ثلاث كليات خاصة بإعداد الطلبة الأجانب ، وبعضهم دائماً من العرب ، للدراسة فيها .. وبجانب الجامعة ، توجد المعاهد الفنية العالية .. وقد ركزت بعض هذه الكليات والمعاهد على دراسة اللغة الأرمينية وأدبها ، وتاريخ أرمينية وحضارتها وثقافتها ، ونشر كتب التراث الأرميني القديمة ودراساتها .. فصارت يريفان هي المركز الرئيسي لذلك في كل العالم ..

كما ركز على الاشتراكية بما فيه دراسة الشؤون العربية البعض الآخر من هذه الكليات والمعاهد العالية .. وقسم من الأكاديمية العلمية الأرمينية .. وقد بدأت في عام ١٩٣٥ بصفتها فرعاً للأكاديمية العلمية للاتحاد السوفيتي ثم استقلت عنها في عام ١٩٤٣ . ومن مطبوعاتها الهامة « تاريخ الشعب الأرميني » لمجموعة من المؤرخين الأرمن في ثمانية أجزاء ، وهو أوسع وأكبر مؤلف في بابه ، وبدأ طبعه في يريفان عام ١٩٥١ .. كما توجد في أرمينية دور للنشر أهمها « دار نشر هايبستان » التي تنشر الكتب ، والتي بلغ مؤخراً مجموع ما ينشر من نسخها عشرة ملايين سنوياً .. كما بلغ مؤخراً مجموع ما ينشر من نسخ الصحف والمجلات والنشرات ٣٦٠ مليون نسخة سنوياً ، وهي باللغتين الأرمينية والروسية وغيرهما .. كما أن هذه الدار بدأت تصدر تباعاً « دائرة المعارف الأرمينية » باللغة الأرمينية ، فظهرت بعض مجلداتها ، ولكنها لم تكتمل بعد .. وكذلك تأسس في أرمينية الكثير من

المكتبات العامة ، وقصور الثقافة ، وقد بلغ عددها ١٣٢٢ وجلة رصيد كتبها ١٢ مليون كتاب ..

وظهر في أرمينية كثير من المثقفين الأرمن في مختلف التخصصات بعضهم من خريجي الجامعة والمعاهد العالية .. فسدوا حاجات بلادهم ، ونال بعضهم شهرة عالمية ، ومن هؤلاء العلماء الفلكي (فكتور هامبارتسوميان) رئيس الأكاديمية العلمية الأرمينية ، ومدير مرصد بيوار كان العالمي الذي أقيم في عام ١٩٤٦ ، والفيزيائي أرديم أليخانيان ، والرياضي سرجي مرجليان الذي حاز على الدكتوراه في سن العشرين .. ومن المهندسين المعماري اسكندر طامانيان مخطط ومجدد مدينة يريفان .. والمهندس المعماري مندويانتس مصمم قصر المؤتمرات بالكرملين في موسكو ، وقد تم بناؤه في عام ١٩٦١ .. ومصمم الطائرات من طراز مح وأرديم ميكويان .. ومن الأطباء ليفون أوربلي مدير معهد بافلوف في موسكو .. ومن الأدباء الشاعر هوفانتس طومانيان شاعر أرمينية الوطني .. والشاعر أفديك اسحقيان مؤلف القصيدة المعروفة عن شاعرنا وفيلسوفنا العربي أبي العلاء المعري التي ترجمت إلى كثير من اللغات ضمنها العربية . والشاعر المناضل فيفيشيه شانتس ، والأديب مانوك أفيان المتخصص في تاريخ الأدب الأرمني .. ومن المؤرخين هاجوب مانديان ، ومجرتش نرسيسان .. ومن الأثرين يوسف أوربلي المدير السابق لمتحف الأرميتاج العالمي في ليننغراد .. ومن الفنانين الموسيقاران الأشهران اسكندر سبندياريان وآرام خاشادوريان ذو الشهرة العالمية ومؤلف العديد من الألحان ، والموسيقار ميخائيل تريان ، ومغنيات الأوبرا لوسين زخاريان ، وكوهير كاسباريان ، وتمارا بتروسيان ، والمخرج السينمائي هوموبك نزاريان ، والرسام مارتيروس ساريان مصمم شعار الجمهورية ، والرسام هاجوب كوجيان ، والمثال ارفند كوشار صانع تمثال البطل الشعبي داود الصاسوني ، والمثال أردو كوشار شاكاجيان صانع نصب هيروشيا الضخم ..

ونسبة من يدرسون بالمعاهد العالية في أرمينية عالية جداً ، وكذلك تبلغ نسبة الأطباء ثمانية وثلاثون لكل عشرة آلاف ، وهي أعلى نسب في العالم .. وكذلك يعمل أكثر من ١٧ ألف عالم بنجاح في معاهد الأبحاث والمختبرات ، ومؤسسات التعليم العالي ..

وفي مجال السياحة أصبحت أرمينية مركزاً من مراكزها العالمية .. فهي تحوي مطاراً دولياً جرى تجديده في عاصمتها يريفان ..

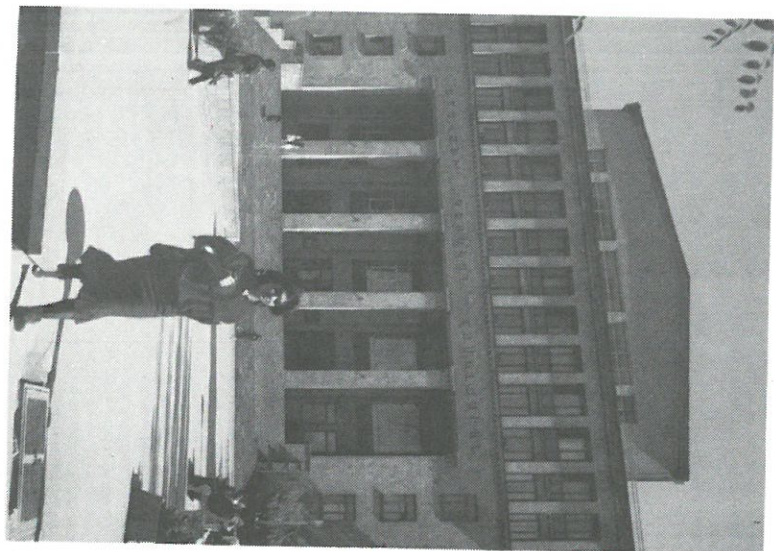
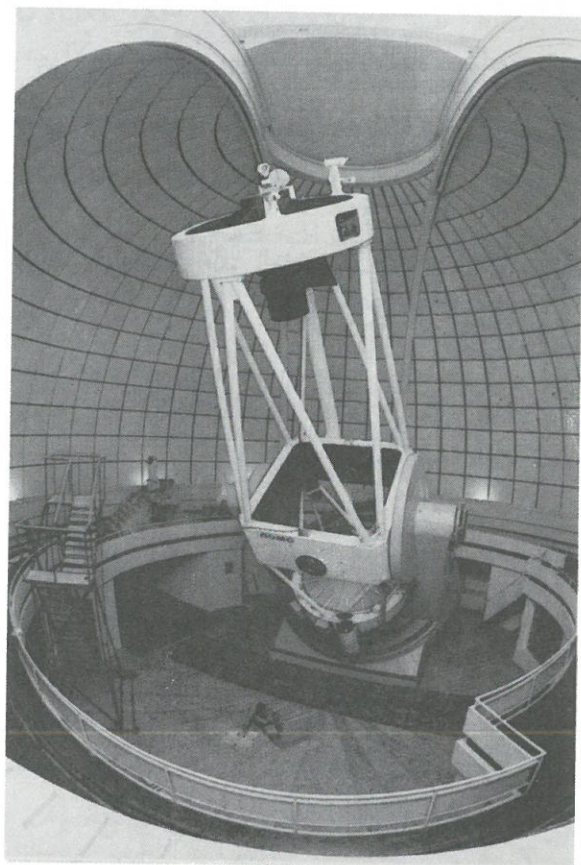
كما أنها تعتبر متحفاً حياً مكشوفاً يعج بالآثار الأرمينية القديمة في كارني وفي اتشمياتزين وفي غيرها .. وتتلأ مدنها وأريافها الفنادق والمنتجعات السياحية ، ويفد إليها السائحون وخاصة من الأرمن المغتربين الذين يحجون إليها لمشاهدة هذه الآثار ، ومناظرها الجبلية الجميلة ولؤلؤتها أو زمردتها الزرقاء بحيرة سيفان .. وعاصمتها يريفان التي أعيد تخطيطها وتحوي المتاحف التاريخية والفنية ، ومكتبة ماتداران التي تضم كنوز المخطوطات الأرمينية القديمة ، وتحمل اسم القديس مسروب مشطوطس ، والمكتبة العامة التي تحمل اسم اسكندر مياسينيكان ، والمسرح الذي يحمل اسم جيرائيل صندوقيان ، ودار الأوبرا التي تحمل اسم الموسيقار سبندياريان ، والميادين والحدائق العامة والبحيرات الصناعية ، والنصب التذكارية الضخمة ، وهي نصب ذكرى الشهداء الأرمن في مذابح عام ١٩١٥ ، ونصب أرمينية الأم .. وتمثال مشاهير الأرمن وبيوتهم ومعرض الإنجازات الاقتصادية ..

وأخيراً إن هذا التقدم الجبار في كل المجالات حققه شعب أرمينية في فترة قصيرة ، لا بل بسرعة خيالية ، وذلك بفضل موهبته ونبوغه ، وعبقريته .. فاستحق كل تقدير ..

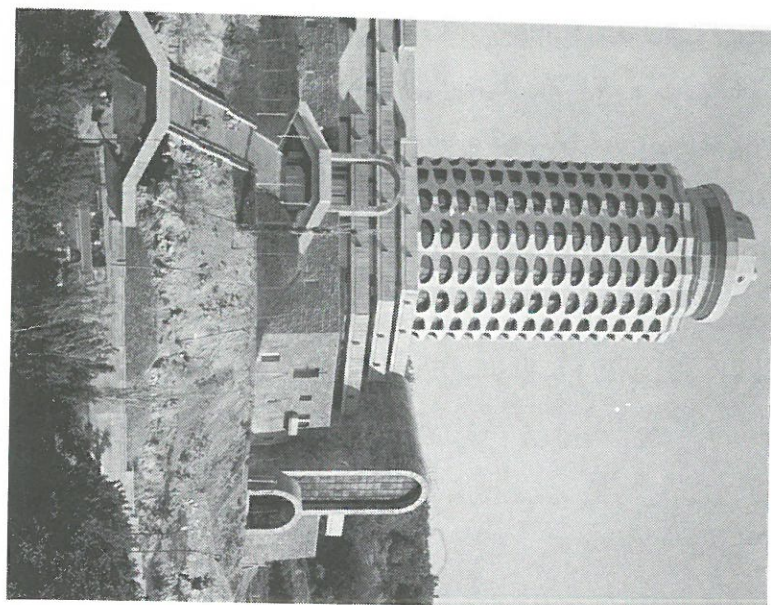
وفي مستهل عهد الرئيس غورباتشوف الذي أطلق الغلاسنوست أو البيروسترويكا ، اتخذ برلمان أرمينية في الثالث والعشرين من آب عام ١٩٩٠ ، قرار استقلال الجمهورية عن الاتحاد السوفيتي ، معلناً بذلك ، بداية مسيرة جديدة نحو الحرية .



مطار ومركز بيريفان



جامعة بيريفان



مدينة الشباب

الفصل السابع عشر

أزمنة الشتات

كادت مسألة الهجرة والتهجير ، أن تلازم الشعب الأرمني ، على مدى تاريخه المليء بالمآسي والنكبات ، وإذا كان التهجير ينجم عن أسباب قسرية ، كالحروب والغزوات وحملات الترحيل والإبادة الجماعية ، فالهجرة التي باتت مألوفة لدى الأرمن ، تتأق عن الظلم والفقر وسوء الأحوال المعيشية ، وكل ما ذكر ، ينسحب على هذا الشعب الذي لم يعرف طعم الاستقرار ، ورغد الحياة ، إلا بعد الربع الأول من هذا القرن .

ونتيجة للهجرة والتهجير ، يعيش الآن في مختلف أنحاء العالم ، أكثر من مليوني أرمني ، يعرفون بالسيبورك ، أو الدياسبورا ، أو الشتات . وهذا الرقم التقديري ، لا يشمل بطبيعة الحال ، الأرمن المقيمين في جمهورية أرمينية ، وسائر جمهوريات الاتحاد السوفيتي .

ومن المعروف ، أن هجرة الأرمن الكبرى ، حدثت عقب مذابح ١٩١٥ ، عن طريق البر والبحر ، إلى كل من سورية ولبنان ، وبحكم موقعها الجغرافي ، ومنهما إلى عدد من الدول العربية الأخرى ، ومن هذه الدول حدثت فيما بعد هجرات أخرى ، إلى أوروبا والأمريكتين ، وأستراليا ، وبعض الدول الأفريقية ، وقد اكتسب المهاجرون الأرمن إلى



استقبال الرئيس حافظ الأسد في مطار يريفان



زيارة الرئيس الأسد إلى مصنع الإلكترونيات

الدول العربية ، جنسية هذه الدول ، بموجب معاهدة لوزان ، فأصبحوا في عداد مواطنيها ، وعرفوا بسلوكهم الصالح ، وأصابوا نجاحات كبيرة في مختلف مناحي الحياة ، وحافظوا على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، بما لا يتعارض والقوانين ، ونظراً لتضامهم مع الوطن الأم ، وبقائهم على الاتصال الدائم معه ، عاد إلى أرض الوطن منذ أواخر الأربعينيات قرابة الربع مليون أرمني من مختلف أنحاء العالم .

وقبل الحديث عن الهجرة المعاصرة ، تجدر الإشارة إلى الهجرات القديمة لكل من سورية ولبنان ، والتي تعود إلى العهود الغابرة من التاريخ ، وسنبداً بسورية التي شهدت أول نزوح للأرمن إلى أنطاكية وأورفة ، عام ٥٣٩ ، بسبب الهزيمة التي مني بها الروم على يد الفرس ، وبين أعوام ٧١٧ إلى ٧٢٨ ، حدثت هجرة ثانية ، جراء استيلاء الفرس على أرمينية ، وذلك في عهد البطريك أوهانس الملقب بالفيلسوف ، وحدثت هجرة ثالثة بين أعوام ٩٣٧ إلى ٩٩٢ ، وجاءت الهجرة الرابعة في العام ١٠٦٤ بعد سقوط العاصمة « آني » بيد السلاجقة ، وفي عام ١٨٩٥ هاجر عدد كبير من الأرمن إثر المذابح التي تعرضوا لها في الدولة العثمانية .

أما الهجرة الكبرى ، فقد بدأت كما نوهنا ، في العام ١٩١٥ ، مع وصول قوافل المهاجرين إلى دير الزور والقامشلي ورأس العين والحسكة وحمص ودمشق ، وفي عام ١٩٣٩ ، حدثت آخر موجة للهجرة ، حين توافد إلى سورية ولبنان ، حوالي خمسة عشر ألف أرمني من لواء اسكندرون ، إثر تنازل فرنسا عنه إلى تركيا .

وبحكم قرب حلب من الحدود التركية ، فقد تركز فيها العدد الأكبر من الأرمن ، وتوزعوا على عدد من أحيائها ، إضافة إلى حي السليمانية المرتبط بهم ، وكذلك حي الميدان . أما في دمشق فقد أقاموا بادئ الأمر ، ما يشبه المعسكرات في القدم وباب شرقي والزلطاني التي عرفت « بالكامب » ، ثم توزعوا بعد تحسن أحوالهم المادية على أحياء دمشق المعروفة مثل القصاع ، والقصور ، والمزرعة ، والصالحية ، والشعلان .

أما من الناحية الاجتماعية ، فقد انخرط الأرمن في الحياة العامة ، بسرعة كبيرة ، نتيجة تعاطف شعب سورية معهم ، ورعايته وتقديم المساعدة لهم ، فأقاموا العديد من الصناعات المختلفة ، بين متوسطة ودقيقة ، مثل صناعة النسيج ، والميكانيك ، وهياكل السيارات ، والآلات الزراعية ، والبرادات والمفروشات المعدنية ، وفي مجال الصناعات الدقيقة ، اشتهروا بحرفة ، الذهب والمجوهرات ، والعدسات الطبية والنظارات ، والخياطة والجلديات ، وعلى الرغم من اضطرابهم بادئ الأمر إلى الانصراف إلى العمل ، بهدف تأمين قوتهم اليومي وتحسين أحوالهم المتردية ، فقد أشادوا المدارس ، والمطابع والنوادي والكنائس والجمعيات الخيرية والصحية والثقافية ، وأصدروا الصحف والمجلات مثل : سورية ، الشروق من الشمال « هوسيس أليك » ، الفرات « يرد » ، نايري ، إلى الوطن « تبي يركيد » .

وفي مجال العلم طرق الأرمن ميدانه بكل همة ونشاط ، إذ قلما نجد اليوم أمياً واحداً ، في الأجيال الجديدة ، وفي إحصائيات جديدة ، تجاوز عدد الأطباء الأرمن في سورية المائة ، كما تجاوز عدد الصيادلة الخمسين . أما الاختصاصات الأخرى كالهندسة على مختلف فروعها ، فهم بالمئات ، كذلك ، بلغ عدد المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية في مختلف أنحاء سورية حوالي ستين مدرسة ، وتجاوز عدد الجمعيات الاجتماعية العشرين جمعية ، وبلغ عدد النوادي حوالي العشرة .

وهكذا ، نجد أن الأرمن كانوا وما زالوا ، مثال المواطن الصالح ، في بلد قدم لهم كل الرعاية ، فحفظوا العرفان ، وبادلوا الجميل بالمثل ، وجسدوا الوفاء بأسمى معانيه وصوره .

وحين الحديث عن هذه الصور ، والعلاقات الحميمة بين الأرمن والعرب ، عامة ، وسورية خاصة ، لا بد من التطرف باعتزاز ، إلى الزيارة التاريخية التي قام بها السيد الرئيس حافظ الأسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية ، إلى جمهورية أرمينية ، ظهر يوم الأربعاء الواقع في ١٧ تشرين الأول من عام ١٩٧٩ ، بعد أن اختتم زيارة ودية إلى موسكو .

وقد قوبلت زيارة السيد الرئيس إلى يريفان ، بحفاوة بالغة ، وجرى لسيادته استقبال رسمي وشعبي حافل ، حيث كان على رأس مستقبله القيادة الحزبية والسياسية في أرمينية ،



الرئيس الأسد لدى زيارته متحف المخطوطات القديمة

كما قدمت لسيادته مجموعة من الأطفال باقات الورد ، ثم قدمت له مجموعة من الفتيات الأرمنيات الخبز والملح ، تعبيراً عن مشاعر الود والحب والصدقة ، وهذا تقليد يخص به الأرمن كبار الزوار .

وبعد وصول السيد الرئيس إلى يريفان ، عقد جلسة مباحثات مع قادة جمهورية أرمينية ، حيث ألقى السيد ديمرتشيان سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي آنذاك ، كلمة رحب فيها بالسيد الرئيس حافظ الأسد ترحيباً حاراً ، وردّ السيد الرئيس بكلمة شكر فيها قادة الجمهورية على حفاوتهم . وخلال مأدبة العشاء التي أقيمت على شرف سيادة الرئيس ، ألقى سيادته كلمة تقتطف منها ما يلي :

« نحن سعداء بزيارتنا الأولى لجمهورية أرمينية الاشتراكية السوفيتية .. ولا شك أنها مصادفة جميلة أن يكون وصولنا إلى يريفان عاصمة جمهوريتكم ، بنفس اليوم الذي تحتفلون فيه بمرور ٢٧٦١ عاماً ، على تأسيس هذه المدينة الجميلة ، والتي تعتبر كما عرفت اليوم ، واحدة من عشر مدن في العالم ، تحمل شهادة ميلاد تشير إلى تاريخ تأسيسها .

إن ما شاهدناه اليوم في متحف المخطوطات القديمة في مدينة يريفان لدليل على الاتصال التاريخي والحضاري والتبادل العلمي والثقافي بين شعبنا وشعبكم ، وأن لدينا فكرة واضحة عن تطوركم ونضالكم عبر التاريخ ، ولا شك في أنكم من خلال ذلك كله تستحقون التقدير والاحترام .

لقد كان شعبكم دائماً يتميز بالحيوية والنشاط والجهد ، من أجل بناء أفضل ، سواء كان ذلك خلال وطنكم أم خارجه ، ويسرني أن يكون كثيرون من أبناء هذه الجمهورية قد أمضوا فترة من الزمن في سورية عندما عادوا إلى هنا ، تركوا وراءهم سمعة جيدة ، وكانوا مخلصين في جهدهم ، وأوفياء في علاقاتهم ، وتجدر الإشارة إلى أنه من بين الروابط العديدة القائمة بيننا ، فإن الروابط العائلية قائمة بين الكثير من العائلات في سورية ، وأرمينية ، وهي تشكل رابطة إنسانية هامة .

ويسعدني أن أشير إلى أن المواطنين في بلادنا من الأرمن السوريين ، يساهمون

بشكل جيد وبحماسة ، في بناء البلاد ، ويشتركون مع سائر أبناء الشعب ، في الدفاع الشجاع عن حريتها وحدودها .

وخلال هذه الزيارة ، قام السيد الرئيس حافظ الأسد ، بزيارة معهد الأبحاث الالكترونية في يريفان ، وسجل في ختام الزيارة كلمة أشاد فيها بما شاهدته من إنتاج يوفر الكثير من جهود الإنسان في مختلف مجالات الحياة ويساعده على المزيد من التقدم نتيجة جهود الباحثين والعلماء . كما زار السيد الرئيس متحف المخطوطات القديمة ، الذي يحتوي على العديد من الكتب والمخطوطات التي تدل على تطور تاريخ الشعب الأرمني ، ومن بينها كتب علمية تدل على اتصال تاريخي وحضاري بين الشعبين الأرمني والعربي ، وعلى التبادل الثقافي والعلمي بينهما .

وقبيل مغادرته يريفان في اليوم الثاني من الزيارة ، قام السيد الرئيس حافظ الأسد بزيارة مصنع المحركات الكهربائية ، واطلع على آلية العمل والمنتجات وأثنى على جهود العمال الذين استقبلوه بحرارة ، وفي ختام زيارته التاريخية إلى جمهورية أرمينية ، قام السيد الرئيس بجولة عامة إلى مدينة يريفان الجميلة ، لمشاهدة أهم معالمها .

وهكذا ، كانت زيارة السيد الرئيس حافظ الأسد إلى أرمينية ، تنويعاً لعلاقات الصداقة المتينة ، والنضال المشترك ، بين شعبين يتطلعان على الدوام إلى المستقبل الأفضل .

أما بالنسبة للهجرة إلى لبنان ، فهي موعلة في القدم ، حيث تعود إلى عهد الملك ديكران الثاني الذي وصل بفتوحاته إلى فينيقيا نفسها ، لكن بعض المؤرخين يعتبر أن الهجرة الفعلية بدأت إلى لبنان في العام ١٢٦٦ ، حين غزا المماليك كيليكية ، وأمروا بترحيل عشرة آلاف أرمني إلى مصر ، عبر سواحل أنطاكية ولبنان وفلسطين ، وقد تمكن عدد كبير منهم من الهرب واللجوء إلى جبال زغرتا واهدن في لبنان ، وفي عام ١٧٠٠ ، قدمت مجموعة من الرهبان الأرمن الكاثوليك إلى لبنان وأقامت فيه ، ونتيجة المذابح الحميدة ، لجأ المئات من الأرمن إلى لبنان في عام ١٨٩٥ ، ثم تصاعدت عمليات الهجرة في عام ١٩٠٩ ، عن طريق البحر ، وفي عام ١٩١٥ وقعت الهجرة الكبرى حيث لجأ

حوالي ربع مليون أرمني إلى لبنان ، ثم أعقبتها هجرة جديدة في عام ١٩٣٩ ، حينما هاجر عشرة آلاف أرمني إلى بلدة عنجر بموازرة من عصبة الأمم .

ونقلًا عن كتاب القس الأرمني اللبناني حنا أحمریان ، من هم الأرمن ، نورد أنه إثر وقوع لبنان تحت سيطرة الحلفاء في عام ١٩١٨ ، شكلت فيه « لجنة الاتحاد الوطني الأرمني » من مختلف الطوائف وحزبي الطاشناق والهنشاق برئاسة الدكتور ملكونيان ، وكان هدفها تحويل اللاجئين الأرمن من البلاد العربية إلى لبنان ، واستقبال الدفعات المتعاقبة منهم ، وكذلك تقديم المساعدة للمتطوعين الأرمن ، الذين كانوا يقاتلون القوات العثمانية في إقليم قليقية ولواء اسكندرون العربي السوري ، وخاصة في مناطق « دورت يول » وجبل موسى وكساب والتي كان يقودها النائب الأرمني السابق في البرلمان العثماني « در كالوستيان » .

وبعد أن رفض المفوض السامي الجنرال الفرنسي « غورو » السماح للأرمن بالتوجه إلى تلك المناطق ، وأصر على بقاء البقية الباقية من الأرمن في تركيا ، عاد وسمح لهم بالتوجه إلى سورية ولبنان ، حيث وصلوا بأعداد كبيرة وحالة مزرية عام ١٩٢٢ ، واستمرت مساعي اللجنة لدى كل من المفوضين العامين لسورية ولبنان ، جورج بيكو وجوفنيل ، لتجميع الأرمن في لبنان ، فأسفرت عن وصول الآلاف منهم في العام ١٩٢٥ .

وكما كان شأنهم في سورية ، كان شأنهم في لبنان ، حيث انخرطوا في الحياة العامة ، وأشادوا النوادي والمدارس والكنائس والجمعيات المختلفة . وانتشروا في مختلف أرجاء لبنان بدءاً من بيروت التي تضم حياً خاصاً بهم هو برج حمود ، والدورة ، وحتى انطلياس وجونية وغزير وجبيل وطرابلس وزغرتا واهدن وبكفيا وزحلة ورياق وعاليه وسوق الغرب وعنجر وصيدا وصور .

واشتهر الأرمن في الميادين الصناعية ومنها صناعة الجلود ، والاسفنج الاصطناعي ، والأدوات المنزلية ، والصياغة والميكانيك وكذلك انصرفوا إلى ميادين العلم فبلغوا أعلى مراتبه لا سيما في مضمار الطب والمحاماة والهندسة ، كما واقتحم عدد من رجالات الأرمن حلبة السياسة فتبوأ بعضهم مناصب النواب والوزراء منذ ما قبل الاستقلال وحتى الآن .

أما في مجالات الأدب والفن والصحافة ، فقد برز العديد من الأدباء والشعراء الذين تناولوا المسألة الأرمنية من كل جوانبها ، كما ظهرت العديد من الصحف والمجلات والدوريات ، ومنها صحيفة « أرتاك » التي يصدرها حزب الطاشناق ، وصحيفة « أراارات » التي يصدرها حزب الهنشاق وصحيفة « زارتونك » التي يصدرها حزب الرافغافار ، وصحيفة « ايك » المستقلة . ويبلغ عدد المدارس الأرمنية في لبنان حول سبعين مدرسة ، وعدد النوادي سبعة ، وعدد الفرق الفنية المتخصصة بالمرح والرقص الشعبي والباله أربع ، كذلك اشتهر من الفنانين على الصعيد العالمي ، كل من بول غيراغوسيان الملقب بيكاسو الشرق ، وجورج غوفرجنيان ، وقد دخلت لوحاتهما العديد من المتاحف في مختلف عواصم العالم ، وأقاما معارض فنية في معظم هذه العواصم .

وحين اشتعلت الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥ ، اتخذ الأرمن موقف الحياد الإيجابي ، ورغم ذلك تعرضوا للاعتداء على يد القوى الانعزالية وأصيبوا بالخسائر البشرية والمادية ، حيث حاولت هذه الأطراف جرهم إلى صفوفها ، ولكنهم تغلبوا على هذه المحاولات ، وحافظوا على موقفهم المحايد ، إلا أن المئات منهم هاجروا إلى أمريكا وكندا نتيجة هذه الحرب .

أما الأرمن في فلسطين ، فهم قلة ولا يتجاوز عددهم الثلاثة آلاف ، رغم أن مدينة القدس تضم دير ماري عقوب ، وهو مقر بطريركية القدس الأرمنية الأرثوذكسية الذي أنشئ منذ عام ٦٣٧ في عهد الفتوحات العربية ، ويلحق بهذا الدير متحف مشهور بالمخطوطات ، وكاتدرائية أثرية ، وفي العراق استقر بضعة آلاف من الأرمن ، في بغداد والبصرة وكركوك ، ولهم مدارس وكنائس ويعملون في التجارة والصناعة .

أما بالنسبة لمصر ، فهناك جالية أرمنية تبلغ حوالي سبعة آلاف ، وهي قديمة العهد ، حيث هاجر الأرمن بكثرة إلى مصر في عهد الفاطميين ، وعلى رأسهم الوزير بدر الجمالي ، وعملوا بالتجارة والبناء ، حيث أشادوا بعض أبواب القاهرة مثل باب زويلة وباب الفتوح .

ويوجد في مصر ثلاث مدارس للأرمن وعدة نوادي ، وصحيفتان هما الشمس

(أريف) وباعث الأمل « هوساير » ، كما تأسس في القاهرة « الاتحاد الخيري الأرمني العام » في عام ١٩٠٦ ، ثم انتقل مقره إلى أمريكا .

وإلى إيران تم تهجير خمسين ألف أرمني في أوائل القرن السابع عشر في عهد الشاه عباس الأول الذي منحهم امتيازات خاصة كي يساهموا في تطوير بلاده . فأسسوا حي « غولفا » الجديدة التابعة لأصفهان وصاروا من أبرز صانعي السجاد العجمي ، ويعيش الأرمن الإيرانيون وعددهم حوالي المائة ألف في طهران وتبريز والأهواز وعبادان ، وبلدة خوي قرب أراميا ، ومن أبرز الأرمن الإيرانيين ، الصناعي الكبير ورجل البر ، كالوست كليكيان (١٨٦٩ — ١٩٥٥) ، الذي ساهم في انتشار وتطوير صناعة استخراج وتكرير النفط في إيران والعراق ، وكان مستشاراً للحكومة الإيرانية ، واكتسب شهرة عالمية فائقة . وقد أوصى بثروته البالغة ملايين الدولارات آنذاك ، للنشاطات الحضارية والثقافية ، حيث تقوم المؤسسة المعروفة باسمه ومركزها في لشبونة بالبرتغال بهذه النشاطات عبر تقديم المساعدات للأرمن المحتاجين في كل أنحاء العالم .

أما في الهند التي ضمت في الماضي جالية أرمنية نشيطة ، فلم يبق إلا القليل منها في بومباي ومدراس ، كذلك تقيم بعض الجاليات الأرمنية في اليونان ورومانيا وبلغاريا . ويتوزع الآلاف من الأرمن في العديد من الدول الأوروبية وخاصة في فرنسا وإيطاليا وبريطانيا . ففي روما تأسست الكلية الأرمنية الكاثوليكية عام ١٨٨٣ ، وفي البندقية يوجد مقر الرهبنة الخيطارية الأرمنية التي تأسست عام ١٧٠٣ . وفي باريس توفي ودفن الملك ليغون السادس آخر ملوك مملكة أرمنية الصغرى عام ١٣٩٣ . وفي عام ١٦٧٢ أشاد الأرمني باسكال أول مقهى في مدينة ليون وعرف الفرنسيين بفضله شرب القهوة .

وفي أمريكا اللاتينية توجد جاليات أرمنية تعدادها أكثر من مائة ألف ، منتشرة في البرازيل والأرجنتين والأوروغواي وفنزويلا وتشيلي . وتضم الولايات المتحدة وكندا أكبر جالية من الأرمن الشتات ، حيث يقارب عددها ستمائة ألف أرمني ، وهي قديمة العهد ، إذ ، تعود إلى الهجرة الجماعية التي حدثت إثر مذابح ١٩١٥ . ويتمركز أفراد هذه الجالية في المدن الكبرى ، مثل نيويورك وبوسطن وشيكاغو وفيلادلفيا ، وسان فرانسيسكو ،

والعدد الأكبر في لوس أنجلوس ، ولها عشرات الكنائس والنوادي والمدارس التي تحفظ للأرمن عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم . كذلك توجد جاليات حديثة في أستراليا .

وفي العديد من الدول الأفريقية ، تتمركز جاليات أرمنية في المدن الكبرى ، وأهمها الجالية الأرمنية في أثيوبيا ، الذي يعود عهدها إلى القرن الخامس عشر ، حين استوطن عدد من الأرمن في أديس أبابا .

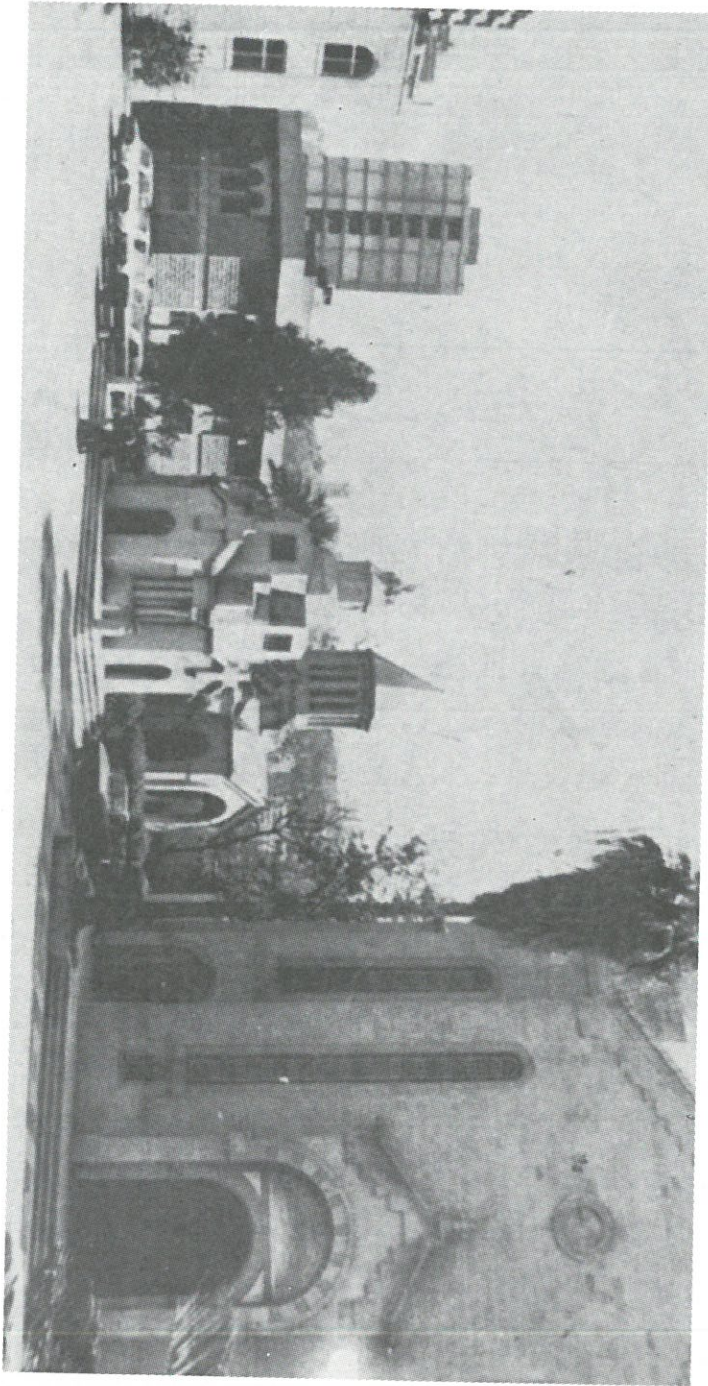
أما عدد الأرمن في العالم وتوزعهم فيه ، فهو غير معروف على وجه الدقة ، بسبب تعذر إجراء إحصاء رسمي بهذا الخصوص ، ونتيجة الانتقال من بلد إلى آخر ، خلال السنوات الماضية . ومع ذلك ، فقد تم إجراء إحصاء تقريبي في عام ١٩٧٧ ، يمكن الاستناد إليه ، بالإضافة إلى تقديرات المهتمين بهذا الشأن ، مما مكنا من وضع الجدول التالي :

—	جمهورية أرمنية	٣٠٠٠٠٠٠
—	جورجيا وأذربيجان	١٠٤٠٠٠٠
—	باقي الجمهوريات السوفيتية	٧٠٠٠٠٠
—	تركيا	١٠٠٠٠٠
—	إيران	١٠٠٠٠٠
—	الدول العربية	٥٠٠٠٠٠
—	الدول الأوروبية	٦٠٠٠٠٠
—	الولايات المتحدة وكندا	٦٠٠٠٠٠
—	أمريكا اللاتينية	٧٠٠٠٠
—	باقي دول العالم	١٤٠٠٠٠

وبذلك يكون عدد مجموع الأرمن التقريبي في العالم هو ستة ملايين وثمانمائة وخمسون ألف نسمة ، وقياساً إلى الإحصاء الوارد في الموسوعة العلمية السوفيتية لعام ١٩٥٠ ، والذي بلغ عدد الأرمن بموجبه ثلاثة ملايين وربع المليون ، نجد أن الشعب

الأرمني ، حقق خلال أقل من نصف قرن زيادة تجاوزت الضعف ، وعلى هذا يتوقع وصول عدد الأرمن في العام ألفين إلى عشرة ملايين .

أخيراً .. ورغم كل معاناة هذا الشعب الحي ، فقد اتصف الأرمن بالصبر والمثابرة على العمل بدأب ونشاط ، كما اشتهروا بالكرم والمرح وحب الدعابة ، حتى إن معظم الفكاهات المنتشرة في الاتحاد السوفيتي تنسب إلى إذاعة يريفان الوهمية .



الصح البطركي في أنطلياس

الفصل الثامن عشر

القضية العادلة

يمكن القول ، أن عام ١٩٨٥ ، كان محطة هامة في تاريخ الشعب الأرمني ، لأنه عام دخول القضية الأرمنية ، إلى مسرح السياسة الدولية من أوسع أبوابه .

إذ بعد إنتظار دام أكثر من عشرين عام ، ناقشت الأمم المتحدة في جلستها الثامنة والثلاثين ، المنعقدة في جنيف ، خلال شهر آب من العام المذكور ، تقريراً أعدته لجنة إستدراك الإبادة والدفاع عن الأقليات ، التابعة للجنة حقوق الإنسان ، وقد جاء في الفقرة الرابعة والعشرين من هذا التقرير أنه « في عامي ١٩١٥ - ١٩١٦ ، إرتكبت مجزرة بحق الأرمن من قبل العثمانيين ، حيث تعرض أكثر من مليون أرمني للمذابح ، أو سيقوا إلى الموت ، وتستند الوقائع كما يقول التقرير ، إلى الأراشيف الأميركية والألمانية والبريطانية ، بالإضافة إلى تقارير الدبلوماسيين الذين كانوا في الإمبراطورية العثمانية آنذاك » .

وقبل تسليط الأضواء على القضية الأرمنية العادلة ، تجدر الإشارة إلى أن ظهورها الفعلي على المسرح الدولي ، يعود إلى عام ١٩٦٥ ، حيث أحيا الأرمن في سائر أنحاء المعمورة ، الذكرى الخمسين لجريمة المذابح الكبرى ، وهي الذكرى التي يحتفل بها عادة في الرابع والعشرين من نيسان كل عام ، أما في الذكرى الخمسين ، فقد تحرك الشعب الأرمني في الوطن الأم والمهاجر ، لكسر الطوق المضروب على قضيته ، الأمر الذي أدى إلى وصول صوته ، إلى لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة .

وفي عام ١٩٦٧ ، قررت اللجنة الفرعية المنبثقة عن لجنة حقوق الإنسان ، أن تدخل في برامج عملها ، دراسة مسألة تحديد الطريقة الأمثل ، لمنع جرائم إبادة الجنس البشري ومعاينة مرتكبيها ، وفي عام ١٩٧١ ، طلبت اللجنة المركزية من اللجنة الفرعية ، البدء بوضع الدراسة المطلوبة ، وبناء على ذلك ، عينت اللجنة الفرعية من بين أعضائها مقررًا خاصاً ، هو ممثل جمهورية « رواندا » الدكتور « نيكوديم روها شيانكيكو » ، وطلبت منه إعداد تقرير تمهيدي . وفي عام ١٩٧٣ قدم « نيكوديم » تقريراً جاء فيه « ... وعندما نصل إلى عصرنا الحالي يمكن الإشارة إلى وجود وثائق وفيرة تتعلق بمجازر الأرمن التي اعتبرت أول جريمة إبادة للجنس البشري في القرن العشرين » .

وفي عام ١٩٧٤ ، أرسلت اللجنة الفرعية تقريرها إلى لجنة حقوق الإنسان المركزية ، وهنا طلب ممثل تركيا « م . اولطاي » الذي كان يتهرب بشكل دائم من جلسات اللجنة ، إلغاء الفقرة المذكورة من التقرير وإعادة ثانية إلى اللجنة الفرعية . وبعد أخذ ورد دام أربع سنوات ، وفي عام ١٩٧٨ ، تم حذف الفقرة المتعلقة بالمجازر من التقرير ، بسبب انحياز الدول الغربية إلى تركيا ، وبالفعل أعيد التقرير إلى اللجنة الفرعية ، وجرى مناقشات حامية حوله شارك فيها المندوب التركي ، الذي ادعى أن الوقائع المتعلقة بجرائم الإبادة هي « مشوهة » ، وتشكل « أعمالاً حربية » حسب زعمه ، وعلى الرغم من البراهين والأدلة التي قدمتها كل من الرابطة العالمية لحقوق الإنسان ، ولجنة حقوق الإنسان ، انتهت المناقشات دون التصويت على الفقرة المتعلقة بجرائم الإبادة .

وإثر مداخلة من ممثل النمسا « فليكس آرماكورا » ، ناقشت لجنة حقوق الإنسان موضوع الفقرة الآتية الذكر ، في عام ١٩٧٩ ، ومما ورد في تلك المداخلة : « ... لا أريد الإعراب عن العداء تجاه تركيا ، بل أود أن أعرب عن حسن نيتي بصدد واقع تاريخي .. لقد كانت مجزرة ضخمة ، ولا أفهم ، باعتباري مندوباً لحكومي ، وكذلك باعتباري حقوقياً ، كيف يشطب واقع تاريخي يمثل هذه الأهمية والضحامة » . ونتيجة للمداوالات ، تم اعتماد الفقرة في الصيغة النهائية للتقرير .

وفي عام ١٩٨٣ ، عينت اللجنة الفرعية مقررًا جديداً ، هو البريطاني « بنجامين وايتكر » الذي اعتمد فقرة جرائم الإبادة بحق الأرمن ، وعبر المناقشات التي جرت في الأمم

المتحدة عام ١٩٨٥ ، ظهر تحالف واضح غربي — صهيوني طوراني ، أدى إلى تعليق الفقرة المذكورة حتى الآن . وهنا ، ننوه إلى أن المحكمة الدائمة للشعوب أصدرت في العام ١٩٨٤ مجموعة أحكام في جريمة إبادة الأرمن نوردها فيما يلي :

أ : « إن الامتناع عن تبني فقرة الجرائم ، من قبل الأمم المتحدة لا يؤدي إلى تهدة النفوس ، إنما إلى إثارة ردود الفعل العنيفة » .

ب : إشارة إلى ميثاق الأمم المتحدة ، وخاصة الفقرات المتعلقة منه بجرائم الإبادة ، فإن الإبادة التي تعرض لها الشعب الأرمني سواء بالمذابح أو التهجير ، تشكل جريمة لا تفتقر .

ج : تعتبر حكومة تركيا الفتاة مسؤولة عن الإبادة ... وهذه المسؤولية المستمرة حتى الآن ، تحتم بالضرورة الاعتراف الرسمي بوقائع الإبادة ، وما ترتب عليه من نتائج .

د : إن منظمة الأمم المتحدة ، وكل فرد من أفرادها ، لديهم الحق بإعلان هذه الأحكام ، وإيصالها إلى الشعب الأرمني .

بعد هذا العرض عن القضية الأرمنية على الصعيد الدولي ، نعود إلى جذور هذه القضية العادلة ، التي تنتظر الحل العادل ، شأنها في ذلك ، شأن القضية الفلسطينية العادلة . فكلتا هاتين القضيتين ، تقومان على قاسم مشترك ، قوامه تهجير وطرد الشعب الأرمني والفلسطيني من ديارهما ، وهما القضيتان المتخلفتان إلى الآن ، عن انقراض الدولة العثمانية ، ولا بد لهما ، من حل دولي عادل .

إذ مما لا شك فيه أن التنافس بين الدول الكبرى والقوية على حد سواء ، ينعكس سلباً على الدول الصغيرة التي تود العيش بأمان وسلام . وكما مر معنا ، فإن موقع أرمنية جعلها محط أطماع جيرانها وغيرهم من الجهات الأربع ، فعاشت تاريخاً حافلاً بالمآسي والحن . أما في العصر الحديث ، فقد تميز تاريخ الشعب الأرمني بمراحل هامة انعكست آثارها السلبية عليه حتى الآن ، مما ولد القضية الأرمنية التي تشكل موضع هذا الفصل .

ففي المرحلة الأولى ، وهي المرحلة الممتدة من اتفاقية سان ستيفانو إلى مؤتمر برلين ، اشتد التنافس بين بريطانيا وروسيا القيصرية التي كانت تؤيد الشعوب السلافية

ضد الاحتلال العثماني ، بينما كانت الحكومة البريطانية برئاسة « ديزرائيلي » اليهودي الأصل ، تقوم بحماية العثمانيين وسلاطينهم ، لكن الحرب الروسية — التركية التي قامت عام ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ، أسفرت عن هزيمة الدولة العثمانية ، وعن توقيع اتفاقية « سان ستيفانو » في ١٩ شباط ١٨٧٨ ، وبموجب هذه الاتفاقية ، تحرر القسم الأكبر من دول البلقان ، وتمثل نصيب الأرمن في المادة ١٦ منها ، والتي تعهدت الدولة العثمانية بموجبها ، بتحقيق إصلاحات فورية في الولايات المأهولة بالأرمن . إلا أن هذه الإصلاحات بقيت — كما هو معروف — حبراً على ورق ، إذ سرعان ما تم نقض اتفاقية « سان ستيفانو » ، نتيجة مؤتمر برلين الذي انعقد في ١٣ حزيران ١٨٧٨ ، برئاسة بسمارك مستشار ألمانيا القيصرية ، والذي وقفت فيه جميع الدول ضد روسيا ، على أرضية الاتفاقات السرية مع السلطان عبد الحميد الثاني .

وقد أسفر مؤتمر برلين ، عن إعادة دول البلقان المحررة إلى الوصاية العثمانية ، وضم البوسنة والهرسك إلى النمسا ، وانسحاب جيوش روسيا من الولايات الأرمنية العثمانية ، وهكذا نرى أن مهادنة الدول الأجنبية للدولة العثمانية ، في مؤتمر برلين الذي كان مهندسها « ديزرائيلي » اليهودي ، انعكس سلباً على القضيتين الأرمنية والعربية معاً .

أما في المرحلة الثانية ، وهي مرحلة الحرب العالمية الأولى ، وما قبلها وبعدها ، فقد لعب التنافس الاستعماري ، دوراً أساسياً ومشوِّماً في تاريخ القضية الأرمنية ، حيث كثرت الأطراف الاستعمارية ، وانتعشت الحركات العنصرية والتوسعية والاستيطانية كالطورانية والصهيونية .

ففي هذه المرحلة ، تم ارتكاب أبشع جرائم إبادة للجنس البشري ، بحق الشعب الأرمني ، ومسؤولية العثمانيين والحركة الصهيونية وألمانيا وبريطانيا ثابتة فيها .

وإذا كان صحيحاً أن المجلس الأعلى للحلفاء ، اعترف باستقلال أرمينية في عام ١٩٢٠ ، وهو العام الذي شهد توقيع معاهدة « سيفر » ، حيث كلف الرئيس الأمريكي « ولسن » برسم حدود أرمينية ، فالصحيح أيضاً ، أن أرمينية بقيت تحت سيطرة الحكم العثماني ، وبقي مصيرها عرضة للمصالح الاستعمارية ، التي استهدفت نهش الرجل المريض

والقضاء تماماً على الامبراطورية العثمانية . مع التأكيد على ربط النظام التركي الجديد بعجلة هذه المصالح وذلك ما حدث فعلاً . ونتيجة التنافس بين المصالح الأمريكية والبريطانية والفرنسية ، نجد أن الولايات المتحدة باعت القضية الأرمنية لقاء الامتياز المعروف باسم « تشستر أويل » الذي أعطاه مصطفى كمال ، لشركة الإنماء العثماني — الأمريكي ، كما تخلت فرنسا عن الأرمن ، لقاء امتيازات اقتصادية وثقافية وانسحبت من كيليكيا ، وطغنت الأرمن واليونانيين في الظهر ، وتركهم وحيداً عزلاً أمام الجيش التركي .

أما في المرحلة الثالثة ، وهي المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، فقد تميزت بإعلان الولايات المتحدة القائل بأن الحدود الدولية بين الاتحاد السوفيتي وتركيا ، هي الحدود الاستراتيجية لأمريكا ، وبذلك تم تكريس السيطرة التركية ، على أرمينية الغربية بكاملها ، بعد أن تم دفن القضية الأرمنية في مؤتمر لوزان ومعاهدته التي حلت محل معاهدة « سيفر » وذلك في عام ١٩٢٣ . لكن القضية الأرمنية تجددت على المستوى الدولي ، ولا زالت تتطلب الكثير من الجهد والدأب لتجد الحل العادل .

وفما يتعلق بعمليات الإبادة العنصرية ، فإن المذابح التي ارتكبت بحق الشعب الأرمني ، والتي امتدت بين الأعوام ١٨٦١ إلى ١٩٢٣ ، فهي تشكل جريمة يعاقب عليها القانون الدولي الذي يعرف بمجموعة القواعد التي تحدد حقوق وواجبات الدول في علاقاتها المتبادلة ، ولعل أهم خطوة تتعلق بجرائم الإبادة العنصرية ، كانت إقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ التاسع من كانون الأول لعام ١٩٤٨ ، الميثاق القاضي باعتبار الإبادة العنصرية جريمة بموجب القانون الدولي ، وتخالف روح وغايات الأمم المتحدة ، وينبذها العالم المتمدن ، وقد جاء في المادة الأولى من هذا الميثاق :

● يؤكد الفرقاء المتعاقدون ، بأن الإبادة العنصرية تشكل جريمة بموجب القانون الدولي ، سواء ارتكبت هذه الجريمة في أيام السلم أو في الحرب ، ويتعهدون بمنع ارتكاب هذه الجريمة ومعاقبة مرتكبيها .

وجاء في المادة الثانية من الميثاق :

● في هذا الميثاق ، تعني كلمة إبادة عنصرية ، أي من الأفعال المبينة فيما يلي ،

عندما ترتكب بغية إفناء كلي أو جزئي ، مجموعة وطنية أو عنصرية أو جنسية أو دينية بصفتها هذه :

— قتل أعضاء المجموعة .

— التسبب في الضرر الجسماني أو العقلي الخطير لأفراد المجموعة .

— عندما تفرض عمداً على المجموعة شروط حياة ، قد ينتج عنها إتلاف جسدي كامل أو جزئي .

وجاء في المادة الثالثة من الميثاق :

● الأفعال الآتية تلزم معاقبتها :

— الإبادة العنصرية .

— التأمر على ارتكاب الإبادة العنصرية .

— التحريض المباشر والعام لارتكاب الإبادة العنصرية .

— محاولة ارتكاب الإبادة العنصرية .

— الاشتراك في الإبادة العنصرية .

ونصت المادة الرابعة على ما يلي :

— الأشخاص الذين يرتكبون الإبادة العنصرية ، أو أي من الأفعال الأخرى المدرجة في المادة ٣ ، تجب معاقبتهم سواء كانوا حكاماً دستوريين ، أو موظفين عامين ، أو أفراداً .

ومما لا شك فيه ، أن هذا الميثاق ، يتعلق مباشرة بمذابح الأرمن التي استخدمت فيها أبشع وسائل القتل والتعذيب ، وكتب عنها الكثير . وحول عمليات القتل نورد مقتطفات مما ورد في وصفها :

فقد جاء في كتاب « حياة على المتراس » : « جرت مذابح كيليكيا وأضنة في عام ١٩٠٩ ، وأسفرت عن تدمير مائتي قرية ، وذبح سكانها ، وصب البترول على منازل السكان وإضرار النيران فيها ، وفي الأحياء التي تم احتلالها ، قطع الأطفال إرباً إرباً ، وبترت أيدي وأصابع وآذان النساء من أجل سرقة الحلي منهن » ..

وجاء في شهادة ثانية ، أن أحد رجال الشرطة العثمانية ، واسمه عبد الله ، كان يتذرع بالبحث عن الفدائيين ، وكان ينتقل من قرية إلى أخرى مع رجاله ويقتحم بيوت الأرمن الخالية من رجالها ، وكان ذلك الوحش يعامل النساء أحط معاملة ، إذ كان يحمل معه قطعاً مدربة يطلقها على النساء بعد انتزاع ثيابهن ، فتنهش أبدانهن العارية .

وعن مذابح قرية ضالفوريك قال شهود عيان : ما إن احتل العثمانيون هذه القرية ، حتى أخذوا ينتقمون من أهلها بوحشية بالغة ، فكانوا يسبون النساء ، ويقطعون أثداءهن ، ويقررون بطونهن ، ويجلسون الأطفال على السيوف ، ويقطعون أوصال المسنين ويمزقونها إرباً إرباً .

وكتب السفير الأمريكي في تركيا « هنري مورغنتاو » : « كان رجال الشرطة الأتراك ، يعرفون النساء من ثيابهن ، ويضربهن ضرباً مبرحاً بسيطا من أغصان الأشجار الخضراء ، أما الرجال فكانوا يضربون على أخمص القدمين حتى يصابوا بالإغماء ، كما كانت تقلع شعرات ذقونهن شعرة شعرة ، وكذلك تنزع أضافر الأيدي والأرجل ، ويوضع الحديد المحمي على صدورهم ، ويقطع اللحم من أجسادهم بكلايات حديدية محمية ، وبعدها يوضع الزيت المغلي على جراحهم » .

وكتب عن عمليات الترحيل : « كانت العادة المتبعة ، قبل بداية مسيرة القافلة ، فصل الرجال عن عائلاتهم ، وربط كل أربعة منهم ببعض ، ثم نقلهم إلى الضواحي لقتلهم بالرصاص .. وكانت كل الطرق الرئيسية مزدحمة بجماعات المهاجرين المساكين ، كانوا يعرجون داخل الوديان وخارجها ، ويتسلقون تقريباً كل الجبال والهضاب ، وكانوا يعرفون جيداً ، أن الطرقات كلها تؤدي حتماً إلى الموت .. والتهمة الوحيدة هي أنهم أرمن » .

ولو أردنا الإسهاب في وصف المذابح ، والطرق الوحشية التي استخدمت لتنفيذها ، لا تكفي مئات الصفحات لذلك . إنما أردنا بعض الأمثلة التي تؤكد الجريمة بعناصرها الكاملة . وقبل الانتقال إلى الحديث عن دور الصهيونية في القضية الأرمنية . سنتطرق إلى الدور العثماني نفسه ، وذلك ، تصويماً للمغالطات التي لاحظنا وقوع بعض المؤرخين والسياسيين فيها إما عن جهل ، أو عن عمد .

ففي محاولة لطمس الحقائق ، والتهرب من مسؤولية المذابح ، يزعم الأتراك ، أنه لم يكن لدى أسلافهم ، خططاً مرسومة لتصفية الأرمن ، وطردهم من ديارهم . غير أن الوثائق التي تدحض تلك المزاعم أكثر من أن تحصى ، وفيما يلي بعضاً منها :

ما إن انفض مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ الذي أقر الإصلاحات الأرمنية ، حتى عبر كامل باشا رئيس الحكومة العثمانية عن سياسة الإبادة ، حين قال في نفس العام « إننا سنزيل الأمة الأرمنية ، وسنمحي أثرها ، ولا ينقصنا شيء لتحقيق ذلك ، ولدينا كل الأدوات جاهزة ، وسيكون انتصاراً سهلاً ضد شعب أعزل ، لا يملك سلاحاً ولا جيشاً ولا مركزاً ذا شأن ، وفي عام ١٨٨٤ ، أعلن الفاشي الكبير « كوتشوك سعيد باشا » الصدر الأعظم في عهد السلطان الأحمر « أن أنجع وسيلة لإنهاء القضية الأرمنية ، هي القضاء على الشعب الأرمني » .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، هبت الرياح المناسبة لتنفيذ أكبر مجزرة إبادة في التاريخ ، وهنا ، تقتطف بعضاً من الحوار الذي دار في الجلسة السرية التي عقدتها جمعية الاتحاد والترقي برئاسة طلعت باشا ، والذي أخذناه عن كتاب الوجه الخفي للانقلاب التركي ، لمؤلفه « مولان زاده رفعت » * ، وقد قدم المؤلف هذه الجلسة بقوله :

إن قتل الأرمن وتهجيرهم ، هو أمر غاية في الوحشية ، وجريمة سياسية مروعة ، والواقع أن مداولات الجلسة السرية التي عقدت في المقر العام لجمعية الاتحاد والترقي ، أسفرت عن صدور قرار يقضي بذبح الأرمن وإبادتهم عن بكرة أبيهم ، وألا يبقى أحد منهم على وجه الأرض ، حتى ولا الأطفال الرضع ... وبما أنني استقيت وقائع هذه الجلسة من أشخاص ذوي ثقة ، فقد رأيت إيرادها بصورة محضرة يتضمن تفاصيلها على لسان المجتمعين :

في بداية الجلسة أعطى طلعت الكلام إلى الدكتور ناظم الذي تحدث بإسهاب عن

أحداث مدينة « وان » هادفاً إلى جعلها ذريعة للإبادة ، حيث صور الثورة هناك ، على أنها تمرد وعصيان ، وبعد أن أنهى كلامه كان الحوار التالي :

طلعت : هؤلاء الثعابين رفعوا رؤوسهم من جديد ، ولا بد من التنكيل بهم تنكيلاً شديداً .

فارا كمال : القهر لهم ، « وان » لنا ، ولا يستطيع أحد أن يأخذها من أيدي الاتحاد والترقي المقدس .

الدكتور ناظم : الكلام وحده لا يفيد ، إن خطر الأرمن كالحراج في الجسم ، وما لا شك فيه ، أن الحراج إذا لم يعالج بمشرط جراح ماهر ، يبحث جذوره ويظهر الجسم منه ، يكون خطره مميتاً . إننا في حالة حرب ، ولن تهباً لنا ظروف سانحة أفضل من هذه الظروف التي تحولنا اجتثاث العنصر الأرمني من جذوره ، بحيث لا نبقى فرداً منهم على قيد الحياة في ممتلكاتنا .. علينا أن نمحي اسم الأرمن من الوجود ، وندرجه في طي النسيان ، ولن يعترضنا شيء ، لا تدخل الدول العظمى ، ولا ولولة وصراخ الصحف العالمية ، وحتى لو حدث ذلك ، تكون المسألة بمثابة أمر واقع وكفى ، لذلك أهيب بكم القيام بعملية إفناء .

الدكتور بهاء الدين شاكر : نحن الانقلابيين ، ومن موقع السلطة التي آلت إلى قبضتنا باسم الملة التركية ، يجب أن لا نسمح لغير البذور التركية أن تنمو في حقولنا ، ولهذا ، يجب أن نتصدى لبقايا الملل التي اندست من قديم في مجتمعتنا ، كما تندس النباتات الطفيلية في الحقول .. علينا أن نقتلعها من جذورها ، وهي ، الروم والأرمن والعرب .. إلخ .

حسن فهمي : ما دام الأرمن قد خرجوا عن سلطة جمعية الاتحاد والترقي المقدسة ، فالواجب يقضي بإفنائهم عن بكرة أبيهم ، وأن لا يبقى أي فرد منهم على قيد الحياة ، وسأعرض عليكم الطريقة اللازمة لذلك ، إذ ، بما أن التعبئة العامة لا تزال سارية المفعول ، يوضع الشبان الأرمن ، الحاملين للسلاح ، في مقدمة الجيش التركي على طول الجبهة الروسية ، وبهذه الصورة ، يكونون بين نارين ، نار الروس من الأمام ، ونار الترك من

الخلف ، وبذلك يصار إلى محوهم وإفنائهم ، أما الشيوخ والصبيان والنساء ، فتعطى الأوامر لتصفيتهم ، ثم تمتلك أمواهم وأمتعتهم ، وتفترش بناتهم .

جاويد : إن هذه المطالعات كانت وافية لتتوينا حول جوانب القضية .. وإن محو الأرمن من الوجود وإفنائهم ، مطلب ملي — سياسي — حيوي .

إلى هنا ينتهي الحوار الذي اقتطفناه من كتاب « مولان زاده » ، والذي اتخذ نتيجة له ، قرار الإبادة ، وبدأ تنفيذه في الخامس عشر من نيسان ١٩١٥ ، حين أ برق ثلاثي الإجرام إلى الحكام والمدراء المحليين في آسيا الصغرى بما يلي : « إن الحكومة التي تمثل الشعب التركي ، وحزب الاتحاد والترقي ، قررت أن تضع حداً للقضية الأرمنية ، وذلك بواسطة إبادة هذا العنصر الموجود بين شعبنا ، ويمكن إجراء ذلك عن طريق جرهم إلى صحارى بلاد العرب ... إننا نحثكم على مساعدتنا في هذه المهمة بكل قواكم ، وكل من يحاول الدفاع عن أي أرمني ، يعتبر عدواً للدولة والدين وسيحاكم بصورة سرية » .

وجاء في مذكرات نعيم بك رئيس لجنة الأبعاد في حلب ، وهي المذكرات التي نشر فيها برقيات سرية من « طلعت باشا » إلى رؤسائه : « ... أعلمناكم سابقاً أن الحكومة بناء على أمر صادر عن الجمعية ، قررت أن تدمر كل الأرمن الساكنين في تركيا تدميراً تاماً ... يجب أن نضع حداً لوجودهم ، مهما كانت الإجراءات المتخذة وحشية ... لا تلتفتوا إلى اعتبارات السن أو الجنس أو تأنيب الضمير » .

وجاء في برقية أخرى : « اجمعوا أولاد الأرمن ، ممن كانوا قد جمعوا مع بعضهم ، بأوامر وزارة الحربية ، وخذوهم إلى ناحية بحجة أن لجنة التهجير ستعتني بهم ، وذلك بقصد عدم إثارة الشبهات . دمرهم وأخبرونا النتيجة » . وفي الحادي والثلاثين من آب عام ١٩١٥ ، أعلن « طلعت باشا » في مقابلة له مع الدبلوماسيين بكل وقاحة « لم تعد هناك مسألة أرمنية » .

واستكمالاً للإحاطة بالقضية العادلة من مكافة جوانبها ، سنورد ما قاله الطرف الثالث ، عن جرائم الإبادة ، والمقصود بالطرف الثالث ، الشهادات المستقاة من الأجانب .

يقول أندرماندلسنام في كتابه « عصابة الأمم والدول الكبرى إزاء المشكلة لأرمنية » : « خلال ربيع عام ١٩١٥ وصيفه ، ثم بناء على أوامر صادرة عن حكومة الشبان الأتراك ، إلى قادة الجيش والسلطات المدنية في المقاطعات ، تم قتل قسم كبير من الأرمن القاطنين في ولايات تركيا الشرقية ، وهم في عقر دارهم ، فيما اقتيد آخرون باتجاه الجنوب ، وأبيدوا في طريقهم إلى المجهول ، ولم تقدم السلطات التركية على اتخاذ أي إجراء من شأنه تأمين سلامة قوافل المهجرين وتموينها بالمواد الغذائية ، وإنما بتدبير متعمد منها في معظم الأحوال ، حثت قطاع الطرق على الاعتداء عليهم وسلبهم ، كما أوعزت إلى رجال الأمن المكلفين بحماية قوافل المهجرين بإفنائهم عن بكرة أبيهم .

وعلى هذا النحو ، لقي آلاف المهجرين الذين أجهدهم الجوع والعطش والتعب مصرعهم ، وفي بعض الأحيان ، كان الجلادون يفرقون ضحاياهم في الأنهار ، أو يحرقونهم أحياء ، أو يجهزون عليهم بأساليب من التعذيب في غاية التفنن .

وجاء في كتاب ونستون تشرشل « الأزمة العالمية » المجلد الخامس : يبدو أن الوقت حان لإنصاف الأرمن وتمكينهم من العيش بسلام على أرض أجدادهم ، فالذين اضطهدوهم وظلموهم ، انهاروا بفعل الحرب أو الثورة ، أما الدول المنتصرة الكبرى ، فقد أصبحت حليفهم ، وبالتالي ستضمن إنصافهم ، إذ من غير المعقول حقاً أن تعجز الدول الحليفة الخمس عن تنفيذ إرادتها ، ومع ذلك ، هذا ما حصل ، فما كاد المنتصرون يتداولون في مؤتمر باريس في القضية الأرمنية حتى انفرط عقدهم وسرحت جيوشهم ، ولم يعد لمقرراتهم من وزن ، أكثر مما تزن الكلمات الجوفاء .

● وكتب فريد جوف نانسن في كتابه « أرمنية والشرق الأدنى » تعقيباً على عدم تطبيق معاهدة « سيفر » :

« مما يؤسف له ، أن هذه الأراضي كان الأتراك لا يزالون يحتلونهم ، فيما راحت الدول الكبرى تتقاعس عن تحديد الوسائل الكفيلة ليسترد الأرمن أراضيهم ، وأن ييسطوا سيادتهم عليها . ولم تقم الدول الكبرى بأي عمل من شأنه الوفاء بالالتزامات الجديدة التي اتخذتها على عاتقها ، وذلك بغية تمكين الأرمن من امتلاك الأراضي التي منحتم إياها على

الورق . إن كل هذه العهود تعطي انطباعاً ، بأن مهزلة مشؤومة كان يتم تمثيلها ، كما لو أن الحكام في الدول الكبرى قد انطلقوا من المبدأ القائل بأن الوعود المقطوعة لشعب صغير ، يمكن نقضها في حال اصطدام عملية التنفيذ بعقبات خطيرة ، وحيال هذا الموقف اللامبالي والمثير للدهشة ، رفض مصطفى كمال الاعتراف بالمعاهدة التي كانت الحكومة التركية الشرعية وقعت عليها ، وبادر إلى شن هجوم على أرمنية ، وعندها تغاضت الدول الكبرى عما يجري ، وبينما سمحت بالأمس بإراقة دماء الأرمن من أجل قضية الحلفاء ، إذ بها اليوم تكافهم بوثيقة لا قيمة لها على الإطلاق .

أما المؤرخ والسياسي أرنولد توينبي ، فقد كتب يقول :

« في القرون القديمة ، لم نشهد عصراً ، كانت فيه إنسانية الجنس البشري معترفاً ومعمولاً بها كما هو الحال اليوم .. ومع ذلك فإن العصر الذي عشت فيه ، شهد مذاهب عنيفة تنكر بصورة ساخرة الصفة الإنسانية المشتركة بين أفراد الجنس البشري وتبرر الفظائع ، مما حملنا على نحت كلمة جديدة وهي « الإبادة العنصرية » وذلك لكي نتمكن من وصف نوع جديد من المذابح .

ويضيف « توينبي » :

... وفي يوم معين ، قامت قوات الدرك التركية باحتلال الشوارع ، في المدن والقرى الأرمنية الرئيسية ، ثم سافت الآلاف من الأرمن إلى الخدمة العسكرية تحت طائلة التهديد بالإعدام ، في حال التخلف .

● وفي عام ١٨٩٢ ، كتب نائب القنصل البريطاني « ليكاردو بولو » : « ... أستطيع أن أؤكد لكم أن الأرمن في أضنة أبعد ما يكونون عن التفكير في تشكيل لجان ، أو أي نشاط سياسي آخر ، وفي عام ١٨٩٥ كتب الصحفي الإيرلندي « اميل ديلون » : « لقد أصبح من الثابت أن مجزرة صاصون ، كانت من تدبير الباب العالي ، وقد أعدها بعناية ونفذها بقسوة » .

وكتب سفير روسيا في اسطنبول « زينو فييف » عام ١٩٠١ : « إن الحكومة التركية بفرضها ضرائب على الأرمن لا طاقة لهم بها ، تواصل في واقع الأمر ، المجازر بطريقة

خفية ، ويرمي الباب العالي من ورائها ، إما إلى التخلص من الأرمن ، وإما إلى وضعهم في حالة يصبحون فيها عبيداً خانعين ، ولهذا الغرض تتخذ إجراءات لإرغام الأرمن على الرحيل عن جبال صاصون ، وعلى أن أسجل ، أنه لم يحدث أي تحسن منذ تعرض الأرمن للتصفية الوحشية في الأعوام من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٦ .

● ومع الأخذ بعين الاعتبار تواطؤ الألمان مع العثمانيين ، بصدد المذابح ، فقد جاء في البرقية رقم ١١٦ ، التي وجهها قنصل ألمانيا في صمصون « كوكهوف » : أن هذه المجازر وعمليات التهجير ، ليست بأقل من تدمير شعب بكامله . كذلك جاء في البرقية ١٢٠ ، والمرسلة من قنصل ألمانيا في حلب « روصلر » ، والمؤرخة في ٢٨ تموز ١٩١٥ : « إن حكومة الاتحاد والترقي مصممة على تدمير — وتدمير — القسم الأكبر من الشعب الأرمني بأساليب مستعارة من العصور القديمة .. وهي أساليب لا تليق بحكومة ترغب في أن تكون حليفة ألمانيا ... وإنما دون أدنى شك تريد الاستفادة من ظروف الحرب ، للتخلص من القضية الأرمنية » .

وفي برقية تحت رقم ٢٨٢ ، مؤرخة في ٣٠ حزيران ١٩١٦ ، يخاطب السفير الألماني « فولف مترنيخ » حكومته قائلاً : « إن جمعية الاتحاد والترقي ، تطلب من الحكومة بإلحاح ، إبادة البقايا الأخيرة من الأرمن ... وإن التريك هنا يعني إما طرد أو إبادة كل من ليس تركياً ... ويضيف السفير متهماً : وفي هذا ، كما في غوغاء شعارات الثورة الفرنسية ، تكمن اليوم ، النهضة التركية المنشودة » .

وأخيراً ، وليس آخراً ، كتب فريدريك ناسان ، مندوب عصبة الأمم للاجئين : « ... وفجأة ، قام وزير الداخلية طلعت باشا ، بإلقاء القبض ، على رجالات الأرمن في استنبول ليلة الخامس عشر من نيسان ، من أساتذة ومحامين وأطباء ورجال دين .. ووصل عددهم إلى ستائة إنسان ، وتم نفيهم جميعاً ، إلى مجاهل آسيا الوسطى دون محاكمة أو تحقيق .

وبعد هذا العرض الذي يشكل نوعاً من الإحاطة بالعناصر الكاملة ، للجريمة الكاملة الأركان ، لا بد من التطرق إلى الدور الذي لعبته الحركة الصهيونية ، بشأن المذابح الكبرى ، وبما يتوافق وأهدافها العنصرية . ومهما برعت هذه الحركة في إخفاء جرائمها على

مر العصور ، فالتاريخ يكشف نفسه ، ولا يرحم من يسود صفحاته ، وعلى اعتبار أن القضية الأرمنية ، كانت ولا تزال ، من القضايا الشائكة التي ظهرت إبان القرنين التاسع عشر والعشرين ، شأنها في ذلك ، شأن القضية الفلسطينية ، فإن ضلوع الحركة الصهيونية ، في هاتين القضيتين بات واضحاً لكل عين بصيرة .

واستناداً إلى العديد من الوثائق التي كانت تعتبر فيما مضى سرية ، يمكن التأكيد ، أن الدور الصهيوني في إبادة الأرمن ، ارتكز على ثلاثة عناصر ، هي النظرية الطورانية ، والأداة التنفيذية المتمثلة بجمعية الاتحاد والترقي ، ثم غاية التوسع والاستيطان .

فعلى صعيد النظرية الطورانية ، علينا توضيح غاياتها ومراميها ، فهي منسوبة إلى هضبة « طوران » ، التي تضم المناطق الممتدة من الصين ، عبر إيران وتركستان والقوقاز حتى هنغاريا والبلقان بما فيها الأناضول ، وما عليها من الشعوب ، وقد زعم مؤسسو جمعية الاتحاد والترقي ، أن سكان هذه المناطق من العرق التركي الأصيل ، ولا بد من تحقيق « الجامعة الطورانية » التي تجمع شعوب هذه الهضبة في إطار أمة تركية واحدة ، ذات كيان واحد ، غير أنه من الثابت تاريخياً ، أن هذه النظرية ، ظهرت منذ العهد الحميدي ، واشتدت مع العهد الاتحادي ، وفي العهدين ، كانت أصابع الحركة الصهيونية ، وراء تغذيتها ونشرها ، وإحاطتها بدعاية واسعة ، بهدف تقوية النفوذ الصهيوني في « الامبراطورية » العثمانية ، ومن ثم ، فتح الباب أمام النظرية الصهيونية العنصرية ، وترجمة أطماعها على أرض فلسطين .

وحين تؤكد أحداث التاريخ ، أن اليهود تدفقوا إلى البلاد العثمانية في عام ١٤٩٢ ، بعد أن طردهم الاسبان ، فمن المؤكد أيضاً ، أن أعداداً كبيرة منهم دخلت في الإسلام وأطلق عليهم اسم « الدوغة » ، ومنهم تكونت طبقة اجتماعية في مقدونيا أصبحت فيما بعد احتياطياً بشرياً للصهيونية عن طريق المحافل الماسونية .

وبعد أن عقدت الحركة الصهيونية مؤتمرها الأول في مدينة « بال » السويسرية عام ١٨٩٧ ، قررت الاتصال المباشر بالباب العالي ، فأوفد « تيودور هرتزل » إلى الأستانة ، الصهيوني « عمانوئيل قاراصو » الذي تمكن من مقابلة السلطان عبد الحميد الثاني ، في

١٧ أيلول عام ١٩٠١ ، وطلب منه ، منح فلسطين إدارة ذاتية يهودية ، الأمر الذي يعني تأسيس المشروع الاستيطاني الصهيوني ، لكن السلطان رفض هذا الطلب ظاهرياً بدليل أن الصهاينة أقاموا في عهده ، وتحديداً من سنة ١٨٧٨ وحتى ١٩٠٤ ، حوالي ثلاثين مستعمرة على أرض فلسطين . ورغم ذلك ، فقد قررت الحركة الصهيونية إزاحة السلطان عن عرشه ، واستقدام حكم يمثل لها ، وهكذا ، أصدر « هرتزل » أوامره إلى المحافل الماسونية في استنبول وسالونيك وأزمير كي تستقطب الضباط الشباب الناقمين على السلطان ، وبالفعل فقد تمكن « قاراصو » الأنف الذكر ، وهو زعيم الجالية اليهودية في أزمير ، من إقناع الكثير من صغار الضباط بتأليف جمعية « ثورية » ، أطلق عليها جمعية الاتحاد والترقي ، ومركزها « سالونيك » وحول هذه المسألة يقول مولان زاده رفعت ، إن القائمين على هذه الجمعية هم : قاراصو ، محمد جاويد ، وهو صهيوني عريق اسمه « دافيد » ، طلعت رئيس كتاب مصلحة البريد والبرق ، المقدم أركان حرب جمال « جمال باشا فيما بعد » ، الرائد أركان حرب أنور ، الرائد أركان حرب مصطفى كمال « رئيس جمهورية فيما بعد » ، وغيرهم .. وعلى هذا ، أشار « أرنولد توينبي » في كتابه تاريخ المسلمين ، إلى أن يهود سالونيك كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي ، كذلك قال المؤرخ « سيتون وطسون » بدوره : « إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي ، أنها غير تركية وغير إسلامية ، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها عضو واحد من أصل تركي صاف ، فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي مرتد ، وجاويد من « الدوغة » وكراصو من اليهود الاسبان ، وطلعت باشا من أصل عجري اعتنق الإسلام ، وهكذا فإن أصحاب العقول في هذه الحركة ، كانوا يهوداً ، أو يهوداً دخلوا الإسلام ، وأما الدعم المالي فكان يأتيهم من أغنياء اليهود » .

من هنا ، يمكن فهم الدور الصهيوني ، إزاء القضية الأرمنية التي برزت بصورة ملحوظة ، بعد استقلال دول البلقان ، فقد ركزت الحركة الصهيونية كل اهتمامها ونفوذها ، لإزاحة ما أسمته « بالعقبة الأرمنية » ، من وجه مخططها الرامي ، إلى زرع كيانها ، في فلسطين التابعة للسلطنة العثمانية ، وحين لم تثمر جهود « هرتزل » مع السلطان عبد الحميد عن النتائج التي كان يتوخاها ، لا سيما بعد أن قابله بواسطة

المستشرق الهنغاري اليهودي ، « أمينوس فامبيري » ، عمل على إزاحته ، من خلال الانقلابيين الأنفي الذكر ، فكان له ما أراد ، وجرت المذابح الكبرى ، وسط تضليل إعلامي ، وحملات دعائية ، روجتها الصهيونية بدقة ، عبر الصحف التي سيطرت عليها داخل السلطنة العثمانية وخارجها . ولعل السؤال الذي يخطر في ذهن ، هو أنه لماذا توجهت الجهود الصهيونية ضد الأرمن ولماذا ناصبتهم العدا ، للإجابة على ذلك ، نقرأ للمؤرخ العربي مروان البحيري مقالاً بعنوان « تيودور هرتزل والقضية الأرمنية » ، فنجد أنه يعطي تصوراً دقيقاً للدور القذر الذي لعبته الصهيونية ضد الأرمن ، فقد كان « هرتزل » ، كما جاء في المقال ، يستغل القضية الأرمنية في سبيل الأهداف التي من أجلها ، قامت الحركة الصهيونية ، فقد حاول إقناع زعماء الثوار الأرمن بالتصالح مع السلطان عبد الحميد ، وذلك على مبدأ أن مساندة اليهود للسلطان سترغمه على التخلي لهم عن فلسطين ، إلا أن المحاولة باءت بالفشل ، في وقت كانت الحركة الصهيونية تعمل فيه عبر كل القنوات التي توصلها إلى فلسطين ، وهي الدولة العثمانية ، ألمانيا ، بريطانيا ، فرنسا ، أمريكا ، وبالتالي إطلاق يد الاتحاديين ، في ارتكاب جرائم الإبادة بحق الشعب الأرمني .

وهكذا ، يظهر الارتباط الوثيق بين الصهيونية والاتحاديين ، حتى إن الدبلوماسيين البريطانيين ، وعلى الأخص السفير ج — لوثر ، كانوا يدعون جمعية الاتحاد والترقي بالجمعية اليهودية ، كذلك ، قال الوزير البريطاني « هارتنيك » في مذكراته ، أن الامبراطورية العثمانية كانت آلة في يد اليهود من أجل تحقيق هدفهم في إنشاء الدولة اليهودية .

وفي ختام هذا الفصل ، نجد التزاماً علينا ، التأكيد ، على أن القانون الدولي ، وميثاق الأمم المتحدة ، وإعلان حقوق الإنسان ، والوثيقة الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ، والمتعلقة بالإبادة الجماعية ، تعتبر كلها ، أساساً واضحة وكافية ، للتنديد بالإبادة الأرمنية ، والتعويض عنها . فالشعب الأرمني لم يسترد حقوقه حتى الآن ، وهو يتطلع على الدوام ، إلى الأسرة الدولية ، كي تسانده ، وتمكنه من الوصول إلى حل عادل لقضيته العادلة . لا سيما ، وأن القضية الأرمنية حققت نجاحاً سياسياً في حزيران ١٩٨٧

حين صدر عن البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ قراراً أكد فيه ، أن مجزرة كبيرة ارتكبت ضد الأرمن ، ضمن الأراضي العثمانية خلال أعوام ١٩١٥ — ١٩١٧ ، وفي حين طالب القرار بالحفاظ على الآثار التاريخية الأرمنية الموجودة في تركيا ، أكد على أن عدم اعتراف تركيا بوقوع تلك المجازر ضد الأرمن واستمرار انكاره لهذه المجازرة يشكل عقبة كبيرة أمام قبول انضمامها إلى السوق الأوروبية المشتركة .

أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى العديد من التصريحات المساندة للأرمن وقضيتهم التي صدرت عن كل من البابا يوحنا بولس الثاني ، والرئيس الأمريكي جورج بوش ، والرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران ، والرئيس الأرجنتيني راؤول الفونسين ، كذلك نشير إلى الجهود الحثيثة التي بذلها السيناتور الأمريكي روبرت دول من أجل إقناع الكونغرس الأمريكي في العام ١٩٩٠ ، باتخاذ قرار يعتبر يوم ٢٤ حزيران ، يوماً وطنياً ، إحياءاً للذكرى الأليمة ، للمجازر الوحشية المرتكبة ضد الأرمن ، لكن هذه الجهود باءت بالفشل ، نتيجة المصالح الأمريكية — التركية .

ان العالم ، بدأ يتجه الآن ، إلى عصر جديد من الوثام والسلام ، تنتفي فيه كل مظاهر وآثار القهر والظلم ، التي لحقت بالشعوب المضطهدة ، الشعوب التي لها الحق الكامل في نضال مشروع ، يرفع عنها الحيف والغبن ، لتأخذ مكانها الطبيعي بين أمم المسكونة .

الملحق الأول

أرتساخ - ناخشيفان حول تاريخي مفتصب

مهما كثر اللفظ — من غير الأرمن طبعاً — حول إقليم قره باخ ، فالحقيقة لا تتبدل أو تتأثر ، وهي أن هذا الاقليم جزء لا يتجزأ من أرمينية ، وقبل التطرق إلى التطورات السياسية التي انتابته عبر القرون الماضية ، والتي أدت إلى سلخه عن الوطن الأم ، سنتعرف عليه جغرافياً ، وتاريخياً ، وبشرياً ، وسياسياً .

يقع اقليم « ارتساخ » ، وهو الاسم الأرمني له ، شمال شرق الكتلة الجبلية الأرمينية ، قرب مناطق سونيك وزانكي زور ، إلى الضفة اليمنى لشرق الكور ، وتبلغ مساحته ٤١٠٠ كم^٢ ، وعدد سكانه حوالي ١٨٠ ألف نسمة ، ثمانون بالمائة منهم أرمن .

يمتاز هذا الاقليم ، بمناخ بارد جداً ، ذلك أن متوسط ارتفاع قسمه الجبلي عن سطح البحر ٣٠٠٠ متر ، ويصل أعلى معدل للحرارة في شهر تموز إلى ٢٠ درجة ، بينما يتدنى في الشتاء إلى أقل من ١٥ درجة تحت الصفر ، ومن أشهر جباله ، جبل زوغول ويبلغ ارتفاعه ٣٥٨١ متراً ، وجبل الأمير « ايشخانا سار » ، وارتفاعه ٣٥٥٢ متراً ، وجبل « كيرس الكبير » وارتفاعه ٢٧٢٥ متراً ، وتتميز هذه الجبال بصخورها المدببة ، وكهوفها الكثيرة وأشهرها كهف « آزوخ » ، وتعرض جبال الاقليم ، إلى تآكل طبيعي بسبب الرياح والأمطار والثلوج ، يتراوح معدله السنوي بين ٤٠٠ إلى ٨٠٠ ملمتر .

ويتميز هذا الاقليم أيضاً ، بغاباته الشاسعة الجميلة ، التي تنساب فيها الجداول والأنهار ، ومن أشهرها ، نهر فورودان ، ونهر هاكارو ، ومن بحيراته ، البحيرة السوداء ، والبركة الكبيرة ، والبركة الصغيرة . أما أهم ثرواته الطبيعية فهي ، أحجار البازلت والرخام والنحاس ، ويعتمد سكانه على الزراعة وخاصة الذرة والكرام ، وكذلك على تربية دودة القز ، وصناعة السجاد اليدوي ذي الشهرة العالمية .

عاصمة الاقليم مدينة ستينانكرت ، وأهم مدنه ، شوشة المبنية على مرتفع جبلي ، وهاترون وطاليش وماردوني ، ومن أشهر الأديرة فيه ، دير « كانساسار » ، والقديس « هاغوب » و « السيدة العذراء » ودير « تاتي » .

وتاريخياً ، كان إقليم ارتساخ ، أو ولاية ارتساخ ، هو الولاية العاشرة في أرمينية التاريخية ، وقد خضع لحكم عائلة « سيساك » ، التي يعود نسبها إلى أحفاد الملك هايك ، وحين نشبت الحروب بين الفرس والروم ، في الثلث الأول من القرن الرابع ، كانت أرمينية ، هدفاً لهذه الحروب ، ومحط أطماع المتحاربين بغية السيطرة عليها ، وفي عام ٣٨٧ ، عقد الطرفان معاهدة « اسلسيني » التي تم بموجبها تقسيم أرمينية لأول مرة في تاريخها ، إلى قسمين ، القسم الشرقي المؤلف من أربعة أخماسها ، والقسم الغربي المؤلف من الخمس وقد آل إلى الروم ، أما الشرقي وارتساخ ، من ضمنه فقد آل إلى الفرس .

وحاولت الدولة الفارسية ، دمج « أرمينية الشرقية » فيها عنصرياً ودينياً وحضارياً ، لكن دون جدوى ، حيث تمسك الأرمن بقوميتهم ولغتهم وديانتهم ، فأحبطوا محاولة « تدويهم » ، وحافظوا على شخصيتهم وتراثهم ، من خلال ما أبدوه من مقاومة بطولية ، لكل أشكال القهر والاضطهاد ، وبخاصة في مقاطعتي أوديك وارتساخ .

فقد استمر اقليم « ارتساخ » شبه المعزول جغرافياً ، في حياته الطبيعية ، وأدرك الفرس صعوبة التغلب على سكانه ، الذين نظموا شؤونهم السياسية وتركزت جهودهم على التطور والحفاظ على الشخصية المميزة عبر القرون القادمة التي شهدت غزوات وحروب متلاحقة على جميع الجبهات ، كانت أرمينية ضحيتها الأولى . غير أن « ارتساخ » صمد بوجه كل الأخطار ، وتمكن من صدها ، معتمداً على قواه الذاتية ، وما توفر بين أيدي

سكانه من أسلحة محلية ، فحفظ التاريخ بطولاته ، وأصبح « ارتساخ » أو « قره باخ » رمز الاستقلال والإبقاء على الهوية والتراث .

أصيب الاقليم بالضعف في القرن السابع ، وبقي تحت الحكم العربي حتى نهاية القرن التاسع ، ثم عاد إلى الازدهار ، في القرن العاشر حين تغير اسمه الجغرافي وأصبح « خاتشين » ، وفي القرن الرابع عشر ، استخدم اسم « قره باخ » للمرة الأولى .

و « قره باخ » كلمة تركية ، تعني الكرمة السوداء ، لكن أصلها اللغوي غير واضح ، ويخضع لعدة تفسيرات . فهناك من يزعم أن الاسم ظهر بسبب زراعة أشجار التوت الأسود ، ويقول آخرون أنه أطلق على مجموعة من الغرباء حاولت مهاجمة الاقليم وحلت بها الهزيمة ، لكن المؤرخ الفارسي عبد الله القزويني ، يعتقد أن الاسم الذي استخدم منذ عام ١٣٣٤ ، هو « آراني قرح باخ » ويعني المنطقة التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الكور ، أما الاسم الشائع حالياً ، فهو اقليم قره باخ الجبلي ، موضع هذا البحث ، واطليم قره باخ السهلي الذي يقع شرق سهل موغان .

ونعود إلى إمارة « خاتشين » التي كانت ظاهرة بارزة في تاريخ الاقليم ، فنجد أنها انقسمت إلى خمس إمارات أرمينية ، حمل حكامها لقب ملك في مطلع القرن السابع عشر وهي :

- كولسيران : وحكمتها أسرة بيكلاريان .
- تشاريبرت : وحكمتها أسرة إسرائيليان .
- خاتشن : وحكمتها أسرة شالاليان .
- فاراندا : وحكمتها أسرة شاه ناظاريان .
- تيزاك : وحكمتها أسرة أفانيان .

وقد شكلت هذه الإمارات أو الممالك تحالفاً عسكرياً فيما بينها عام ١٩٢٧ ، عرف بتحالف الممالك الخمس ، وذلك للدفاع عن نفسها ، ضد هجمات الأتراك والفرس المتلاحقة ، ولم يقتصر دور هذا التحالف على شؤونها الخاصة ، بل اهتم بالشؤون القومية الأرمينية العامة ، حيث أوفد عدة بعثات إلى روسيا ودول أوروبا الغربية ، للحصول على دعمها وتأييدها من أجل تحرير الشعب الأرمني من الهيمنة التركية والفارسية .

وبقيت إمارات قره باخ الأرمنية على قوتها مدة طويلة من الزمن تمتعت خلالها بالاستقلال الحقيقي من عام ١٧٢٢ إلى عام ١٧٣٠ ، تحت لواء الزعيم داوود بك القره باخي ، الذي هزم العثمانيين في معركة « هيلستور » .

لكن التفكك أصاب هذه الإمارات أواخر القرن الثامن عشر ، حين استولى شاه ناظاريان على إمارة فارندا ، بعد أن قتل أخاه الملك « هوسيب » وعائلته غدرًا ، وخشية من الأمراء الآخرين ، استعان بالقوى الخارجية ومنها زعيم إحدى القبائل التركية واسمه « باناه علي » ، الذي حشد قواته في حصن « شوشة » ، حيث تم إنشاء أول مملكة أجنبية في إقليم قره باخ الجبلي ودامت حتى عام ١٨٢٢ .

ونتيجة للمعركة التي دارت بين قوات روسيا القيصرية والفرس قرب اتشمياتزين عام ١٨٠٤ ، والتي انتهت بهزيمة الفرس ، تمكنت القوات الروسية من الاستيلاء على بعض المناطق الأرمنية ، ومنها مقاطعة قره باخ ، وذلك في العام ١٨٠٥ ، وبموجب معاهدة جليستان المبرمة بين روسيا القيصرية وإيران في عام ١٨١٣ ، أقرت إيران بالسيطرة الروسية على أقاليم الشمال وما وراء القوقاز ومنها أقاليم ارتساخ وجمري وناخشيفان .

ورغم أن انضواء الأرمن تحت السيطرة الروسية كان طوعياً ، إلا أنهم لم ينالوا كامل حقوقهم في الحياة ، والحرية في مقدمة هذه الحقوق ، بل ظلوا تحت وطأة المعاناة من السياسة القيصرية من جهة ، وهجمات الأعداء في المناطق المجاورة من جهة ثانية . ولكن الشعب الأرمني وهو النشط ، المثابر على العمل والجهاد معاً ، حافظ على كيانه ، لا سيما في إقليم ارتساخ الذي بات منيعاً على الأعداء ، منظمًا شؤونه السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية على أحسن وجه ، حتى إن مدينة شوشة ، أصبحت محبب الثقافة الأرمنية في جنوب القوقاز .

وعلى اعتبار أن سياسة روسيا القيصرية ، ابتدعت حدوداً إدارية للمناطق ، أساسها تجاهل التركيب العرقي ، وذلك لمنع قيام الكيانات الوطنية ، فإن إقليم « قره باخ » قاسى من هذه السياسة ، لا سيما حين تأسست مقاطعة « اليزابيتبول » في عام ١٨٦٨ ، والتي ضمت ولاية كانتسك ومعظم سكانها من الأرمن ، وكذلك ولايات شوشة وجيرائيل

وجيفانشر ونصف سكانها من الأرمن ، وهي ولايات تقع داخل إقليم قره باخ ، وبذلك ، بات من الصعوبة إجراء أي نوع من التعديل الإداري في العهد القيصري .

وحين قامت الثورة الروسية الأولى في عام ١٩٠٥ ، امتدت إلى إقليم ما وراء القوقاز ، لكن السلطان القيصرية تمكنت من إخمادها ، وأخذت تغذي النعرات الدينية والعرقية ، لتخريب الثورة ، والحد من نموها وتطورها ، وقد استجاب إلى هذه السياسة ، الأذربيجانيون وعلى رأسهم أحمد أغايف بك ، الذي ارتكب عدة مذابح بحق الأرمن ، في باكو وشوشي وكانتسك وناخشيفان ويريفان ، وامتدت هذه الفترة العصيبة من عام ١٩٠٥ إلى ١٩٠٧ ، حيث ثبت أن الأذربيجانيين هم المبادرون للاعتداء على الأرمن بتشجيع من رجالات النظام القيصري .

وحين قامت ثورة شباط عام ١٩١٧ ، أصدرت الحكومة المؤقتة مرسوماً يقضي بتشكيل لجنة خاصة لإقليم ما وراء القوقاز عرفت باسم « الأوزاغوم » من خمسة أعضاء بينهم ميكائيل بابازيان ، لكن هذه اللجنة لم تتمكن من تحقيق أي عمل ، في حين تفاقت حدة الخلاف بين الأحزاب والقوى السياسية على مختلف اتجاهاتها ، لا سيما إزاء المصالح القومية التي على قاعدتها ، انعقد المؤتمر الأرمني الوطني الأول في تفليس ، من ١١ إلى ٢٥ تشرين الأول ، وانتخب لجنة من ١٥ عضواً ، لم تتمكن من اتخاذ قرارات معينة .

وإثر نجاح ثورة أكتوبر ، لم تعترف المنظمات والأحزاب المناوئة لها في القوقاز ، بالسلطة السوفييتية المركزية ، وأعلنت توليها السلطة في إقليم ما وراء القوقاز ، واتخذت من تفليس مركزاً لها ، وشكلت حكومة شارك فيها ممثلون عن أرمنية وأذربيجان وجورجيا ، كما أنشأت برلماناً خاصاً بها ، أسمته « السيم » ، وأطلقت على إقليمها اسم « جمهورية ما وراء القوقاز الديمقراطية الفيدرالية » . وأثناء ذلك ، بدأ الجيش الروسي المتمركز على جبهة القوقاز بالانسحاب بناء على أوامر لينين ، والعودة إلى الداخل للدفاع عن الثورة والسيطرة على الوضع ، فاستغلت القوات العثمانية هذه الظروف ، وشتت هجوماً في شهر شباط على إقليم القوقاز للاستيلاء عليه ، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى انحلال الجمهورية الكونفدرالية ، في ٢٦ أيار ، ثم إعلان كل جمهورية استقلالها ، وانتهى الهجوم العثماني ، إلى

دخول القوات العثمانية مدينة باكو في ١٥ أيلول ، وبذلك أصبح اقليم ما وراء القوقاز تقريباً في قبضتها .

إلا أن هذه السيطرة كانت قصيرة الأجل ، بسبب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ، مما يعني انسحاب قواتها من جهة القوقاز ، ودخول قوات الحلفاء مكانها .

ومنذ أن بدأ الانسحاب ، أخذ العثمانيون بالتعاون مع الأذربيجانيين يهاجمون القرى الأرمنية ، لدرجة أنه تم عزل سكان قره باخ عن العالم الخارجي ، الأمر الذي حدا بالأرمن إلى الاعتماد على قدراتهم وقوتهم الذاتية ، فتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ورفضوا الامتثال لأوامر السلطة الأذربيجانية . وبعد انسحاب القوات العثمانية ، حلت القوات البريطانية مكانها .

وفي تشرين الثاني ١٩١٨ ، أقيمت في قره باخ سلطتان متنافستان ، الأولى أرمنية في شوشة بزعامة غيراسيم شاه ناظاريان ، والثانية أذربيجانية في جبل حاج ساملو بزعامة خسروف سلطانوف ، ونتيجة عدم وجود أي تفاهم بين الطرفين ، دخل الجنرال أوزانيان بقواته إلى الاقليم في ٢٩ تشرين الثاني ، وانتصر على قوات السلطة الأذربيجانية بعد معركة استمرت ثلاث أيام ، وحين اعتزم السير إلى شوشة تلقى أمراً بالتوقف من القيادة البريطانية التي أرسلت في كانون الأول قوة عسكرية إلى المدينة المذكورة .

وعلى اعتبار أن بريطانيا كانت تسعى إلى وضع باكو ضمن دائرة نفوذها ، لم تتردد بالتأمر على حقوق الشعب الأرمني ، من خلال إرضائها للسلطة في أذربيجان وبخاصة سلطانوف المعروف بعداؤه الشديد للأرمن ، والذي أخذ يرتكب أعمال التنكيل في قره باخ تحت مرأى البريطانيين ، مما أدى إلى مظاهرات احتجاج غاضبة في يريفان وتفليس .

وفي ٢٨ حزيران ١٩١٩ ، قرر الأرمن المجتمعون في قره باخ ، إفاد ثلاثة مندوبين إلى باكو للتفاوض مع السلطة الأذربيجانية ، وبالفعل أسفرت المفاوضات عن اعتراف أرمني مؤقت بالسلطة الأذربيجانية على أن يتقرر مصير الاقليم في مؤتمر الصلح المنعقد في باريس ، وعلى أن يتمتع بحكم ذاتي ، ويتولى إدارته مجلس مشترك يتألف من ثلاثة أرمن

وثلاثة أذربيجانيين ، وأن يكون لحاكمه نائب أرمني ، وقد انتخب لهذا المنصب جيغي كلانتاريان .

وإلى مؤتمر باريس ، تقدم الأرمن بمذكرة تطالب دول الحلفاء الاعتراف بأرمنية دولة مستقلة ، وأن تعاد إليها أراضيها المشروعة وهي الولايات الستة التي خضعت للدولة العثمانية ، وولايات وأقاليم ناخشيفان وقره باخ وصورمالو وزنجوز ولوري وأخالكاني ، لكن الأتراك والبريطانيين التقوا على أرضية المصالح المشتركة ضد الأرمن وحقوقهم ، فانتهت المرحلة الأولى من مؤتمر باريس إلى توقيع معاهدة فرساي عام ١٩١٩ ، ثم معاهدة سيفر عام ١٩٢٠ ، والتي تضمنت اعترافاً دولياً باستقلال أرمنية ، لكنها تركت مسألة رسم الحدود ، منوطة بين أرمنية وأذربيجان ، وفي ١٠ آب عام ١٩٢٠ ، عقدت معاهدة تفليس بين أرمنية وجمهورية روسيا السوفيتية ، تضمنت وعداً باعتراف الأخيرة بها رسمياً ، ووقف القتال بين قواتهما الناجم عن دخول القوات الروسية إلى أذربيجان وسيطرتها على قره باخ وزنجوز وناخشيفان .

إلا أن القوات التركية عادت إلى الهجوم على أراضي أرمنية التي طلبت المساعدة من روسيا ودول الحلفاء ، وانتهى القتال بين الطرفين ثم مفاوضات الصلح إلى معاهدة اسكندربول في كانون الأول ، ١٩٢٠ ، والتي أكدت على إقامة جمهورية في اقليم ناخشيفان تكون مرتبطة بأذربيجان ، الأمر الذي أدى في النتيجة إلى اعتبارها جمهورية ذات حكم ذاتي بدءاً من شباط ١٩٢٣ .

وفي ١٦ آذار ١٩٢١ ، عقدت معاهدة موسكو بين روسيا وتركيا ، للصدقة والتعاون ، والتي ألحقت ضرراً بحقوق الشعب الأرمني ، لأنها أقرت سلخ ناخشيفان عن أرمنية ، وألغت المعاهدات السابقة ، ونصت على إعادة النظر برسم الحدود . واستغلت السلطات الأذربيجانية مجمل تلك الأوضاع ، فتابعت التنكيل بالأرمن ، وطلبت منهم إخلاء مناطق قره باخ وزنجوز ، إلا أنه وبعد قيام جمهورية أرمنية السوفيتية ، أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي الأذربيجاني بياناً أعلن فيه أن الدماء لن تراق بعد اليوم وأن إقليم زنجوز وناخشيفان جزء لا يتجزأ من أرمنية وأن لاقليم قره باخ الجبلي الحق الكامل في تقرير مصيره . لكن ظهر فيما بعد أن هذا البيان كان مجرد دعاية مضللة .

وحين أخذ التعاون السوفييتي التركي يزداد ، احتل موضوع تخطيط الحدود بين جمهوريات ما وراء القوقاز أهمية خاصة ، وبدأت سلسلة من الاجتماعات المغلقة من أجل الفصل في هذه المسألة . ففي الثاني من أيار ١٩٢١ ، شكل المكتب القوقازي للحزب الشيوعي ، لجنة خاصة للبت في مسألة الحدود برئاسة سركي كيروف ، ومثل جورجيا فيها كل من « شفانيدزه » ، و « تودريا » ، وأذربيجان كل من حسينوف ، هاجينسكي رسول زاده ، ولم يمثل أرمينية سوى عضو واحد هو بيكازاريان ، مما يعني أن التمثيل غير متكافئ وأن النتائج مقررة مسبقاً .

وبدأت اللجنة اجتماعاتها في تفليس في ٢٥ حزيران ، وأكد ممثل أرمينية في الجلسة الأولى على ضرورة دراسة التقسيمات الإدارية غير العادلة ، وطالب بإعادة المناطق الأرمينية ، وقال أنه خلال مباحثات أجراها سابقاً في موسكو مع كل من مياسنيكيان وستالين ، حول موضوع قره باخ ، أبدى ستالين دعمه الخاص للمطالب الأرمينية . لكن أعضاء اللجنة عارضوا أقوال بيكازاريان ، ورفضوا مطلب تعديل الحدود ، واتفق معهم رئيس اللجنة السوفييتي « كيروف » . ولما انتهت أعمال اللجنة إلى طريق مسدود ، رفع الممثل الأرميني المسألة إلى المكتب القوقازي مباشرة .

ويذكر أن المكتب المذكور ، كان قد اتخذ قراراً في الثالث من حزيران بتصفية الثوار في زانكيزور ، وجاء في القرار أنه على حكومة أرمينية أن تعلن انتهاء اقليم قره باخ الجبلي لها . واستناداً إلى هذا القرار ، أصدرت الحكومة الأرمينية فعلاً بياناً في ١٢ حزيران جاء فيه « استناداً إلى إعلان اللجنة الثورية لجمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية والاتفاقية المبرمة بين أذربيجان وأرمينية ، نعلن أن اقليم قره باخ الجبلي هو من الآن وصاعداً جزء لا يتجزأ من أرمينية » .

كما يذكر أيضاً ، أن الأرمن في زانكيزور أعلنوا ثورة شعبية في ١٠ تشرين الأول ١٩٢٠ ، ضد التنكيل الذي لحق بهم في ظل تواجد الجيش الروسي الحادي عشر في أقاليم قره باخ وزانكيزور وناخشيفان ، وبفضل هذه الثورة بقي اقليم زانكيزور داخل حدود أرمينية .

ونعود إلى إعلان ١٢ حزيران المتعلق باقليم قره باخ ، فقد عينت حكومة أرمينية ،

اسكناز مرافيان ممثلاً لها في هذا الاقليم ، وحين توجه في ٢٥ حزيران برفقة أسعد كارييف من تفليس إلى قره باخ ، أعلمه كارييف بوجود الذهاب إلى باكو أولاً لتسوية قضية الاقليم ، لكنه رفض الفكرة ، وأعلن احتجاجه على سياسة الأمر الواقع ، وفي هذه الأثناء اتخذ المكتب السياسي للجنة المركزية الأذربيجانية قراراً بعدم توحيد قره باخ مع أرمينية .

وفي ٢ تموز ، بدأ مكتب القوقاز سلسلة جلسات موسعة بمشاركة ٥١ مندوباً لبحث العلاقات بين الهيئات المركزية السوفييتية والجمهوريات الأخرى ، وفي جلسة ٤ تموز طرحت مسألة قره باخ الجبلي ، وحضرها ثمانية ممثلون عن أذربيجان وجورجيا وأرمينية بالإضافة إلى ستالين نفسه ، وكان على جدول أعمالها أربعة اقتراحات نوردها فيما يلي مع نتائج التصويت عليها :

أولاً : إبقاء قره باخ ضمن حدود أذربيجان بصورة تامة .

وقد وافق على هذا الاقتراح ممثلاً أذربيجان ناريمانوف ونظاروف ، وواحد من ممثلي جورجيا وهو ماخارادزه .

وعارضه ممثل أرمينية مياسنيكيان ، والجورجي أورتشو نيكيتسه ، والسوفييتيان كيروف ، وفيكاتز .

ثانياً : إجراء استفتاء حول تقرير المصير يشارك فيه الأرمن والأذربيجانيون ووافق على الاقتراح ناريمانوف وماخارادزه ، وعارضه الباقي .

ثالثاً : ضم اقليم قره باخ الجبلي إلى أرمينية ، ونال موافقة أربعة أصوات .

رابعاً : إجراء استفتاء بين الأرمن فقط ، ونال موافقة خمسة أصوات .

وبذلك ، انتهت اجتماعات المكتب ، إلى إقرار ضم اقليم قره باخ الجبلي إلى أرمينية ، وإجراء استفتاء بين سكانه فقط . إلا أن ناريمانوف ، عارض هذه القرارات ، وطالب بإحالة المسألة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي . تحت ذريعة إجراء المزيد من الدراسة حولها ، وبموافقة المكتب على هذا الاحتجاج ، قرر الاستجابة لطلب ناريمانوف ، لكن الإحالة لم تتم ، وذلك لأن ستالين ألغى نتائج التصويت التي جاءت لصالح أرمينية ،

كما ألغى نتائج اجتماعات الرابع من تموز نفسه ، ومنح الاقليم استقلالاً ذاتياً ، وبعد عامين ، وفي السابع من تموز ١٩٢٣ ، أعلن رسمياً أن اقليم قره باخ الجبلي ، هو اقليم ذو حكم ذاتي خاضع لإشراف السلطة الأذربيجانية .

وقبل الانتقال إلى التطورات الجديدة التي طرأت على قضية قره باخ والتي بدأت بانتفاضة شباط عام ١٩٨٨ ، نجد أنه لا بد من الحديث عن المرحلة التي أعقبت الضم غير الشرعي إلى أذربيجان ، فالمعروف أن الأرمن ، رفضوا على مدى التاريخ المعاصر سلخ هذا الاقليم وغيره من المناطق عن الوطن الأم . إذ بعد قرار تموز ١٩٢٣ ، تداعت الجماهير الأرمنية إلى حشد قواها للمطالبة بالتصحيح الجغرافي والقومي ، الأمر الذي أسفر خلال عامي ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ، إلى توقيع مذكرة شعبية تحمل آلاف التوقيعات ، تطالب بتوحيد المناطق الكاثنة جنوبي جسر مدينة كانتساك مع اقليم قره باخ الجبلي ، ومن ثم توحيد الاقليم ككل مع أرمينية .

وقد باءت هذه المحاولة بالفشل بسبب سياسة القمع الستاليني . ومع ذلك ، فاليأس لا مكان له أمام إرادة شعب يطالب بحقه ، حيث قام أغاسي خانجيان رئيس الحزب الشيوعي الأرمني ، بمحاولة أخرى حين أثار موضوع إعادة الأراضي الأرمنية إلى الوطن الأم ، لكنه اغتيل في ظروف غامضة ، وفي عام ١٩٤٥ ، أرسل كريكور هاروتيونيان ، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأرمني ، رسالة إلى ستالين يقترح فيها ضم اقليم قره باخ إلى أرمينية ، لكن الطلب أهمل ومات ، وفي عام ١٩٦٢ ، وجه سكان الاقليم رسالة وقع عليها ثلاثة آلاف أرمني ، إلى نيكيتا خروشوف طالبوا فيها بالانضمام إلى أرمينية تحقيقاً للعدالة ، لكن دون جدوى . وفي غضون ذلك ، ازداد السخط الشعبي الأرمني ، وقوبل بممارسات سرية إرهابية من قبل الأذربيجانيين ، حيث كشف النقاب في عام ١٩٦٧ عن ازدياد عدد الأرمن الذين قتلوا سراً ، مما أدى بالسلطة الأذربيجانية إلى إرسال قوات عسكرية إلى اقليم قره باخ بحجة ضبط النظام ، لكن الحقيقة هي تشجيع النعرات وارتكاب الفظائع ، إذ تم اغتيال عدد من المفكرين الأرمن بمنتهى الوحشية .

وفي عام ١٩٧٧ ، وجه الروائي الأرمني المعروف « خانزاتيان » رسالة إلى ليونيد

بريجينيف ، أكد فيها على ضرورة إيجاد حل عادل لقضية قره باخ ، ومع الإشارة إلى العديد من المقالات والوثائق التي ظهرت أواخر الستينيات ، إضافة إلى رفض الأرمن الدائم للظلم والقهر ، لا يبدو غريباً اندلاع الأحداث في شباط من العام ١٩٨٨ .

إذ ، منذ منتصف شباط ، سلطت الأضواء ، على تطورات لم يكن مسموحاً بها سابقاً في الاتحاد السوفيتي ، فقد قرر الأرمن إثارة مسألة فصل اقليم قره باخ الجبلي عن أذربيجان وأعادته إلى أرمينية الوطن الأم . وفي جلسة خاصة عقدت في ٢٠ شباط ، وجه مجلس السوفييت في أرمينية ، مطلباً بهذا الخصوص إلى موسكو ، تمثيلاً مع الدستور والقوانين . لكن الرد كان قاسياً وفضلاً ، مما أدى إلى تفجير الأحداث ، خاصة وأن السلطات العليا في موسكو ، كانت قد تجاهلت مناشدة أكثر من مائة ألف أرمني لتوحيد الاقليم مع الوطن الأم قبل عام واحد من الأحداث المذكورة .

وهكذا اندلعت المظاهرات في ستيباناکرت ، ويريفان ، واكتسبت تأييد الملايين من الأرمن في سائر جمهورية أرمينية . وإزاء ذلك ، أرسلت موسكو أربعة مسؤولين إلى كل من قره باخ ويريفان لدراسة الوضع واتخاذ التوصيات المناسبة ، كما وجه الرئيس غورباتشوف رسالة عامة لتهدئة الأوضاع .

وفي ٢٨ شباط ارتكبت أعمال عنادية ضد المدنيين الأرمن في أذربيجان وبخاصة في مدينة سوميفيت ، وقد حاولت بعض وسائل الإعلام الغربية بإيحاء من بعض الأطراف الدولية الخارجية ، إضفاء الطابع الديني على تلك الأحداث ، وذلك لطمس حقائق التاريخ القومية .

وفي ١٨ تموز عقدت هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفيتي ، جلسة بحثت فيها قرار جمهورية أرمينية القاضي بانضمام قره باخ الجبلي إليها ، وقرار أذربيجان الرفض لهذا القرار . ونتيجة التداول والمناقشة ، اتخذت الهيئة قراراً باستحالة تعديل الحدود ، وشكلت لجنة لتطبيع الوضع بين الطرفين ، وبتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩٨٩ ، أنشئت لجنة حاكمة خاصة ، كحل مؤقت . بيد أن المرحلة التي تلت هذا القرار ، برهنت أن ضربة جديدة وجهت لمصالح أرمينية ، فقد أصدرت السلطة المركزية في

موسكو قراراً بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني من العام نفسه ، ألغى اللجنة الحاكمة وأعاد اقليم قره باخ الجبلي إلى أذربيجان ، وهكذا اعتبر الأرمن أنهم عادوا إلى البداية .. بداية الانطلاق من جديد ، باتجاه الدفاع عن الحقوق القومية ، واستعادتها بالسبل المناسبة ، وهذا ما سيحدث مستقبلاً .

الملحق الثاني

كارثة الزلزال

« عندما أرى عمال الإنقاذ

يفرقون في الركام ..

وهم يسمعون صوتاً ..

آتياً لهم من تحت ..

ينشطر قلبي

لأنني لست معهم ..

هناك ..

في لينناكان ... في سبيداك ... في كيروفاكان

ينشطر قلبي ...

لأن تلك الأيدي ..

ليست يدي المجروحتين ..

بالحجارة المسننة ...

واللتين تنزفان دماً » ...

لم يكف الشعب الأرمني ، ما تعرض له من ويلات ومحن عبر تاريخه الطويل ، المليء

بالغزو والاحتلال والتشريد والتهجير والإبادة والدم ، بل حلت به نكبات الطبيعة التي لم ترحم آلامه وجراحه ، فكانت كوارثها ، مأس ، تضاف إلى تاريخ هذا الشعب ، الذي لم يعرف القنوط والخنوع ، فصمد وقاوم وصبر وتجلد ، من أجل الوجود والبقاء الحر الكريم .

ولأن أرمينية ، أرض الزلازل والهزات الأرضية ، فقد اعتاد شعبها على تملل الأرض من وقت إلى آخر ، حيث لم يكن الزلزال المدمر الذي ضربها في العام ١٩٨٨ ، هو الأول من نوعه ، بل تعرضت قبله على مر العصور ، إلى سلسلة من الهزات والزلازل ، نذكر منها ، زلزال عام ٨٩٤ ، وزلزال عام ١٠٤٦ الذي أفنى مدينة « انبي » العاصمة القديمة لأرمينية ، ثم زلزال ١٦٧٦ ، وزلزال ١٨٤٠ ، وزلزال ١٩٢٦ ، الذي ضرب مدينة لينناكان .

أما زلزال ١٩٨٨ ، فقد كان الأسوأ والأكثر دماراً ، في منطقة القوقاز ، خلال المائة عام الأخيرة ، حسب ما أجمع عليه خبراء الهزات الأرضية والزلازل ، حيث بلغت قوته ٦,٩ درجات وفق مقياس ريختر ، الذي يتضمن ٩ درجات ، كما بلغت ١٠ درجات ، حسب مقياس « ميركالي » المعتمد في الاتحاد السوفيتي ، والذي يتضمن ١٢ درجة .

ففي ذلك اليوم ، يوم الأربعاء الواقع في السابع من كانون الأول عام ١٩٨٨ ، وعند الساعة الحادية عشر وأربعين دقيقة ، كان الموعد مع الكارثة الأتية ، وكان الزمن الفاصل بين الحياة والموت ، ثلاثون ثانية فقط ، وهي مدة الهزة المدمرة التي ضربت ثلاثة مدن رئيسية وأكثر من خمسين قرية ، وأسفرت عن مقتل وإصابة مائة ألف شخص ، وتشريد أكثر من خمسمائة ألف .

وعلى الرغم من مرور أكثر من عامين على هذه النكبة ، فإن المحصلة النهائية لعدد الضحايا لم تعلن على الوجه الدقيق ، وذلك بسبب وجود عشرات الآلاف من الأرمن الذين لجأوا إلى أذربيجان إلى منطقة الزلزال وعلى الأخص مدينة سيبيدك ، نتيجة الأحداث التي قامت بين أرمينية وأذربيجان بشأن إقليم قره باخ . إلا أن الأرقام التقديرية ، أكدت مقتل ما لا يقل عن خمسين ألف شخص . أما بالنسبة للأضرار المادية فقد قدرت بثلاثة عشر مليار دولار . إذ ، استناداً إلى المعلومات التي نشرت عن هذه الأضرار ، تبين أن

الزلزال دمر مدينة سيبيدك التي يبلغ عدد سكانها خمسون ألف نسمة ، دماراً كاملاً ، وبلغت نسبة الدمار في مدينة « لينناكان » التي تضم حوالي ثلاثمائة ألف نسمة ٨٠٪ بالمائة ، كما بلغت نسبة الدمار في مدينة كيروفكان التي تضم حوالي مائتي ألف نسمة ٥٠ بالمائة .

ومنذ اليوم الأول للكارثة ، غرقت المنطقة المنكوبة في الظلمة ، نتيجة تعطل الشبكة الكهربائية ، إضافة لإنعطاب الطرق ، والسكك الحديدية ، وشبكات المياه والهاتف .

ثلاثون ثانية ، مدة الهزة ، وإنتهى كل شيء ، هدير الأبنية التي أخذت بالإنهيار ، يملأ السماء طاعياً على عويل النسوة وبكاء الأطفال ، أما النبأ ، فقد هز ضمير العالم الذي هرع للإنقاذ والمساعدة ، ولكن من الأقرب إلى ذلك ، لقد كان سكان يريقان أول من هب للعون ، إذ لجرد سماعهم النبأ ، وهم الذين يبعدون عن لينناكان حوالي ١٥٠ كم ، إندفعوا بسياراتهم إلى المناطق المنكوبة ، كما عجت المشافي والمستوصفات بآلاف المتبرعين بالدماء ، ولدى وصولهم إلى تلك المناطق ، كان الناجون يشعلون الأخشاب إتقاء للبرد ، ويبدلون كل جهودهم لإنقاذ الأحياء ، وإنتشالهم من تحت الأنقاض .

وحول هذه المسألة ، إندلع جدل واسع ، بشأن التقصير في عمليات الإنقاذ من جهة ، والتقصير في علم الزلازل والتنبه لها من جهة ثانية ، فقد إفتقرت الأيام الثلاثة الأولى إلى الارتفاعات الكبيرة ومولدات الكهرباء والحخم ، وهي من المستلزمات الأساسية لعمليات الإنقاذ ، أما فيما يتعلق بالإنذار المبكر ، فقد أكد العلماء أن مثل هذا الزلزال كان متوقفاً منذ مدة طويلة ، ونورد فيما يلي ما نشرته جريدة (سوفيا ... تسكيا ... روسيا) على لسان العالم م . ج سوبوليف مدير معهد فيزياء الأرض في موسكو : (لقد وضع معهدنا منذ عام ١٩٨٥ ، قائمة بالزلازل المتوقعة في القوقاز ، وبرزت فيها منطقتي لينناكان وستيبانكان ، على أنهما الأكثر تعرضاً للهزة المدمرة) .

كذلك قال الأكاديمي السوفيتي (لافيروف) نائب رئيس أكاديمية العلوم السوفيتية ، أن العلماء في هذه الأكاديمية ، سبق وأن تنبأوا وحذروا في عام ١٩٨٦ ، من أن المنطقة التي ضربها الزلزال ، هي من أخطر المناطق المعرضة للزلازل .

على أية حال ، وكما ذكرنا ، فالكارثة هزت العالم ، وأخذت المساعدات تتدفق إلى المناطق المنكوبة من كل صوب ، حيث وصلت فرق إنقاذ بمعدات المتطورة من فرنسا وألمانيا وبريطانيا والسويد وبلغاريا ، وسرعان ما تجاوز عدد الخبراء والأطباء الأجانب الألفين ، كذلك تدفقت الأغذية والأدوية والأغطية والملبوسات والتبرعات المالية ، من أكثر من سبعين دولة ، كانت سورية في مقدمتها ، لما يربط الشعبين من صداقة ووشائج متينة ، حيث أرسلت إحدى عشر طائرة محملة بجميع أنواع المساعدات العينية بتوجيه كريم ونبيل من الرئيس حافظ الأسد .

ومما يسجل بشأن المساعدات الدولية وحجمها الذي لم يسبق له مثيل إزاء أية كارثة مماثلة في العديد من بقاع العالم الأخرى ، أنها جاءت كمحصلة طبيعية للمكانة التي تبوأها الأرمن . . . في مختلف الدول ، نتيجة إخلاصهم وأمانتهم ومساهماتهم في البناء الوطني لهذه الدول .

كذلك يجدر بالذكر ، أن شعب فلسطين في الأراضي المحتلة ، ساهم بتقديم يد العون لشعب أرمينية ، من خلال التبرع بالدم ، وتقديم الأغطية التي نسجتها النساء الفلسطينيات ، أما المعونات التي حاولت (إسرائيل) إرسالها إلى أرمينية ، فقد أكدت الحكومة الأرمينية رفضها ، وإعادة قبل وصولها ، كما رفضت إستقبال فرق إنقاذ من (إسرائيل) .

واستغرقت عمليات الإنقاذ حوالي أسبوعين ، بدأت بعدها مرحلة إزالة آثار الزلزال ، والتي تضمنت تفجير المباني المتبقية ، وترحيل الأنقاض التي بلغ حجمها ٤ ملايين متر مكعب أو ما يقارب ٨ ملايين طن .

بعد ذلك بدأ البناء من جديد ، وأخذ الأمل بالمستقبل يكبر ويكبر ، وكان شعب أرمينية يردد مع شارل ازنافور ، كلمات الأغنية التي وضعها خصيصاً للكارثة ، والتي تقول :

« مرة أخرى ... سيزهر الربيع ... وستولد أيام جديدة بعد الشتاء ... بعد الجحيم ... ستنمو شجرة الحياة ... من أجلك يا أرمينية » .



الدمار في سيداك



فرقة إنقاذ فرنسية في لينناكان

الملحق الثالث

أهم الأحداث في تاريخ الشعب الأرمني

- ٢٢٠٠ ق . م : ظهور الملك الأسطوري « هايك » ، قائد الشعب الأرمني في هجرته إلى أراضي أرمنية الحالية .
- ٨٨٠ - ٥٩٠ ق . م : نشوء مملكة أورارطو حول بحيرة « وان » وعاصمتها توشبا ، وأول ملوكها « آرامي » .
- ٧٨٢ ق . م : تأسيس قلعة ايريوني في عهد ارجتشي الأول ، وهي مدينة يريفان الحالية .
- ٦١٢ ق . م : أول ذكر مؤكد للأرمن في التاريخ ، من خلال مشاركتهم بقيادة الملك باروير مع الكلدانيين والميديين بفتح مدينة نينوى عاصمة الآشوريين ، وهي الدولة الأرمنية القديمة الأولى .
- ٤٠١ - ٢٠٠ ق . م : الدولة الأرمنية القديمة الثانية .
- ١٩٠ ق . م : الدولة الأرمنية القديمة الثالثة ، بقيادة ارتكسياس الأول .
- ٩٥ ق . م : عهد الملك ديكران الأكبر الثاني ملك الملوك .
- ٣٤ ق . م : الدولة الأرمنية القديمة الرابعة بقيادة الملك ارشاك الأول .
- ١٣٠ م : تأسيس مدينة فغار شباط التي أصبحت مدينة اتشمياتزين الحالية .
- ٣٠١ م : اعتناق أرمنية المسيحية ديناً رسمياً بفضل القديس غريغور المنور .
- ٣٨٧ م : تقسيم أرمنية لأول مرة في تاريخها بموجب معاهدة اسيليسي بين الفرس والرومان إلى قسمين شرقي وغربي .



لقطات من الزلزال
الكارثة عام ١٩٨٨



٤٠٤ م : ابتكار القديس مسروب مشطوطس ، الأبجدية الأرمنية .
 ٤٥١ م : معركة افرار التي تصدى فيها الأرمن بقيادة الأمير فارطان الأول ماميكونيان ، إلى محاولة الفرس فرض الوثنية عليهم بدلاً عن المسيحية .
 ٤٨٢ م : كتابة أول تاريخ لأرمنية ، على يد موسى الخوريني ، الملقب بهيرودوت الأرمن .
 ٥٢٢ م : بداية التقويم الأرمني الجديد .
 ٦٣٩ م : بداية الفتح العربي لأرمنية .
 ٦٤٥ - ٦٥٠ م : استكمال الفتح العربي لأرمنية .
 ٧٧١ م : ثورة الأرمن على دولة الخلافة العباسية بقيادة الأمير موشيع الرابع .
 ٨٨٥ - ١٠٤٥ م : الدولة الأرمنية الأولى في العصور الوسطى ، وهي مملكة أرمنية الكبرى البجراطية .

٩٢٨ م : انتقال مقر الكنيسة الوطنية الأرمنية من دوين إلى أختار .
 ٩٩٢ م : انتقال مقر الكنيسة الوطنية الأرمنية إلى مدينة « آني » .
 ١٠٤٦ م : أول غارة للأتراك السلاجقة على شرق الأناضول .
 ١٠٧١ م : انتصار السلاجقة على الروم في معركة ملاذكرد .
 ١٠٨٠ - ١٣٧٥ م : مملكة أرمنية الصغرى ، أو أرمنية في المنفى .
 ١٣٧٥ م : سقوط أرمنية الصغرى على يد دولة المماليك المصرية .
 ١٤٤١ م : انتقال مقر الكنيسة الوطنية الأرمنية إلى اتشمياتزين .
 ١٥٠٢ م : استيلاء الدولة الصفوية الفارسية على أرمنية وضمها إلى أملاكها .
 ١٥١٢ م : طبع أول كتاب باللغة الأرمنية في مدينة البندقية الإيطالية ، وهو كتاب التقويم الكنسي .

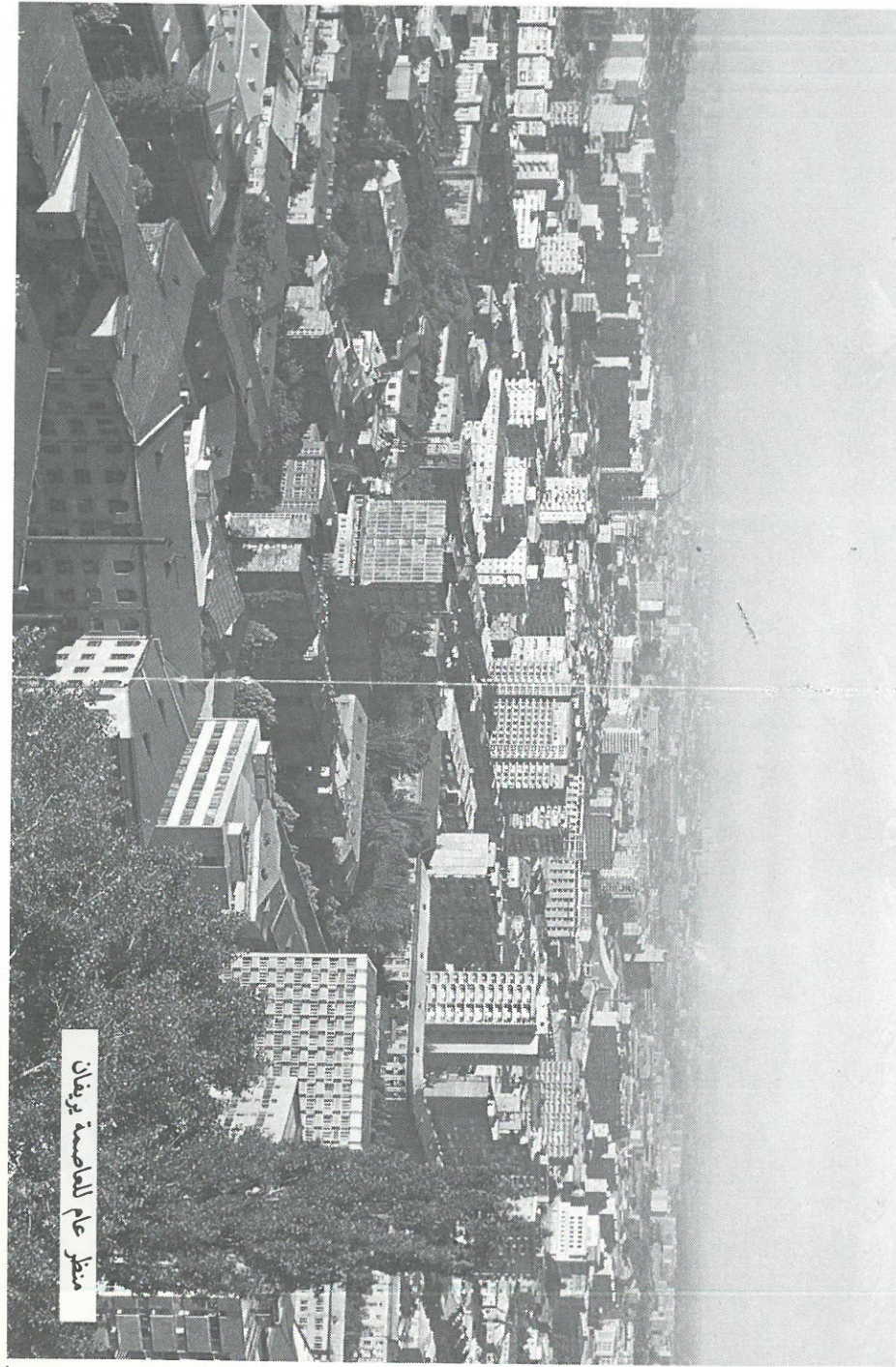
١٥١٤ - ١٥٤٨ م : استيلاء العثمانيين على أراضي أرمنية .
 ١٦٠٤ م : ضم الدولة الفارسية لأرمنية الشرقية من الدولة العثمانية بموجب معاهدي اسطنبول وسراب .

١٦٠٥ - ١٧٢٢ م : قيام الممالك الأرمنية الخمسة في اقليم قره باخ .
 ١٦٦٦ م : طبع الكتاب المقدس لأول مرة باللغة الأرمنية في أمستردام .

١٧٢٢ - ١٧٣٠ م : استقلال الممالك الأرمنية الخمسة بزعامة داود بك القره باخي .
 ١٧٨٨ م : تأسيس أول مطبعة أرمنية في روسيا على يد غريغور خالديران ، وطبع أول قاموس أرمني - روسي .
 ١٧٩٤ م : صدور أول صحيفة أرمنية في العالم وهي ازدارار في مدينة مدراس بالهند .
 ١٨١٢ م : صدور أول صحيفة أرمنية في الشرق الأوسط وهي صحيفة « رقيب بيزنطة » .
 ١٨٦١ م : مذابح الأرمن في اقليم زيتون جنوب شرقي الأناضول على يد العثمانيين .
 ١٨٧٢ م : تأسيس جمعية « اتحاد الخلاص » ، وهي أول جمعية ثورية أرمنية في الدولة العثمانية .

١٨٨٥ م : تأسيس حزب « الأرمنغان » في الدولة العثمانية ومن زعمائه مكرديش برتوغاليان .
 ١٨٨٧ م : تأسيس حزب « الهنشاق » في جنيف بمبادرة الطالبة الأرمنية مارو فارتابديان .
 ١٨٨٨ م : تأسيس أول جمعية سرية عامة أرمنية في باريس برئاسة حنا بروسلي .
 ١٨٩٠ م : تأسيس حزب « الطاشناق » في تفليس ، وكان من مؤسسيه خريستوفر ميكائيليان .
 ١٨٩٢ م : تأسيس « اتحاد العمال الأرمن الثوريين » في تفليس ومن مؤسسيه آشوط خوماريان .

١٨٩٤ م : المذابح الأرمنية في اقليم صاسون الجبلي في الدولة العثمانية .
 ١٨٩٦ م : استيلاء الفدائيين الأرمن على مبنى البنك العثماني في القسطنطينية في أول عمل ثوري من نوعه في التاريخ الحديث .
 ١٩٠٥ م : مذابح القوقاز التي دبرتها روسيا القيصرية لتخريب الثورة .
 ١٩٠٨ م : تأسيس حزب « الرامغفار » في القسطنطينية .
 ١٩٠٩ م : المذابح الأرمنية في قليقية .



منظر عام للعاصمة يريفان

١٩١٤ م : انعقاد مؤتمر حزب الطاشناق في أرضروم .

١٩١٥ م : المذابح الأرمنية الكبرى .

١٩١٧ م : انعقاد المؤتمر الأول للأرمن الغربيين في يريفان لتنظيم عودتهم إلى أرمينية العثمانية .

١٩١٧ م : انعقاد المؤتمر الوطني الأرمني للأحزاب التقليدية الأرمنية في تفليس .

١٩١٨ م : مرسوم الحكومة الروسية السوفيتية بتأييد حق تقرير المصير لأرمينية العثمانية .

١٩١٨ م : ٢٨ أيار ، قرار استقلال أرمينية وتشكيل أول حكومة لها برئاسة كاشازوني .

١٩١٨ م : ٢٠ أيلول ، اغتيال الثوري الأرمن ستيان شاهوميان .

١٩١٩ م : انعقاد أول مؤتمر أرمني دولي في باريس .

١٩٢٠ م : قيام ثورة الحزب الشيوعي الأرمني للاستيلاء على السلطة وتشكيل حكومة سركيس كاسيان .

١٩٢١ م : ٨ شباط ، وقوع انقلاب في يريفان قام به حزب الطاشناق وإقامة حكومة قراطسيان .

١٩٢١ م : ٢ نيسان ، استرداد القوات الأرمينية بمساعدة القوات السوفيتية السلطة في يريفان .

١٩٢٢ م : تأسيس جمهورية أرمينية الاشتراكية السوفيتية ، ووضع أول دستور لها .

١٩٢٧ م : إقامة سد « أغدير » على نهر الرس .

١٩٣٩ م : القضاء على الأمية تماماً في أرمينية .

١٩٣٩ م : هجرة الأرمن من لواء اسكندرون العربي السوري ، إثر تنازل فرنسا عنه لتركيا .

١٩٤٦ م : إنشاء مرصد بيوراكان قرب يريفان .

١٩٦١ م : تغذية جميع المشروعات المحلية بالكهرباء المولدة من مساقط مياه نهر رزدان .

١٩٦٤ - ١٩٦٥ م : تولي انسطاس ميكويان رئاسة الاتحاد السوفيتي .

١٩٦٨ م : الاحتفال بمرور ٢٧٥٠ عاماً على تأسيس مدينة يريفان .

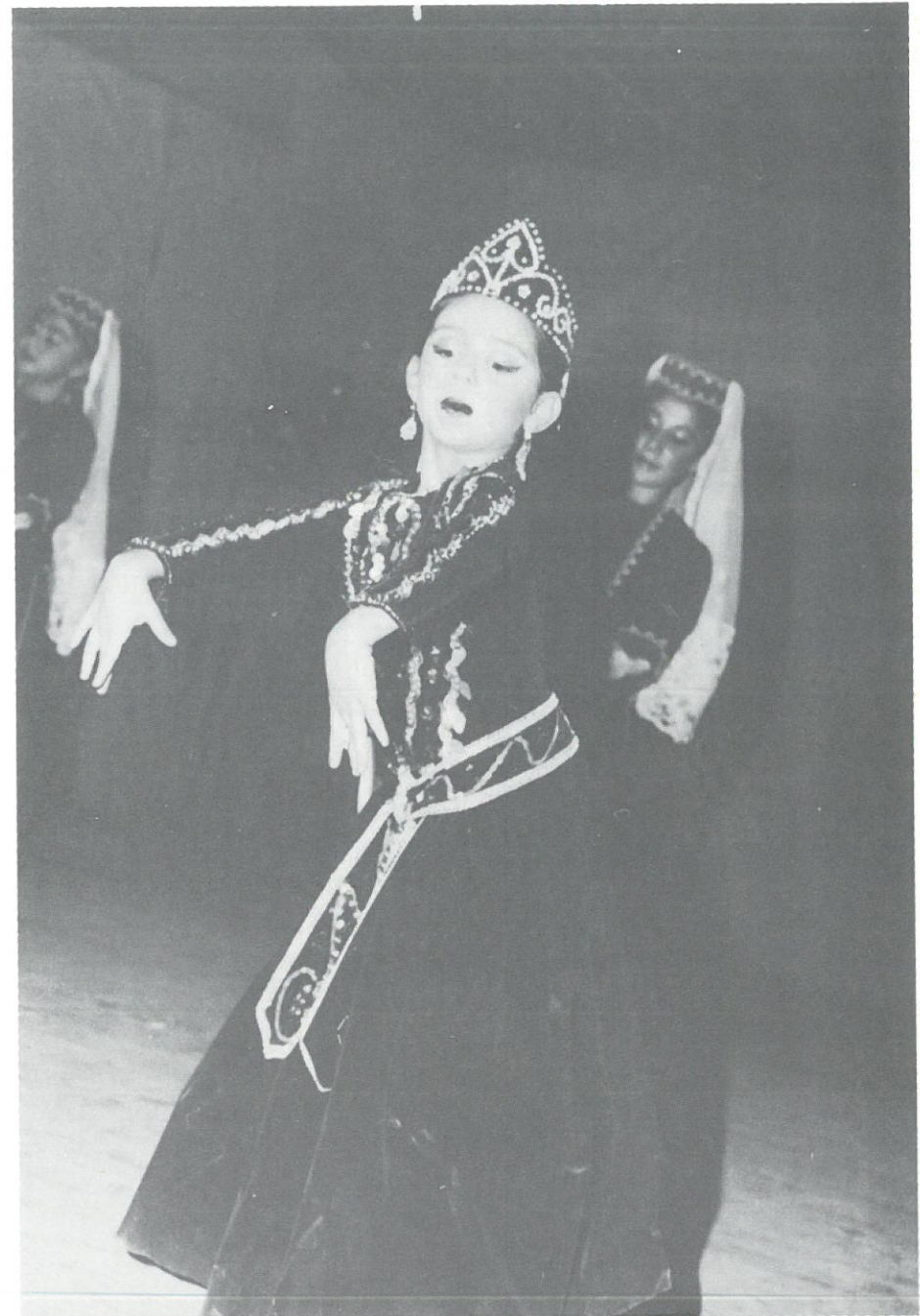
١٩٨٨ م : أسوأ زلزال منذ ٨٠ عاماً يدمر عدة مدن أرمينية .

١٩٨٨ م : انتفاضة شباط للمطالبة باقليم قره باخ الجبلي .

مراجع الكتاب

* بالعربية :

- الوثائق الرسمية لمجازر الأرمن ، ابرام اندونيان ، بيروت ١٩٢٠ .
- مجازر الأرمن ، بارو يرتسيان ، بيروت ١٩٨٦ طبعة جديدة .
- حياة على المتراس (ذكريات ومشاهدات) ، ارتين مادويان ، بيروت ١٩٨٦ طبعة جديدة .
- دور الصهيونية في القضية الأرمنية ، من منشورات الجيش السري الأرمني ، بيروت ١٩٨٤ .
- تيودور هيرتزل والقضية الأرمنية ، مروان البحيري ، ١٩٧٧ .
- أرمنية في التاريخ العربي ، أديب السيد ، ١٩٧١ .
- صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية ، عثمان الترك ، ١٩٦٠ .
- تاريخ الأمة الأرمنية ، كيفورك استارجيان ، ١٩٥٠ .
- من هم الأرمن ، حنا احمران ، ١٩٧٨ .
- الأرمن في مصر ، ارشاك بوياجيان ، ١٩٦٠ .
- تاريخ أرمنية ، بول اميل ، ترجمة شكري علاوي ، بدون تاريخ .
- أرمنية من الفتح الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري ، صابر محمد دياب ، ١٩٧٨ .
- أرمنية اليوم ، عن جمعية الصداقة الأرمنية ، ١٩٧٢ .
- الأرمن عبر التاريخ ، مروان المدور ، ١٩٨٢ .
- الأرمن شعب وقضية ، د . صالح زهر الدين ، ١٩٨٨ .
- قتل أمة ، مذكرات السفير الأمريكي في تركيا ، ترجمة د . الكسندر كشيشيان ، ١٩٩٠ .
- تاريخ الشعب الأرمني ، فؤاد حسن حافظ ، ١٩٨٦ .
- القضية الأرمنية هراتش اسنايديان نشأة الأرمن وتاريخهم القديم ، رفائيل إشتخانيان ، ترجمة هوري عزازيان .



رقص شعبي

* بالأرمنية :

- السلطان الأحمر عبد الحميد ، يازجيان ، ١٩٨٠ .
- تاريخ الشعب الأرمني « عدة أجزاء » ، لجنة من المؤرخين الأرمن ، ١٩٧٠ .

* بالفرنسية :

- تاريخ الأرمن ، جيرار ديديان ، ١٩٨٢ .
- الأرمن : تاريخ جينوسيد ، ايف ترنوف ، ١٩٧٧ .
- أطلس أرمنية ، أكاديمية العلوم الأرمنية ، ١٩٦١ .
- المسألة الأرمنية ، أناهيد ترمنسيان ، ١٩٧٣ .

شكر وعرفان

عديدون هم الذين شجعوني على تحقيق هذا الكتاب ، الذي يشكل مقدمة لسلسلة من الكتب الأخرى ، ستصدر لاحقاً ، تحت عنوان « دليل التراث الأرمني » ، انطلاقاً من قاعدة التمازج والتعارف بين الحضارات في العالم .
وبما أن المجال لا يتسع لتعداد الأسماء كلها ، أخص بالشكر والعرفان كل من
السادة :

سحاق أبويان	همبارسوم قورومليان
سورين أرتينيان	جان هوفسيبيان
سركيس كيشيشيان	هراتش شيرانيان
سركيس كردريان	نوبار ميليكيان
سركيس سرادوريان	آغوب تافيتيان
نوبار وكريكور طوروسيان	فارتكس خوشيان
انترانيك أرزومانيان	وانيس سكاجيان

فہرست

الإهداء ٥

مقدمة ٧

توطئة — تاريخ وجغرافية ١١

□ الفصل الأول (من هم الأرمن — أرمينية القديمة) ١٩

□ الفصل الثاني (أرمينية من ٩٥ ق . م إلى ١٥ م) ٢٥

□ الفصل الثالث (أرمينية بين الرومان والبارثيين والفرس) ٣١

□ الفصل الرابع (الأرمن والعرب) ٣٩

□ الفصل الخامس (أرمينية الكبرى المستقلة) ٦٥

□ الفصل السادس (أرمينية في المنفى) ٧٩

□ الفصل السابع (الفتح العثماني) ٩٩

□ الفصل الثامن (الأرمن في الدولة العثمانية) ١٠٧

□ الفصل التاسع (تنازع الولاء) ١١٣

□ الفصل العاشر (الأرمن وعبد الحميد الثاني) ١٢٣

□ الفصل الحادي عشر (انقلاب ١٩٠٨) ١٣٥

□ الفصل الثاني عشر (النهضة الفكرية) ١٣٩

□ الفصل الثالث عشر (الانضمام إلى روسيا القيصرية) ١٤٥

□ الفصل الرابع عشر (فتح أم تحرير أم توسع) ١٥١

□ الفصل الخامس عشر (المذابح الكبرى) ١٦٥

□ الفصل السادس عشر (الاستقلال والمعاصرة) ١٨٧

□ الفصل السابع عشر (أرمن الشتات) ٢٠٩

□ الفصل الثامن عشر (القضية العادلة) ٢٢٣

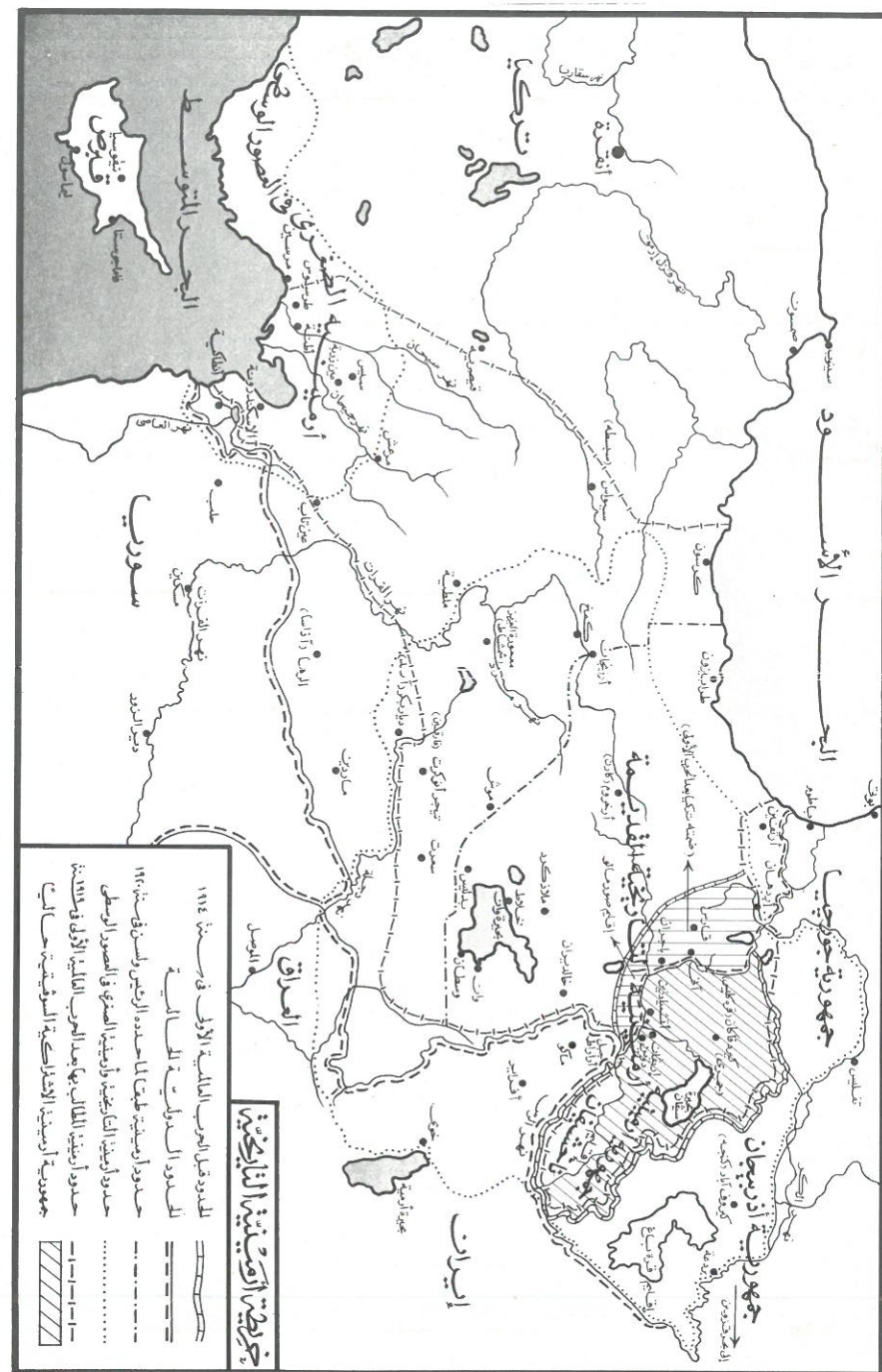
الملحق الأول (ارتساخ — ناخشيفان حق قاريغى مفتصب) ٢٤٣

الملحق الثاني (كارثة الزلزال) ٢٥٥

الملحق الثالث (أهم الأحداث في تاريخ الشعب الأرمني) ٢٦١

مراجع الكتاب ٢٦٧

شكر وعرفان ٢٦٩





الكتاب

• هي صفحات من ملاحم البطولة والتضحية،
في سبيل البقاء ..
• وهي تاريخ شعب، عجن بالألم والمعاناة،
وغابت أرضه عن خرائط الجغرافية، زهاء
خمسمائة عام ..
• لكنه .. وهو الشعب الشجاع، لم يستكن
للقهر، فتمسك بالتاريخ، كي تعود الخارطة إلى
مكانها الطبيعي، وحافظ على وجوده بقوة،
وانبعث من جديد، ليؤكد أن الحق فوق أي
اعتبار، وليستحق كل تقدير وإعجاب، على
نضاله الدؤوب حتى اكتمال خارطة وطنه النهائي .

اللوحة

• الرسم .. لغة لا تحتاج إلى تعلم أو تعليم . فهي
لغة ، لا محكية ولا مسموعة .
• هي لغة الكل، والكل يفهمها إن لامسها
ولامسته حتى القلب .
• ولوحات الفنان العالمي ، بول غيراغوسيان ،
هي لغة الواقع المعبر عن الإنسان بكل حالاته ..
ولهذا ، فهي تفهم ببساطة ويسر .
• والسؤال ... هل يحتاج التعبير عن
النهوض والانبعاث والتجديد، وقهر
الظلم، أكثر مما تقوله لوحة الكتاب
بشخصها وألوانها .

